المشروع القومي للترجمة

عرض الأحداث التي وقعت في بغداد

في الفترة من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩م

(الحرب الممتدة التي لا تعرف اسمًا لها)

تأليف: أليس بسيريني
تقديم: ميشيل جولي
ترجمة: محمد رفعت عواد

615

المشروع القومى للترجمة

عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد

فى الفترة من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩م

(الحرب الممتدة التى لا تعرف لها اسمًا)

تأليف : إلِيس بسيرينى

ترجمة : محمد رفعت عواد

تقديم : ميشيل چولى

٢٠٠٤

المحتويات

مقدمة المترجم

تعتبر الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب الأراضى ، كما يتمتع العراق بثروات هائلة موجودة فى باطن الأرض تجعل من العراق اليوم ثالث دولة فى العالم الحديث من حيث احتياطى الطاقة . ولكى تتمكن الدول الاستعمارية الكبرى من الهيمنة والسيطرة على مقدرات العراق أغرتها بالدخول فى حرب مع إيران كلفتها ١٨٠ مليار دولار ومليون قتيل دون حدوث أى تعديل فى القوة بين البلدين أو تغيير فى الحدود . كما نصب الغرب فخا للعراق أوقعه فيه بالاستيلاء على الكويت . وخربت حرب الخليج جميع أجهزة البلاد ودمرت آلاف المنازل والمستشفيات والمدارس ، وبلغت تكاليف الخسائر الناجمة عن هذه الحرب ٣٢٠ مليار دولار ومائة ألف قتيل .

وفى شهر ديسمبر ١٩٩٨ أُسقط على العراق ٤٠٠ صاروخ إستراتيجى تعادل عشرة أضعاف ما أسقط على العراق طوال ٤٢ يومًا بعد الحرب عام ١٩٩٢ . واتخذ الأمريكان وحلفاؤهم البريطانيون قراراً من جانب واحد بالقيام بسلسلة من الغارات العسكرية لضرب العراق ، وأصبحت الغارات الأمريكية البريطانية شبه يومية على معظم أنحاء العراق . وفى خلال ثمانى سنوات من حرب الخليج ساد الجوع والحرمان كل مكان وأصبح العراق منذ ذلك الحين تحت وصاية الأمم المتحدة . وقد زرعت الأونيسكوم (لجنة فرض العقوبات) نفسها بطريقة تشبه الورم الخبيث بحيث تتصرف بدون عقاب أو محاسبة ، بل أصبحت خارج القانون وبعيدة عن السيطرة والرقابة . والتدمير الذى يقوم به خبراؤها للمواقع التى يزورونها ، وللطاقة الصناعية والثقافية ، ولسلسلة مصانع الإنتاج ، وللمنتجات المصنعة ، والمكتبات الجامعية، والمواد الإعلامية ، وكذلك الحظر التعسفى على تسليم منتجات ومواد مصنعة خوفًا من الاستخدام المزدوج لها أدى إلى تدهور حالة البلاد . لقد سقطت الأقنعة وظهر التطابق لأنشطة الأونيسكوم مع أهداف التجسس للمخابرات الأمريكية (CIA) ومع دولة إسرائيل .

لقد نشأ جو من الشك والريبة مما جعل البلاد فى وضع الشهيد والضحية نتيجة سوء النية الغربية .

وتؤكد المؤلفة أن العراق لا يتحرك إلا من الداخل ، ويشهد بذلك تاريخه ولا يمكن لأى تدخل خارجى أن يتجاهل تلك الحقيقة . ولا زالت الحرب الممتدة قائمة ومتواصلة من أجل بسط نفوذ المستعمر وهيمنته ، ولكن تاريخ العراق المجيد وبطولة رجاله الشجعان يؤكدان أن هذا الشعب لن يركع ولن يقبل الأجنبى على أرضه مهما حاول من بث الفتنة والوقيعة بين أبنائه بطريقة « فرق تسد » . إن هذا الشعب العظيم على وعى بكل ما يدور وسيخرج منتصراً ليستعيد أمجاده .

تقديم

ميشيل چولى

(المشرف على تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ لسنة ١٩٩٥)

تجد العراق تعريفها الأصلى فى الجغرافيا ، فنهرا دجلة والفرات يحددان حدوداً ويشكلان حاجزا بين الشرق والغرب يمتد من الجبال الكردية فى الشمال حتى الخليج فى الجنوب . وتعتبر الأرض الواقعة بين النهرين من أخصب الأراضى وتمثل عنصر جذب بشرى ؛ لمناخها المعتدل ونباتها الوفير ، فهى بمثابة واحة مترامية الأطراف نمت وترعرعت على شواطئ النهرين العظيمين ، وظهرت فيها أقدم الحضارات فى العالم ، وفيها ظهرت الكتابة وسُنَّت القوانين الأولى .

وقد عاش السومريون والأكاديون والآشوريون والكلدانيون وإبراهيم على هذه الأرض . وكان يحكم تلك المناطق ملوك عظام مثل حامورابى ونبوخذ نصرٍ من البابليين ، وكانت تلك المنطقة محل أطماع جيرانها حيث غزت حدودها جيوش قوية عدة مرات ، كما كانت نقطة انطلاق لغزوات عديدة .

ينحصر تاريخ العراق بأكمله فى تلك المنطقة الجغرافية . وقد ساعد وجود نهرين عظيمين على اتساع رقعة السهل الخصيب الذى كوَّن حدودا طبيعية بين الشرق الفارسى والغرب العربى .

وفى الوقت الحاضر احتفظ العراق بقدرته على الرهان والمغامرة . فلم تعد الأرض الخصبة أو الأنهار أو أشجار النخيل أو الموقع الإستراتيجى من العوامل التى تثير الأطماع فحسب ، بل الثروات الهائلة الموجودة فى باطن الأرض ، التى تجعل من العراق اليوم ثالث دولة فى العالم الحديث فى احتياطى الطاقة . ومنذ ما يقرب من مائة عام ، بدأت مناورات الدول الكبرى الغربية فى اقتسام غنائم وأسلاب الإمبراطورية العثمانية ،

ثم كانت المنافسة للسيطرة على حقول بترول الخليج العربى - الفارسى . وكان من نتيجة هذه المنافسة وفشلها أن أنشئت الدولة العراقية حيث تخلصت بسرعة من النفوذ الخارجي ، مما يبرهن على أن شعب ما بين النهرين لم تكن لديه أية نية فى أن يفقد هوية أسلافه .

وفى عام ١٩٦٨ طبقت الثورة مبدأ سيادة الدولة ، وتأكد ذلك عام ١٩٧٢ بتأميم البترول الذى كانت تستحوذ عليه - بوضع اليد - الشركات الأجنبية المدعمة من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، وتولى النظام البعثى نفسه تأميم البترول العراقى المدعم بالدولارات من عائد بيع البترول . رأى الغرب انفتاح سوق جديدة ، وفى الوقت نفسه لم يفقد الأمل فى استعادة هذا البلد الصغير الذى يتمتع بقوة جبارة وثراء فاحش وتأثير رهيب، وأن يعود يوما تحت وصايته ؛ فبدأ يمده بكل مساعدة يريدها ، وبذا أخذ العراق ينمو نموا سريعا . وكانت الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٥ تمثل سنوات سعد ورخاء ، ويعاصرها فى الوقت نفسه صعود دولة أخرى تاريخية هى إسرائيل التى ضمن لها الغرب المحافظة على السيطرة والتفوق العسكرى على الدول العربية وبلدان الشرق الأوسط مجتمعة .

والعراق دولة عربية اشتراكية يحكمها حزب البعث ، وتمارس فيها السلطات المركزية الديمقراطية على نمط الاتحاد السوفيتى القديم ، وتتجمع السلطة التنفيذية فى يد رجل واحد هو رئيس الجمهورية صدام حسين ، وهو فى الوقت نفسه رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد الأعلى للقوات المسلحة . أما السلطة التشريعية فهى فى يد الحكومة والمجلس الذى يضم ٢٥٠ نائبًا منهم ١٦٠ ينتمون لحزب البعث (حسب آخر انتخابات مباشرة عام ١٩٩٦) ويتولى المجلس تشريع القوانين بصفة رئيسية فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى . أما بالنسبة للمسائل الدولية والعسكرية فهى من اختصاص رئيس الجمهورية والحكومة . ويجوز لأعضاء المجلس مناقشتها ولكن الرأى الأخير لصدام حسين الذى فرض دائما مركزية السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . ومن الانطباعات السياسية لصدام حسين : « **إن الفصل الآلى بين السلطات متاح فى الغرب لكنه لا يتفق مع سياسة ثورتنا . . . فالثورة تفترض وجود الوحدة والاتجاه العام الموحد فى جميع القطاعات** » .

والنظام الحالى نظام شمولى ، ذلك أن التنظيم السياسى للعراق قائم على حزب البعث : توجيه الجماهير والدعاية وقمع أى انشقاق أو خلاف فى الرأى ، وفى فترة القحط يتولى الحزب السيطرة على توزيع المخصصات الغذائية المقننة .

ومنذ أن تولى حزب البعث السلطة اتبع سياسة صارمة للتنمية ؛ للتأكيد على السيادة القومية وتحديث الدولة على الطريقة الغربية وتحقيق الرفاهية الاجتماعية . وبذلت جهود كبيرة من أجل تحويل الدولة من مجتمع ريفى تقليدى إلى السير بخطى قوية نحو العصر الصناعى وما يتطلبه من إعمار المدن ووقف الهجرة من الريف وتفتيت التجمعات التقليدية والأسرية والعشائرية والقبلية والدينية .

أحدثت الحرب ضد إيران توقفًا عنيفًا لسياسة التنمية بسبب المجهود الحربى الضخم ، فقد بلغت التكلفة الإجمالية التى استمرت سبع سنوات ١٨٠ مليارًا من الدولارات ، وتم توفير التمويل اللازم لها من عائدات البترول والاحتياطى العام إضافة إلى قرض من السعودية بلغ ٨٣ مليار دولار. ولم تؤد هذه الحرب إلى أية نتيجة إيجابية، بل على العكس خلفت وراءها مليون قتيل دون حدوث أى تعديل فى القوة بين البلدين أو تغيير فى الحدود . ومع ذلك ، لم تتعرض الحرب لتدمير البنية الأساسية أو للوسائل الخاصة باستئناف النشاط الاقتصادى للدولة . أما بالنسبة لحرب الخليج عام ١٩٩١ فقد دمرت أو خربت جميع أجهزة الدولة التى لابد من استعادة نشاطها واستئناف أعمالها مرة أخرى ، إضافة إلى تدمير آلاف المنازل والمستشفيات والمدارس . . . وقدرت تكاليف الخسائر الناجمة عن هذه الحرب ٣٢٠ مليار دولار ، ووصل عدد القتلى إلى مائة ألف قتيل من المدنيين والعسكريين ومائة ألف عاجز . وليس أمام المرء إلا أن يدرك مدى التكامل التام لهاتين الحربين .

وإزاء تلك الحالة من الهزيمة الساحقة والخراب المدمر ، إذا بالحظر يتم فرضه تحت مسمى "عقوبات" بقرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عام ١٩٩١ ، وهو حظر شامل ليس فقط منع تصدير البترول ووقف سياسة إعادة تسليح العراق ، بل شمل أيضا التبادلات الضرورية التى تقوم بها الدولة مع المجتمع الدولى ويدخل فى نطاقه التمثيل السياسى أو الاقتصادى أو التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

والعراق دولة مهزومة خاضعة شرعًا للجانب المنتصر ، وإذا بالحظر يجعل منها دولة كما لو كانت لا وجود لها وفى حالة كمون سياسى ، وأصبح من السهل توجيه أى اتهامات وتصورات شيطانية لا وجود لها فتجعل النظام فى موقف المدافع ويقف مفندًا الاتهامات التى توجه ضده .

وصار الحظر المفروض على العراق بمثابة إغلاق للدولة وإقامة حواجز ضدها كما لو كان عقوبة الغرض منها اختبار نوايا إلى أن يتم التأكد من التوبة والإقرار بالذنب مع الندم ثم التكفير عن الإثم وإظهار حسن السير والسلوك . وإزاء حالة البؤس هذه ، كيف يحيا الإنسان وينتج فى مجتمع لا حراك فيه ، بل متجمد فى مكانه ؟ لقد أصبح الرجل العراقى فى منتصف الطريق بين الحلم بالتقدم والحضارة وبين الانحطاط البشرى والمهانة ، وليس أمامه من خيار سوى الحنين للماضى والانتهاء من هذا الوضع على وجه السرعة وبأى شكل من الأشكال ، ولم يعد قادرا على الانتظار لمجىء منقذ يخلصه من هذا الوضع ، بل ركن إلى حالة من الكسل والمعاناة . والحل الوحيد أمام هذا الشعب هو رفع العقوبات حتى يتمكن من استعادة قوته وصلابته .

وقد أتيحت لى الفرصة أن أقضى حوالى عام من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٨ فى العراق - ذلك البلد الغريب عنى - لكى أشرف وأتأكد من توزيع المخصصات الغذائية والمواد الأولية التى أقرتها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٩٥ بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ الخاص بالشراء من الخارج ، مخالفا بذلك إجراءات الحظر المفروضة لتخفيف المعاناة عن السكان . وكان المفروض أن تكون لهذا الغرض بعثة ذات طابع إنسانى ، ولكن فرض على فريق المراقبين الذى كنت أرأسه الامتناع عن أى تدخل مباشر ، وتقليص دورنا إلى مجرد رفع تقرير إلى مجلس الأمن فى حالة توقف سير العمل فى التوزيع . . . الأمر الذى أصابنا بالإحباط وعدم القدرة على التصرف لمواجهة النتائج الرهيبة الناجمة عن فرض الحظر ، وإزاء تلك المواقف التى تتسم بالغموض والتحفظ الصارم ، لجأت إلى متابعة تطور العمل الدقيق والتحقيقات والمقابلات الجريئة التى أجرتها إليس بسيرينى التى تميزت بالحرية الكاملة نتيجة إصرارها وعنادها فى جمع المعلومات .

فقد استطاعت أن تلاحظ وترصد ما لم تتح لى الفرصة للقيام به ، وقابلت أصدقاء عراقيين كنت أتجاهلهم ، ووجهت إليهم أسئلة كانت تحرق لسانى ولكنى كنت أكتمها بحكم طبيعة عملى وحدود وظيفتى ، فكانت شاهداً على المأساة التى يعانيها الشعب العراقى ، وكان رائدها فى ذلك ضميرها الحى . ولا أتفق بالضرورة مع كل ما ذكرته المؤلفة ؛ لأنه ليست لدىَّ الخبرة نفسها التى لدى أليس بسيرينى عن العراق ولا الآراء نفسها. ومع ذلك ، فنحن متفقون على الجوهر : فالشعب العراقى أخذ رهينة سواء بنتائج الحظر أو بالسلطة الشمولية التى قوتها المحركة الوحيدة التحدى العنيد . والشىء الأكثر تقديراً فى نظرى فى هذا الكتاب هو رفضها تسجيل تلك الوقائع فى خطاب رسمى بالغرب ، لأن ذلك لا يتم بدون الدخول فى مغامرات ، أولها أنه يتم عبر المتحدث الرسمى العراقى ، فأين إذن الحقيقة ؟ ولكن ألِيس حسمت الموقف وأوضحت لنا الحقيقة والمعاناة التى مست القلوب .

والزائر الذى يتوجه إلى العراق فى زيارة رسمية ينزل غالبًا فى فندق الرشيد التابع للحكومة ويقع فى الحى الرئاسى ببغداد ، ويعتبر من أفخم الفنادق العراقية على الرغم من ضعف مستوى الخدمة و الاستقبال واللامبالاة من جانب العاملين ، والكآبة التى تخيم على الأماكن . إلا أن ما يلفت نظر الزائر الجديد أنه بمجرد اجتيازه باب الدخول يجد نفسه مضطرا إلى اجتياز المدخل حيث توجد صورة ضخمة من الفسيفساء على أرضيته تمثل وجه الرئيس جورج بوش الأب الذى قاد التحالف فى حرب الخليج ، ومصممة بحيث تدوسها الأقدام ! لماذا ؟ كتب على الرخام : « بوش مجرم » . فهل هذا من قبيل الإهانة أو التحدى أو شكل من أشكال الدعاية غير المعروفة فى الغرب ؟

وعند الوصول إلى داخل الفندق من هذا المدخل الوحيد تقابل بنوع من التملق .

ولا تعترف الحكومة العراقية إلا بثلاثة أنواع من الشركاء :

الأعداء بلا قيد أو شرط ، والأصدقاء بلا قيد أو شرط ، والمنافقون . فهى لا تعرف الصداقة التى توجه النقد لها ولا تعترف باللون الرمادى وإنما الأبيض أو الأسود ، إما معنا أو ضدنا ؛ فمنذ تسع سنوات من البؤس والشقاء والأوضاع متجمدة والثقة معدومة .

إنه عصر الشك وعدم الثقة .

وأود أن أضيف هنا أن أليس بسيريني ليست منافقة وكذلك القصص التى أوردتها فى كتابها . إنه عمل يتسم بالشرف والأمانة والموضوعية ، وقد ابتعدت تماما عن الخطب والأحاديث الرسمية وأوردت رأيها الشخصى المدعم بشهود ؛ ولذا لم يكن لها بد من التوجه إلى العراق فى الوقت الذى لم يتوجه إليه أحد للوقوف على الحقيقة عن قرب ثم البدء بالكتابة عن الأحوال هناك .

والخلاصة ، إن كتابها ملىء بالتعبير عن حرية الرأى والفكر والشجاعة ، وابتعدت فى الحصول على معلوماتها عن الجو السياسى أو الأمم المتحدة أو شرعية العقوبات الدولية والاستخدام العنصرى والوحشى للسلاح الاقتصادى .

تمهيد

حرب ممتدة لا تعرف لها اسمًا

ديسمبر ١٩٩٨ عشية عيد الميلاد المجيد ورمضان ، سقط على العراق ٤٠٠ صاروخ إستراتيجى تعادل عشرة أضعاف ما أسقط على العراق طوال ٤٢ يومًا من الحرب عام ١٩٩٢ ، وانتاب الناس الرعب والفزع وطار النوم من أعينهم ، وخلفت تلك الصواريخ دمارًا هائلاً للمواقع العسكرية والمبانى والمنشآت المدنية والمستشفيات والمدارس والمنازل الخاصة وقتلى وجرحى ومشوهين ، وكان من الصعب تقدير أعداد القتلى والجرحى ، وإن قدرت الخسائر بخمسمائة قتيل و ١٥٠٠ جريح . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه دراسة تقرير مقدم من لجنة فرض العقوبات الدولية (الأونيسكوم) بموجب قرار الأمم المتحدة رقم ٩٨٦ ، اتخذ الأمريكان وحلفاؤهم البريطانيون قرارًا من جانب واحد بالقيام بسلسلة من الغارات العسكرية لضرب العراق .

وفى شهر أغسطس ١٩٩٨ ، أطلقت الصواريخ كذلك ، ولكن فى هذه المرة على السودان؛ فدمرت مصنعا للأدوية اشتبه الأمريكان فى أن يكون مصنعًا لإنتاج الأسلحة الكيماوية المحظورة، وقامت المظاهرات فى جميع المدن العربية وأحرقت العلم الأمريكى. كان مصنع الأدوية السودانى يقوم بتسليم العراق الأدوية التى يحتاجها بصفة إنسانية ودون مقابل عن طريق لجنة فرض العقوبات وذلك تطبيقًا لقرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ . ومنذ عام ١٩٩٨ والغارات الأمريكية البريطانية تكاد تكون شبه يومية على معظم أنحاء العراق الذى تحول إلى ميدان دائم لإطلاق النار ، والقتلى والجرحى المدنيون والعسكريون يتساقطون ، إضافة إلى تدمير المواقع المدنية والعسكرية .

وفى خلال ثمانى سنوات منذ حرب الخليج ساد الجوع والحرمان كل مكان ، وأصبح العراق منذ ذلك الحين تحت وصاية الأمم المتحدة .

وفى مايو ١٩٩٦ تم التوقيع على نص مذكرة التفاهم بين الحكومة العراقية ومجلس الأمن الخاص بنشر ١٥٠ مراقبًا موزعين على جميع أنحاء العراق للقيام بالتحقيق والإشراف ومراقبة عمليات تسليم وتوزيع السلع الإنسانية التى حددها قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ الذى يجرى تنفيذه بمعرفة الموظفين العراقيين بدءا من مراحل التوصية حتى تسليم السلع . وازدادت حدة الفاقة التى يعانى منها الشعب العراقى .

وقد أضفى ازدواج النص العراقى الخاص بتوزيع السلع الغذائية وعمليات المراقبة بموجب مذكرة التفاهم طابع المساعدة للسكان لتدعيم فكرة الدولة التى ترعى الشعب لتوفير الغذاء ، إلا أن نص مذكرة التفاهم قد خلَّف آثارًا ضارة أقل وضوحًا لكنها أكثر خطورة على المدى الطويل وفى الصميم .

والمعروف أن القرار ٩٨٦ ذا طابع إنسانى أُعلن للحد من مآسى الشعب العراقى ، لكنه استخدم فيما بعد حجة لتثبيت العقوبات الدولية دون تحديد مدة زمنية لانتهائها .

زرعت الأونيسكوم (لجنة فرض العقوبات) نفسها فى النص بطريقة تشبه الورم الخبيث بحيث تتصرف بدون عقاب أو محاسبة ، بل أصبحت خارج القانون وبعيدة عن السيطرة والرقابة . والتدمير الذى يقوم به خبراؤها للمواقع التى يزورونها وللطاقة الصناعية والثقافية ولسلسلة مصانع الإنتاج وللمنتجات المصنعة والمكتبات الجامعية والمواد الإعلامية وكذلك الحظر التعسفى على تسليم منتجات ومواد مصنعة بصورة منتظمة خوفًا من الاستخدام المزدوج لها أدى إلى تدهور حالة البلد . لقد سقطت الأقنعة وظهر التطابق لأنشطة الأونيسكوم مع أهداف التجسس للمخابرات الأمريكية (CIA) ومع دولة إســرائيل ، وقد ولدت تلك التصرفات السيئة أبعادًا لأسواق الطاقة تعود بالنفع قبل كل شىء على الاقتصاد الغربى . وتقلص دور الاهتمام الإنسانى ومكانته إلى أدنى حد فى هذا المنطق العجيب ، وضعفت حماسة الأونيسكوم ولم تعد تهتم بتقنية ملفات نزع السلاح .

وتابعت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عمليات التفتيش دون أى عوائق لمدة ثمانى سنوات ، ونشأ جو من الشك والريبة اتخذ ذريعة للتحديد اللانهائى للعقوبات التى ليس لها ما يبررها ، سواء فى الأمم المتحدة أو القانون الدولى ؛ مما جعل البلاد فى وضع الشهيد والضحية نتيجة سوء النية الغربية .

إن النتائج النفسية لهذا النص عديدة ولا يمكن حصرها .

كما أن عملية وضع البلاد تحت الوصاية لا تتعارض مع طبيعة النظام البعثى ؛ لأن سيف الطابع الديكتاتورى ظل مسلطًا على الرقاب مثل [الشىء المرعب] فى الغرب . وقد ساعد إعلان النوايا الغربية على تشجيع ظهور الديمقراطية ، ولكن قلما يشعر بها الناس الذين هم فى حالة جوع وسوء تغذية وبعد عن التثقيف لعدم توفر الإمكانيات ، فأصبحوا لا أمل لهم ولا مستقبل . وبدلاً من أن يثوروا ضد حكامهم تقوقعوا داخل منازلهم : إما بدافع الحاجة المادية أو كرد فعل لا إرادى . وتؤدى هذه النوايا إلى سياسة التصادم والتداخل ؛ مما يزيد من حدة المعاناة للشعب دون تخفيف العبء ، ويبدأ نوع من الاستخفاف بالغطرسة الشرسة التى لدى العراقيين وبالجهود غير المسبوقة للنظام البعثى ، التى ظهرت فى التوسع الاقتصادى والدخول فى الحياة العصرية عن طريق استثمار عوائد البترول فى الخدمات العامة . إلا أن التدخل السافر من جانب خبراء لجنة فرض العقوبات (الأونيسكوم) والإزعاج الذى يسببونه جعل العراق مسرحًا للتحالف ضدها للقيام بعملية اغتصاب بموجب القانون . كما أن دعم تلك العلاقة الشريرة لن ينتهى بدون أضرار مستمرة على المدى الطويل تزداد عمقًا وخطورة وأشد ضراوة من الآثار النفسية المتعاقبة التى نجمت عن القحط الذى استشرى وتوطن .

وهناك ضرورة ملحة فى كسر هذا الرابط الشرير المهيأ لفرز آثار جانبية من التعقيدات بين الضحية وجلادها ، والجلاد فى هذه الحالة متمثل فى السلطة الأمريكية والمنظمات التابعة للأمم المتحدة وليس النظام العراقى . كما أنه من العبث الادعاء بإعداد بديل خارجى يحل محل السلطة البعثية ، فالعراق لا يتحرك إلا من الداخل ويشهد بذلك تاريخه ، ولا يمكن لأى تدخل خارجى أن يتجاهل ذلك . والشىء المحزن أننا نشفق على مصير الأطفال العراقيين والوضع الإنسانى عموما . ومن المفيد التعرف على عمل الوكالات التابعة للأمم المتحدة التى تعمل بضمير ودقة بموجب عقد . وبالتأكيد يظل البترول الهدف المعلن، والذى قل شأنه مع ذلك منذ سحق العراق وأصبح موضوعًا للتعامل فى البورصة خارج نطاق قرارات الدولة .

وتتوالى الأزمات والادعاءات الباطلة والخادعة ، ويظل العراق مجرد حجة وغدر كعملية السلام الزائفة بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، على طريقة السلام الأمريكية التى لن تفقد الأمل فى القرارات وإنشاء دولة فلسطين التى طالبت بها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ .

وقد لا يشعر المرء بالدهشة من أن النداءات التى تطالب بالجهاد الإسلامى لم تحدث صدى داخل الدول العربية الإسلامية ، رغم القهر والردع شبه الكاملين من جانب الأنظمة الاستبدادية فى الدول الفارسية أو التركية أو العربية الإسلامية .

« وقد يتساءل المرء حول الدور المتبع عند العودة إلى الدين والشعور بالانتماء لشعب شهيد لُفظ من المجتمع الدولى ولا يجد إنقاذه إلا فى الإيمان » . كما أوحى لى بذلك ميشيل چولى . « فالمعاناة المادية والشعور بالعجز وفقدان المثل العليا والصراع حول العودة إلى الأسلوب الحضارى تؤدى بشكل تلقائى إلى الإيحاء بفكرة العقاب الإلهى وليس بالضرورة عقاب المجتمع الدولى . وهناك افتراض يتميز بالجرأة والجسارة يتيح إقامة توازن بين العراق وإسرائيل » .

فالطابع الاضطهادى للعقوبات يستمر فى إيجاد مبررات تجعل الدولة يوما بعد آخر أكثر انطواء على نفسها بدلا من البحث عن عمليات للعلاج والشفاء والإصلاحات الضرورية والقانونية والعمل على إيجاد الانفراج وتخفيف الضغط ؛ للخروج من الجحيم الذى يصبغ البلاد ويجعلها فى حالة حرمان ونفور وتقوقع وفى وضع العجز الرئيسى ، مما يكشف عن مطالب ملحة وعاجلة للمؤن والأدوية والمنتجات المصنعة . ومن الأمور الحيوية إعادة بعث الحياة فى المعرفة والعلوم العقلية والأجهزة الحديثة الخاصة باكتساب المعلومات والمعرفة الجديدة وكذلك التكنولوچيا الحديثة والقدرة على إنتاج وتبادل العلوم الجامعية والفنية والذهنية ؛ حتى تمتص الهوة السحيقة والمميتة التى أوقعوا فيها البلاد ، وإعادة صورة العراق لكى يكون قادرا على إنتاج المزيد من القيم الاجتماعية والثقافية بدلاً من تدميره والقضاء عليه .

الفصل الأول

الحدود

الثانى والعشرون من أغسطس ١٩٩٨ . العودة من بغداد

نقطة حدود طرابيل

مرت بى أحداث جعلتنى أكره الحدود . فقد قضيت أكثر من ساعتين لإنهاء الإجراءات الخاصة بالجمارك العراقية ، فالحقائب يتم حملها من مكان لآخر ، وكل حقيبة لا يقل وزنها عن خمسين كيلو جراماً إضافة إلى أمتعة السفر الأخرى وآلة التصوير وحقيبة اليد وهدايا أخرى كثيرة فى آخر لحظة ولم تستوعبها الحقائب . أما فى حالة العودة إلى بغداد ، فلم أكن مكتظة بالأحمال ورتبت الهدايا التى أحضرتها فى حقيبة سفر واحدة لأنه من المستحيل أن تذهب لزيارة الأصدقاء والصديقات ويدك خاوية ؛ لأن البيوت التى كنت أزورها تكاد تكون خاوية من كل شىء. فلم يتبق فى بغداد سوى الملابس والجرائد والكتب وكراسات المدارس وبعض الأدوية وأدوات المكتب ولعب الأطفال وأكوام الأقمشة المخملية ومحلات العطور ومتاجر الحلوى وبعض الحلويات التى قلت كثيراً فى العراق وأصبح سعرها خياليا إن وجدت .

كان بإمكانى السفر دون حمل أمتعة غير أنى لم أتمكن من رفض الهدايا عند قدومى أو رحيلى ، كما لم أقاوم إغراءات عرض سوق المستنصرية القديم ولا سجاجيد بابل التى يعرضونها عند إشارات المرور فى حوانيت صغيرة تجذب الأنظار . . كل ذلك سيكون عبئًا ثقيلاً على حقيبة السفر ، وكذلك التمر الطازج الذى قدموه لى بكميات كبيرة

كهدايا للأصدقاء والأقارب فى باريس ، إضافة إلى بعض قوارير العرق المعتق المصنوع من التمر ويباع فى بغداد بسعر بخس .

أغادر بغداد وأنا محملة بمستندات خاصة بالأمم المتحدة ، وكتب أكاديمية العلوم المصرح بها بموجب تصديق خاص من الوزارة ، وكميات من الطعام أعدتها لى دعاء لزوم الرحلة من بغداد للأردن التى قد تستغرق عشرين ساعة . لم أقاوم إغراءات عرض تجار المجوهرات ولا الأصدقاء الذين وجدت لديهم عقوداً من الكهرمان وخواتم ذات أحجار كريمة ضخمة وبعض الهدايا الأثرية القيمة .

من ناحية أخرى ، فقد أثر ارتفاع قيمة الدولار بشكل رهيب على المشتريات التى أصبحت قاصرة على الاحتياجات المنزلية دون سواها ولا تتخطاها إلى الحصول على الأجهزة ، والأدوات الإعلامية أو المنتجات الخاصة بالصيانة أو الكماليات التى أصبحت رديئة ودون المستوى ، وكذلك النزهات اليومية والسهرات التى يعمل لها حساب فى ميزانية الأفراد التى تمتصها المطالب الملحة والتنقل بسيارات الأجرة وما ينتج عنه من استنزاف ضخم لميزانية الأسرة .

عدت و فى جعبتى « حواء وآدم » ذلك التمثال المصنوع من البرونز الثقيل ؛ الأمر الذى جعل الحقيبة تخلع كتفى .

كنت قد توقفت طويلا فى قاعة عرض دودى الفنية فى الكرّادة أتأمل تمثالاً صغيراً تتصدر صورته غلاف كتالوج أحدث معرض للنحت أقيم فى المركز الثقافى الفرنسى. التمثال عبارة عن رجل وامرأة شبه ملتصقين لكن يفصل بينهما حيز بسيط . يرمز هذا التمثال الصغير إلى مأساة الشرق وعلاقاته بالعالم والجنوب وعلاقاته بالغرب والثقافات ومأساة الرجال والنساء . ترددت ثم قررت فى نفسى ألا أتركه ، واقترضت مبلغًا من الدولارات من جيرار ومارى فكانت سعادتنا نحن الثلاثة لا يعادلها شىء. وقد أعربت نرمين عن بهجتها وهى فى الأستوديو الخاص بها قائلة : « على أرض بلدى العراق اكتشف رجل وامرأة الحضارة وورثها العالم عنهما ، إننى فخورة بذلك ، فيا له من ازدهار وذخر قدمه العراق للإنسانية . . وماذا بقى لنا من هذا القربان كى يقدمه هذا البلد الذى مزقته الحروب ولم يتبق لنا إلا القتل والاغتيال » .

ثمانى سنوات مضت

مرت ثمانى سنوات وأنا أستخدم خط السير البرى نفسه مثلما يفعل أغلب المسافرين منذ ثمانى سنوات ؛ إذ إن العراق يقع تحت الحصار الجوى ، ولا يصل إلى العراق بالجو سوى موظفى الأمم المتحدة والأونيسكوم (UNSCOM) وهأنا الآن فى رحلتى العاشرة أقطع ألفى كيلو متر ذهابا وإيابا فى كل رحلة عبر الصحراء لمدة ١٤ إلى عشرين ساعة فى كل مرة ونقضى ثلث هذا الوقت فى إجراءات الجمارك والجوازات .

لقد اعتدت ذلك .. وأول تاكسى ركبته كان فى أغسطس ١٩٩١ بقيادة سائق فلسطينى فقد إحدى عينيه بسبب صاروخ أمريكى أطلق على جسر الفلُّوجة أثناء حرب الخليج ، وتعطلت سيارته بعد الحدود مباشرة ، وطوال تلك الرحلة ، كان الشعور بالأسى هو السائد من أثر الهزيمة . وكانت هناك الشركة الأردنية «الجرش» بسياراتها القديمة غير المريحة هى السائدة على الطرق الأردنية الوعرة ، وقبل أن يعم الرخاء من الامتيازات التى حصل عليها الأردن من الترانزيت الإجبارى إلى العراق بالطريق البرى ، وأخيراً هناك الأتوبيسات العراقية التى انتهت مدة صلاحيتها للخدمة منذ الخمسينيات وأجَّرتها وزارة الثقافة للمدعوين فى مهرجان بابل . وفى الوقت نفسه كانت هناك السيارات الـ GMC الأمريكية الفاخرة والحديثة ، التى تغادر عمان بأسعار خيالية حيث يدفع الفرد مائتى دولار عن الرحلة الواحدة إضافة إلى البقشيش للسائق ويتولى جميع وجباته طوال الطريق . وكنت بصحبة كلود وهى صحفية نشيطة أرسلها مجلس الشيوخ الفرنسى ، مع مراعاة اتخاذ المراسم الخاصة بالشخصيات المهمّة جدا (VIP) . قطعنا المسافة بهذه السيارة فى عشر ساعات فقط وليس لدىّ الإمكانات التى توفر لى الاستفادة من هذه الرحلة المريحة وعلىَّ أن أستقل الأتوبيس الجيت العجيب الذى يقطع المسافة عدة مرات فى اليوم بغداد - عمان وبالعكس حاملاً المسافرين .

يعتبر الجيت العراقى من أرخص الوسائل للسفر والأكثر أمنًا أيضًا ؛ لأن الاعتداءات أو الهجوم فى الصحراء لا يقع إلا على السيارات الخاصة . ولكن الإجراءات تستغرق وقتا أطول لجموع المسافرين فى منافذ الجمارك والتفتيش والتحقيقات

التى قد تمتد في بعض الأحيان لعدة ساعات . اصطحبنى صديقى الرسام قاسم السبتى حتى الرحيل . وكنا قد قطعنا المسافة للوصول إلى منفذ الحدود بسيارة خاصة وكان معنا صديق آخر هو الفنان إسماعيل فتح ، وقضينا نحن الثلاثة وقتًا ممتعًا ، ثم ركبت الأتوبيس العراقى واحتجز الصديقان فى بغداد ، حيث تعرضنا لإجراءات داخلية معقدة فى الجوازات واستخراج تصاريح وتسجيل المصنفات الفنية المطلوب عرضها ودفع ضريبة خروج للفنانين (أربعمائة دولار) لقبول دعوات فى الخارج ودفع رسوم التأشيرات المطلوبة وموافقة مصلحة الأمن العام وتراخيص من الوزارة ومن أكاديمية الفنون ومن الجامعة التى تخرجا فيها وموافقة وزارة الداخلية .

تستغرق هذه الإجراءات ستة أشهر على الأقل حتى يتم الانتهاء منها . . مُر علينا غدا إن شاء الله . . بعد ثلاثة أيام ربما . . الأسبوع القادم إن شاء الله . . لم أعد أطيق الانتظار ، فالطائرة لها موعد إقلاع محدد ولا تنتظرنى ، وعلىَّ أن أرحل بدون قاسم أو إسماعيل وأن أعود بصحبة « حواء وآدم » . لقد ناقض قاسم نفسه ولم يستطع أن يفى بوعوده وغرق فى كم هائل من الإجراءات والتصاريح وتسجيل المصنف لدى الوزارة والمتحف ووضع الأختام والتصديقات ، وأصبح تصدير المصنفات الفنية يخضع لإجراءات تنظيمية صارمة .

لابد من إخراج الحقائب من المستودعات وحملها إلى صالة الجمارك وفتحها وتفتيش محتوياتها بدقة . أما الربطات الملفوفة بصورة غير محكمة والتى لم توضع فى الحقائب فقد تبعثرت ، والحقائب التى تحتوى على خصوصيات كالملابس الداخلية أو الهدايا والأشياء العائلية فإن هذه الخصوصيات تُنتهك بنظرات وأيدى رجال الجمارك الذين يعبثون بها ، فهم يبحثون بكل الطرق عن الدولارات والعملات الصعبة والبضائع المهربة والمصنفات الفنية والوثائق السرية دون استخدام أداة فاحصة (سكانر Scanner) للتحقق من المحتويات ، أو أجهزة حاسب آلى لحصر البيانات والمعلومات وإنما يتم كل شىء يدويا ، ويترتب على ذلك إهدار الوقت فى هذه الإجراءات . وكم من استمارات يتم ملؤها والتحقق من تأشيرات الخروج وأختام الوزارة والضرائب التى تسدد وشهادات الإعفاء من الخدمة العسكرية وجوازات السفر التى تم التأكد منها ومراجعتها .. كل هذا يولد ابتسامات باهتة ومجهدة .

استغرقت فى محادثة مع موظفة الجمارك التى وقع عليها الاختيار لتفتيش النساء ، يعلو وجهها الجاذبية لكن يغمره الإجهاد والتعب وتغطيه مساحيق التجميل رغم تلك الساعة المتأخرة من الليل ، فقد كانت الساعة الواحدة صباحاً ، وكنا قد غادرنا بغداد فى الساعة الثانية بعد الظهر .

– هل معك ذهب ؟

– لا ، فأنا لا أحب الذهب بل أفضل عليه الأحجار الكريمة . وأظهرت لها عقدى المصنوع من الكهرمان ، الكبير المعلق فى سلسلة ، والحلية الكبيرة المصنوعة من السيراميك التى أهداها لى صديقى المثّال اتحاد كارم ، والخواتم المرصعة بفصوص الكهرمان التى قدمت لى هدايا .

– وأنا كذلك لا أحب الذهب . . ماذا كنت تعملين فى العراق ؟

– قامت نصرة السعدون بترجمة كتابى الأول إلى اللغة العربية فى بغداد بناء على طلب وزارة الثقافة ، وحضرت لإعداد وتأليف كتاب آخر سأتحدث فيه عن النساء بصفة خاصة ، والعراق بأكمله يعتمد عليهن ، خاصة وأن شخصية المرأة العراقية تتميز بأنها مثيرة للإعجاب .

انفرجت أسارير الوجه وأفصحت العيون عن نور يشع منها ويسكن فى أعماق مقلتيها . وبسرعة باحت لى بأسرار حياتها . فهى مطلقة وتقوم بتربية ورعاية أطفالها الأربعة بمفردها دون كفيل أو وصى من العائلة ، وليس لها دخل سوى مرتبها الهزيل من عملها بالجمارك. إنها بحق حياة يومية مستحيلة. فكيف يمكنها أن تواصل تلك الحياة ؟ ووعدت نفسى بالرد على تلك المعضلة فى الرحلة القادمة ، وبسرعة أيضًا تبادلنا العناوين على وعد بلقائها . فامرأة كهذه مثل نساء كثيرات يصارعن الحياة بمفردهن ويرفضن جحيم زواج فاشل ويتعرضن لخزى وعار العائلات ، وتكون النتيجة أنهن يدفعن الثمن غاليًا . افترقنا والأسى يغلفنا ، وتعانقنا . وعلى أن ألحق بباقى الركاب فكنت آخر راكبة موجودة فى الجمارك حيث أمضينا ساعتين ، ولابد من قضاء ساعتين أخريين على الأقل للإجراءات نفسها ولكن على منفذ الحدود الأردنية . وقمت بجر الحقائب وحقيبة السفر ، وكان ذلك آخر وداع لى للعراق ، ولم أشعر بأية رغبة فى ترك

هذا البلد . وأخذت حقيبة السفر تجر ذراعى المؤلم وتسحبه نحو الأسفلت اللزج ، وانكسرت عجلات الحقيبة وساعدت الحمولة الثقيلة فى زيادة آلام الظهر والكتفين . تملك التعب جميع المسافرين وأصبحوا كالمخدرين بعد أن قطعنا ٦٠٠ كيلو متر من الطريق . وفجأة انزلقت قدمى على حافة الرصيف وحدث التواء بالقدم وتمزّق بالأربطة والعضلات وتورمت القدم وانتشر الألم وارتفعت درجة حرارتى ، ولا أحمل معى أدوية لمثل تلك الحالة ومعى حقيبة وزنها خمسون كيلو جرامًا علىّ أن أسحبها وأضعها بنفسى فى السيارة الخاصة بنقل البضائع ثم إخراجها بعد ذلك وعرضها على رجال الجمارك الأردنيين . ولابد من شراء تأشيرة دخول بستة دينارات أردنية - ما يعادل ٦٠ فرنكا - ثم التصديق على هذه التأشيرة . إننى أكره الحدود .

أغسطس ١٩٩٠ الهجوم على الحدود بأعداد غفيرة

تذكرت الخروج الجماعى عام ١٩٩٠ فى المنطقة وازدحام الطرقات وطوابير السيارات التى لا نهاية لها على منافذ الحدود بين سوريا والأردن وسيارات نقل وصناديق كبيرة محملة بمراتب مطوية وأغطية وأدوات مائدة وكراس وأثاث وكل ما هو لازم ومفيد ، وأطفال يهبطون بغير انتظام وأفكارهم مشوشة ، وعائلات تخيم على حافة الطريق الترابى وإبريق شاى لتسخين الماء وساندوتشات . الجميع فى انتظار إجراءات الجمارك ، وجوازات السفر يتم نقلها فى رزم داخل أكياس كبيرة من البلاستيك وجميع الجوازات لونها أخضر من الكويت وفلسطين وسوريا والعراق والأردن ومصر والمملكة العربية السعودية ، ويتحدث الجميع اللغة نفسها : العربية . خروج جماعى فى المنطقة المشتعلة عقب الإعلان عن دخول الجيش العراقى للكويت ثم انتشار القوات الأمريكية فى منطقة الخليج . إن المأساة التى على وشك الوقوع تسير بخطى سريعة على درب طرقات عرب الشرق الأوسط . كما يهرب مهاجرون للبحث عن مأوى وأرض استقبال من جديد ، وأسرة تأويهم . كانت الوجوه منهكة من التعب والسفر المضنى فى الطريق تحت لهيب شمس أغسطس .

وصلت حالة الغم والكرب إلى أقصى درجة . أخذنى رجل كويتى يرتدى ثوبا أبيض غير نظيف كشاهد على مأساته ، أخذ يتحدث أمام شباك الجوازات قائلاً : إن ثروته التى تقدر بملايين الدولارات قد جُمدت فى المصارف التى احتلتها القوات العراقية ونزل إلى حد التسول . كان وجهه الممتلئ ينم عن حياة مترفة . جفت الدموع ولم تعد لديه رغبة فى البكاء على مصيره . تكدست الأسر على قارعة الطريق وعلى الحدود .. تلك الحدود الممتدة من حوالى سبعين عامًا بشكل واضح بموجب اتفاقيات سايكس بيكو التى بموجبها تقاسم البريطانيون والفرنسيون السيطرة على المنطقة ، وخاصة بترولها ، واقتطعوا منها أرضا لاستقبال اليهود حيث كانت أوروبا على وشك إبادتهم . تعتبر تلك الحدود مرتعا ومرعى للأغنام والماشية وأماكن لخيام البدو .

عبرت الحدود السورية - الأردنية بمصاحبة جنيفيتين : شاعرة وفيلسوفة ، وهالة الطالبة الفلسطينية التى تجمع الذكريات عن قرى فلسطين وسكانها الذين انتشروا داخل المدن الكبرى فى سوريا والأردن . جلسنا ننصت إلى الأخبار فى المذياع باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية . وسمعنا الرئيس ميتران يطلق مفهوم «منطق الحرب» . وبعد أن كنا نجرى وراء الأخبار الخاصة بالانتفاضة ، إذا برياح التمرد والأمل الأحمق تخيم على الأجواء .

مررنا بمخيم اليرموك بضاحية دمشق ، وبمخيم وردات بعمان الذى دمره الجيش الأردنى عام ١٩٧٠ فى أثناء « أيلول الأسود » (سبتمبر) .

وقد حدثت به مقاومة شديدة وتم إخفاء جورج حبش وآخرين من غير المرغوب فيهم ، وعلقت صور الشهداء ، وفقد آباء وإخوة ، ومارس الأطفال أيضا الانتفاضة بمساندة أعوانهم بفلسطين حيث قادوا حرب العصابات ضد المحتل الصهيونى وانتزعوا إعجاب العالم . والمعروف أن أكثر من ٦٥ ٪ من سكان الأردن فلسطينيون رحلوا من القرى الفلسطينية أو من المخيمات التى أقيمت فى لبنان .. وينبغى تطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة بما فى ذلك إنشاء دولة فلسطين ، ومنذ أربعين عامًا وهذه القرارات تتكرر وتتردد كل عام . وفى شوارع عمان وفى المنازل والمقاهى وفى الصحف دبَّ الأمل من جديد وأصبح الجميع يتحدثون بصوت عال وينادون بانتقام الفلسطينيين .

ومنذ حوالى ستة أشهر والصحافة أصبحت حرة فى الأردن والمنشورات لم تعد توزع فى الخفاء بل بصورة علنية . وفى يونيو ١٩٩٠ قامت « مظاهرة العودة » ووصلت إلى جسر الأردن الذى ظل محظوراً على الفلسطينيين المقيمين فى الأردن .

وقامت مظاهرات ضخمة تؤيد العراق واشتعلت حدتها فى الأردن ، وأخذونى لأرى المظاهرات وأحضر الاجتماعات والمخيمات والمنازل ، واكتسبت درساً فى التاريخ والجغرافيا لم أحصل عليه فى أى مرجع غربى ، بتلك الصورة التى حصلت عليها . والحرب التى قيل عنها حرب الخليج قد قتلت هذا الأمل وبددته .

الفصل الثانى

على الجانب الآخر من الحدود

٢٨ يوليو ١٩٩٨م . الوصول إلى بغداد

شعرت بأن رأسى يكاد ينفجر من الموسيقى الصاخبة التى أصر السائق على تشغيلها طوال الرحلة ليلا ، كما أن المقعد غير مريح والإجراءات الجمركية تستغرق وقتًا طويلاً ، ولكنه قطع المسافة بين الأردن والعراق فى ست ساعات فقط . احتديت عليه وأبديت له تذمرى بل وأهنته بكلام جارح لعله يخفض صوت الموسيقى المزعج ولكن دون جدوى . وفى بغداد ، كانت دعاء تنتظرنى فى محطة العلوى ، لكنى وصلت إلى موقف سيارات الشركة الأردنية ، الجرش ، بعد الموعد بساعتين ، ولم تكن تعلم أن فيصل حجز لى فى عمان على الشركة الأردنية ولم يتصل بها أحد بالتليفون وظلت تنتظر أكثر من ساعتين تحت أشعة الشمس الحارقة حيث ترتفع درجة الحرارة إلى خمسين درجة مئوية ابتداء من التاسعة صباحًا . وصلت يوم الجمعة حيث تتوقف الحياة فى المدينة ، والشوارع خالية هربًا من القيظ وشدة الحرارة . وأخيراً وصلت إلى المنزل وكنت محاطة بأصدقائى وأسرتى بالتبنى ، وقوبلت بالأحضان والحب الغامر وطلبت منهم أن آخذ « دُشا » ليزيل عناء السفر والإنهاك عنى فرد الجميع قائلين لن تستطيعى أخذ دش فالمياه مقطوعة عن الحى .

لم ينقطع التليفون عن الرنين منذ أن وصلت وكلها مكالمات لى ، فقد طلبتنى شقيقتى شانتال من باريس . اتسع نطاق عائلتى فجأة لتضم ضواحى باريس مع ضواحى بغداد . فقد حجزت هذه المرة مجلات عن الأزياء والتفصيل وأخرى فى المجالات الاقتصادية والعلمية والفنية والفلسفية والندوات والمناقشات التى تهم المثقفين

ورجال الفكر لتصل الأعداد بصورة منتظمة إليهم حيث لاحظت أنهم متشبثون بحب الجمال والرقة والحياة بعيداً عن أى مزايا أو تدخل من جانب الدولة .

أصدقائى

وصلت يوم جمعة ومن الصعب جدا مغادرة المنزل لشدة حرارة الجو فى الخارج . شعرت نصرة بالإنهاك والتعب من عملها فى وزارة الثقافة حيث تتولى إدارة مركز أبحاث أم المعارك الذى أنشئ عام ١٩٩٤ للنهوض بالعلاقات الثقافية والعلمية مع بقية دول العالم . وقد تم تكليفها بهذا المنصب وعملت على الاهتمام بالمكتبة الوطنية وإحيائها ، كما أدخلوا تحت إدارتها التقنيات الإعلامية ، وهى قليلة وغير متوفرة حيث إنها مشكلة المشاكل فى العراق . وبمجرد إعلان نبأ انتقالها إلى هذا المنصب طلب أكثر من خمسين من زميلاتها اللحاق بها .. تسلل الشعر الأبيض إلى رأس نصرة وأصبح ظهرها مقوسا قليلا ، وترجع أسباب السمنة والبدانة التى تعانى منها وهى فى سن الخمسين إلى شدة التعب وعامل الزمن وجلوسها فترات طويلة إلى مكتبها وقلة الحركة . تصل إلى الوزارة فى الثامنة والنصف صباحاً ، ولا تغادرها قبل الثانية بعد الظهر فى سيارة غير مكيفة الهواء ، فتصل منزلها فى قمة الإنهاك والضيق من الحر وازدحام الشوارع، حتى أصبحت الرحلة اليومية بمثابة محنة تثير السخط بسبب الظروف الجوية القاسية فى تلك الفترة من السنة . فالإعياء والتعب يشلان الطاقة والحيوية ، كما أن الحصار الذى طال أمده قد بدد كل أمل ، كما أن نقص الخدمات والأفراد الذين يثيرون الغضب أديا بها إلى حالة من التوتر تصل إلى حد الانفجار . ولذا بدأت فى تنظيم حياتها داخل المنزل لتكون أكثر سهولة ويسراً وأعفت نفسها من الأعباء المنزلية التى تمقتها ، فوجبة الطعام تكون جاهزة عند عودتها للمنزل، حيث تقوم بخلع ملابسها وارتداء بلوزة خفيفة مستعملة وبنطلون خفيف وتتوجه للحمام لترطب جسدها ثم تأكل وجبتها الصحية بسرعة وتتمدد على سريرها القيلولة ومعها كتاب إنجليزى أو عربى أو فرنسى ذو طابع سياسى وهو ما سوف تترجمه فى اليوم التالى على الأرجح ، وبعد فترة تستغرق فى نوم مضطرب بسبب الاستمرار فى قطع التيار الكهربائى فيحرمها من تشغيل جهاز التكييف .

وفى الساعة السادسة مساء تجلس إلى جهاز الحاسب الآلى وتغلق الباب على نفسها حتى لا يزعجها أحد إلا فى حالة الضرورة القصوى ، وتبدأ فى ترجمة كتاب أو تصوير مقالة وإعداد مقالات مصطفى أو مراجعة المراسلات الخاصة بالوزارة وتنقيح سيناريو أحد الأفلام أو القيام بترجمة كتابى أو تراجع أعمال ابنها ضرار ، الذى يقضى وقته فى التنقل بين برامج الحاسب الآلى وأنظمته . ويتم استدعاء ضرار لحل أية مشكلة تتعلق بأجهزة التقنيات الإعلامية ، وقد أكمل عامه الثامن عشر ونجح فى الثانوية العامة وحصل على مجموع ٩٧ ٪ وأصبح موضع فخر العائلة ، وهو مرشح للالتحاق بكلية الهندسة قسم الحاسب الآلى بجامعة بغداد . ومن هنا ، فإن البرامج التى أحضرتها لهم كمفاجأة كانت مصدر سعادة وبهجة لهم . لم نعد نرى نصرة إلا عند تناولها وجبة العشاء ثم تخلد للراحة فى الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً ، إلا إذا قلت المكالمات التليفونية وتركت لها فرصة الاستمتاع بوقت الفراغ . وأتساءل أين وكيف تجد الحيوية التى تمكنها من الاستمرار ؟

طوال رحلاتى المتعددة إلى بغداد أصبح أصدقائى بمثابة عائلتى بالتبنى . يتميز أصدقائى بالشرف والاستقامة والرزانة . « وبعد الحرب ، لم نكن ندرى أين نحن ، فقد بدأنا نشك فى كل شىء، وهل كنا على صواب فى غزونا للكويت ؟ إلى أية مغامرة اندفع العراق ؟ أى فخ وقع فيه ؟ انتابنا شعور عميق بأن الكل تخلى عنا وهجرنا كما أصابتنا حالة من الانكسار وشعرنا بأن العالم كله يوجه اللوم والخزى لنا ... وعندما قابلناك فى أغسطس ١٩٩١ فى فندق بغداد مع أصدقائك شعرنا بالأمل مرة أخرى اعتمادا على تاريخنا ، ثم توالت زياراتك وزيارة أصدقائك . . كل هذا قوّى من عزيمتنا وإصرارنا . وشعرنا بأننا لسنا الوحيدين الذين حلت بهم الكارثة وأن العالم يبذل قصارى جهده لتدميرنا . . . » .

وبعد ثمانى سنوات من لقائنا الأول ، زادت الثقة بيننا وتدعمت وتم التعبير عنها بتبادل هدايا أعياد الميلاد ، وزادت المحبة والود فيما بيننا .

« أنت أكثر جمالا وإشراقا فى كل رحلة تأتين إلى هنا . . . ولم تعودى المرأة ذات الشعر القصير الذى عرفناك به والوجه الحزين . . . » .

« أنت التى جعلتنى جميلة . . . فالكتاب أصبح بالنسبة لى بمثابة تحرير وواجب ينبغى تأديته وتعهد وارتباط لا يمكن أن أتخلى عنه . . . وعندما أفكر فى تلك السنوات التى قضيتها فى العمل وأسهر الليالى أمام الحاسب الآلى ، والمنبه الذى يوقظنى قبل الفجر ، والضيق والقلق فى حالة الرفض . . . لقد طال الصمت حول موضوع العراق . . . » .

« البيت بيتك » تلك هى عادة استقبال الضيف بكل تحية وترحاب . كنت أجد فيه دائمًا سريرًا ، والانطباعات الطيبة التى ألمسها فى كل رحلة جعلتنا نتقاسم حياتنا بكل محبة وبدون تكليف . تغيرت حال المنزل واتسعت الفراغات بداخله وأصبحت الغرفة الكبيرة الموجودة فى المدخل مخصصة بالكامل كصالون استقبال . ويشغل الحاسب الآلى جزءًا كبيرًا من الغرفة الداخلية ، كما أعيد تجهيز اللوحات الزيتية وأخذت قيمتها الحقيقية لرسامين مشهورين ، إضافة إلى لوحات مصطفى وصور العائلة وكذلك الصور الخاصة بوالد مصطفى الذى كان حاكما لمنطقة الحدود مع إيران ، ويظهر معه فى إحدى الصور الملك فيصل ، وصور دعاء فى مختلف الأعمار ، ونياشين وأوسمة وسيوف ومسدسات أثرية للوالد وصور للأم . تتسع الولائم لتشمل العديد من الأصدقاء والزوار الذين يترددون على المنزل وأطفال العائلة والأخوات وأبناء العم والجيران والزيارات التشريفية . يحلو لى أن أعيش هذا الجو عندما أقوم بتأليف الكتاب .

وضع مصطفى المختار مكتبه فى الطابق الأرضى ولا يدخله أى شخص حيث ينام فيه ويضع مسدسا تحت الوسادة . وبدأ جسمه هو الآخر يميل إلى الامتلاء والبدانة ويرتدى ثوبه الأبيض . ساعد تعيينه فى أكاديمية العلوم منذ ثلاث سنوات وشعره الأبيض الذى غطى رأسه قبل الأوان على تغيير طباعه المنطلقة والمرحة وصار أكثر رزانة ، حتى إن قبلاته التى كان يطلقها بدون حساب عند استقبال أو وداع أحد الأشخاص صارت سريعة وخفيفة وعزيزة ، لكنه مع ذلك يمتلئ أحاسيس ومشاعر فهو يتمتع بروح الدعابة والمرح ، إلا أن طبيعة العمل المرهق الذى يؤديه وهو منبطح على الفراش ، حيث يقوم بإعداد مقالاته الأكثر عمقًا وتأثيرًا وكذلك تحليلاته القاطعة والحازمة ويحيط نفسه بالعديد من الصحف والكتب والمسودات . وتتميز كتابته بالدقة والقوة والتحليل العميق والعقل المرتب ، ويتطرق فى كتاباته إلى مواضيع شتى : منها قرار

الهند بالتفاوض من أجل الدخول فى الأمم المتحدة بوصفها دولة نووية – وهى سابقة قد تستغلها إسرائيل فى رأيه وتسير فى المسعى نفسه – وكيفية سير النظم الاقتصادية كما يتصورها صدام حسين، والآثار الناجمة عن القرار ٩٨٦ ، وتدهور الاقتصاد العالمى نتيجة الديون الأمريكية ، والدمار الكامل للمنشآت والمؤسسات وأمراض السرطان واللوكيميا المتعاقبة نتيجة للصواريخ التى استخدمها الأمريكيون المشبعة باليورانيوم غير المخصب، والفساد والانحلال الاجتماعى الذى حل بالأغنياء الجدد ، وأعباء مرتبات موظفى الأمم المتحدة الموجودين بالعراق . . فهو يتطرق إلى مواضيع مختلفة دون خوف حتى تلك الأكثر عرضة للخطر . ولم تثنه التهديدات العديدة بالقتل عن عزمه ؛ لأن كتاباته تنم عن روح التذمر والذكاء الحاد والعقل المرتب ، ويرتبط بنصرة بعلاقات عمل وزمالة وبعقد زواج وحياة تجعله يثبت من أجل الدفاع عن مستقبل أولادها . وبعد الحرب ، تكدس الأولاد وأمهم فى غرفة النوم العلوية ، أما مصطفى ، فكان يقضى الليل فى غرفته بالطابق الأرضى لرصد الأخبار والأنباء والشائعات التى تتردد فى الخارج . لقد أدت الحرب إلى تقوية الأواصر الأسرية ، كما أدت إلى فصل مضجع الوالدين ، وأصبحت النفوس تسمو وتضحى من أجل المحافظة على السرية . ومثل تلك الرابطة ترسخ علاقاتهم كما تضعهم جميعًا فى فوهة المدفع .

وقد باحت لى نصرة بسر عندما كانت فى باريس حيث قالت : « أحيانا تكون الحياة مع رجل مستحيلة » . ولكن عائق اللغة منعنى من الدخول والانخراط فى حياتهم الخاصة التى أحرص على كتمانها . ولا يتعدى الحديث بيننا مجرد الكلمات .

أما ابنتهما دعاء ، فقد أحرزت تقدما رائعًا فى اللغة الفرنسية من خلال دروس اللغة التى تتابعها فى الجامعة بعد تفوقها وإتقانها اللغة الإنجليزية ، إضافة إلى دراستها المنتظمة فى المركز الثقافى الفرنسى . يتميز جيرار مارتينيز بأنه صريح وواضح ، فقد ذكر أنها أحسن تلميذة فى المركز ، ومجدة فى عملها ، وتشبثها وإصرارها على التفوق لا مثيل له إلا فى أمها . وإذا كان أخوها ضرار قد حصل على الثانوية العامة بمجموع ٩٧ ٪ فإن كلا منهما يتفق على الهدف الذى يجب أن يؤديه قبل أى شىء ، وقد رأيتهما فى شهر أبريل وهما يكدان فى تحصيل دروسهما من الصباح إلى المساء وكل منهما يعيد تكرار كل درس كما يعيدان حل كل تمرين ، وبمساعدة الكتاب يأخذان الأمر بكل جدية وتحدٍ .

وعندما أريد أنْ أستفسر عن برنامج السهرة ترسلنى نصرة إلى دعاء ، فالأطفال يحبون دائما التعلق بين ذراعى الأم الحنون لأنها تعرف كيف تخفف عنهم وتنصحهم وتكون سكنا لهم وتهدئ من روعهم وترفع من معنوياتهم ، والمطبخ هو مملكة الأم ، فمنذ الصباح تقوم بطهو الطعام وتعد الكبة للمدعوين وكذلك القهوة والشاى وتجهز الفطائر ، وينهكها الدخان المتصاعد من القلى لأن المطبخ ردىء التهوية حيث إن حرارة الجو بالخارج والحرارة المتصاعدة من الطهو يزيدان من إنهاكها . دعاء هى روح المنزل ، فهى تفكر فى كل شىء وفى كل شخص ولا تهمل أى شىء يجلب البهجة والسرور ، وتسهر على راحة الجميع .

وأصبحتُ أشكل جزءًا يسيرًا من العائلة وأتمتع بنفس الاعتبار والمراعاة والمواقف المتصلبة . ومن المستحيل أن تلك الأعمال التى تقوم بها دعاء تلهيها عن دروسها بل ولا عن مراجعة دروس اللغة الفرنسية وأطلق عليها اسم « جدتى » ، فجدتى تتمتع بقدر من القوة تجعلها تصرِّف أمورها بجدارة بمفردها . وفى يوم من الأيام سأكتب قصة تلك المرأة . ولا تكف دعاء عن تأنيب أخيها رغم أنه كبر وتجاوزها ويهرب منها باللجوء إلى أصدقائه أو بالجلوس أمام الحاسب الآلى حيث يلعب عليه إلى أن يصيبه العطل ، وضحكاته عالية وتحمل نبرة التمرد كما يلعب بدمية مثل الأطفال ، وعدم المبالاة التى تسيطر عليه تجعله لا يحسن التصرف فى أى موقف . ومع ذلك ، فهو الذى ساعد على إنقاذ عائلته أثناء الحرب من الموت جوعًا فهو الذى اقترح عليهم عمل « الفشار » وبيعه فى الشوارع ، وكان عمره فى ذلك الوقت لا يتجاوز الحادية عشرة . وقبلت دعاء الالتحاق بعمل بالرقابة على الأنباء لتتمكن من تغطية مصروفات أخيها الجامعية .

الفصل الثالث

الصيف هو الجحيم

هناك مثل عراقى يؤكد أن الله فى البداية خلق العالم ثم الجنة وجهنم ، وبعد ذلك خلق العراق .

الحياة اليومية

يذكر العراقيون أن ما حدث فى شهر أغسطس ١٩٩٨ لم يحدث مثله قط قبل ذلك ، فقد نزل المطر على بغداد فى هذا الشهر على شكل قطرات عنيفة وثقيلة ومحملة بالغبار كأنها قطع رصاص تنزل من السماء ، فقد حدثت عاصفة رهيبة وبرق يشق السماء بخطوط محملة بالكهرباء فتحدث رعداً يصم الآذان وانهمر المطر مدرارا ، ونتج عن ذلك تخريب المنطقة بين الموصل وتكريت مما سبب خسائر فادحة وضحايا فأضيفت محنة المناخ الجنونى إلى المعاناة اليومية . ولا يلمس المرء إلا النحس وسوء الحظ فى كل مكان .

تضع الأسرة ميزانية لنفقاتها ، لكنها سرعان ما تتبخر بسرعة فى الأولويات وفى أجهزة المعلومات وصيانة السيارة واستقبال المدعوين فى المنزل الذى لا يفرغ منهم أبدا . تشققت أقدامى من عند الكعبين نتيجة الغبار والحرارة الشديدة ، فأجد نفسى فى حاجة إلى كميات هائلة من الكريم المرطب لمعالجة ما ألمَّ بى .

لابد من غسل الملابس يوميا لأنه من المستحيل ارتداء نفس القميص تى شيرت والبنطلون أكثر من مرة . وساءت حالة الملابس الداخلية بسبب عسر الماء ورداءة المنظفات .

بمجرد وضع الغسيل على المنشر فى الحديقة يجف فى لمح البصر مع مراعاة النشر على الظهر لحماية الألوان من شدة حرارة الشمس . أما القطة الصغيرة المتوحشة ، فقد خارت قواها ولم تعد قادرة على الحركة عندما أقترب منها والصحن الصغير فى يدى وبه قليل من الأرز ، ولم تعد تهاجم العصافير التى تخفق بأجنحتها على الخضرة حول الحبوب والخبز المفتت لهم من ظل النخيل الذى نضجت ثماره من شدة القيظ ، مما جعلنا نقطف التمر ونتذوقه قبل شهر من موعد نضجه ، أقوم أحيانا بنزع الحشائش الضارة التى تتكاثر فى الخضرة الجميلة فتفسدها حتى إنهم يطلقون عليها (سرطان الأرض الخضراء) ومن ناحيتى أسميها (العشب الأمريكى) . فقدت الحديقة شجيرات الريحان وبعض أشجار أخرى هاجمتها دودة الخشب . نترقب غزو الطفيليات التى زادت بسبب انعدام المبيدات الحشرية ، وفى الصالون الصغير أخذ جهاز التكييف ينفث هواء مع حدوث صوت مزعج ، وتعودت على تلك الضوضاء فليس أمامى مجال للاختيار ، رغم أنى أعشق الهدوء والسكون . وحتى القيلولة فى جو ساخن وحار . هبط ضغط المياه فجأة ويحدث أن نحرم من الماء والكهرباء فى الوقت نفسه . أما فى جنوب العراق فلا يعمل التيار الكهربائى فى البصرة إلا ساعات قليلة فى اليوم ، ومن المستحيل حفظ الأطعمة فى الثلاجات ، ويصل ثمن الثلاجة الواحدة إلى ٢٥٠ ألف دينار وهو ما يعادل راتب أحد كبار الموظفين لمدة عشرة أشهر . أما فى الموصل ، فقد مات عدد من المسنين بسبب الحر الشديد . وأشعر أن الساقين أصبحتا ثقيلتين لا تقويان على حملى ، ويغالبنى النعاس وعدم اليقظة ، وفمى صار جافا كالخشب لا يقدر على بلع أى شىء ساخن أو بارد ، وانتفخ جسدى وتورم حتى أصبحت الخواتم محشورة فى أصابعى لا تتحرك . وتعطل ذهنى عن العمل تماما مثل محطات الكهرباء التى لا تعمل ، وخمدت محولات الكهرباء فى المدينة بفعل الحرارة الشديدة وانتشرت الحرائق ولم يستطع رجال الإطفاء إيقافها لأن صهاريج المياه التى معهم فارغة من المياه نتيجة انقطاع المياه حيث عجز المهندسون الأكفاء عن إصلاحها . وفى كثير من الأحيان تظل مصابيح الشوارع مضاءة فى وضح النهار دون التمكن من إطفائها وبذلك يحترق أغلبها . وعندما يأتى الليل ، يسود الظلام لعدم توفر الإضاءة ، ولوحظ أن قطع التيار صار مبرمجا بالتناوب فيما بين أحياء المدينة ، وينشر المخطط

الخاص بعملية القطع تلك فى الصحف حتى يتم الترتيب لإطفاء الحواسب الآلية التى تحرم فترة طويلة من العمل ، ويترتب على ذلك أيضا عدم متابعة نشرات الأخبار فى التليفزيون وعدم تشغيل الغسالات أو الاستماع للموسيقى . وقت ضائع وحرارة شديدة دون تشغيل أجهزة تكييف داخلية مع عدم الراحة فيضفى مزيداً من التعب والإجهاد . تختنق البلاد تحت وطأة هذا القيظ إضافة إلى العقوبات المفروضة من الأمم المتحدة ، إذ ترفض لجنة فرض العقوبات المعروفة باسم الأونيسكوم تسليم أى مواد أو قطع غيار لازمة لإعادة تشغيل محطات توليد الكهرباء أو إصلاح السدود والمنشآت أو أية مواد يمكن أن « تحوَّل لأغراض عسكرية » . ولجأ سكان الأحياء إلى تزويد أحيائهم بمولدات كهربائية خاصة على نفقتهم على هيئة مساهمات . وبدأ التصنيع منذ ستة أشهر لكنها لم تعمل حتى الآن بسبب عدم توفر قطع الغيار اللازمة لتشغيلها . وفى الموصل ، قامت لجنة فرض العقوبات التابعة للأمم المتحدة « الأونيسكوم » فى مارس الماضى بتفجير خزانات المياه ومولدات الكهرباء الخاصة بجامعة العلوم بعد أن نهبوا المكتبة الخاصة بقسم أجهزة المعلومات والحاسب الآلى وأتلفوا قاعة الحواسب الآلية ، بحجة أنها منشآت عسكرية دون شك ! واقتحموا الكنائس والأديرة . فهل هى أماكن عسكرية على أعلى مستوى؟! وظهرت حشرات سوداء وهوام من نوع جديد هذه السنة ، وأيضاً ذباب لدغته تسبب الموت حيث انتشر فى المنازل بسبب القنوات والبالوعات والمزاريب . أما المبيدات الحشرية والمطهرات فقد منع استيرادها . وتمت محاولات وقف زحف هذه الحشرات بعمل عجينة من البترول وأصبحت المطابخ والحمامات تمتلئ برائحة البترول . وقد تسبب الذباب فى قتل حوالى خمسين من الدواب وأكثر من عشرين شخصاً .

وفى يوم الجمعة القادم ، لن نلبى دعوة صديقاتنا فى المنزل الواقع على شاطئ نهر دجلة إلا فى المساء لتناول طعام العشاء على حافة حمام السباحة ؛ لأننا لا نستطيع الخروج من المنزل أثناء النهار نظراً لشدة الحرارة القاتلة ، كما أن مياه حمام السباحة لا تصلح للاستحمام لأنها معرضة للشمس الحارقة . صار هواء المدينة أكثر تلوثاً نتيجة رائحة البنزين الخانقة والغبار والسولار حيث تنفث السيارات المتهالكة عوادمها مع وطأة الحر ، ولم يعد جهاز مزج الهواء بالبنزين (الكاربيراتير) ينقى الخليط من الشوائب لأن البنزين ردئ التكرير . وتجاوزت أجهزة الثلاجات فترة الصلاحية

للتشغيل فأصبحت تزمجر وتطلق هواء ساخنًا مما يؤثر فى الجو المحيط وفى الرئتين . وتنفث مصفاة بترول الدرة دخانًا أسود فيتأثر الحى بغبار كثيف ؛ فكان لابد من إحكام إغلاق المنازل والحدائق جيداً ، وأصبح الهواء خانقًا وغير صالح للاستنشاق وخاصة أثناء الليل عندما يهدأ كل شىء حتى فى الأحياء الرئاسية تمتد الضوضاء الناجمة عن حركة السير والمواصلات حتى ساعة متأخرة من الليل . كما أن حى المنصور الذى كان فيما مضى يتميز بالهدوء ، أصبح الآن الشريان الرئيسى للمرور . يوجد حارس مسلح يطلق صفارته طوال الليل فى الحى وذلك خوفا من حدوث أى اعتداءات . يقوم الناس بإطعامه وتقديم الماء له فهو يسهر لحراسة المنازل ولو فرض وترك باب الحديقة مفتوحًا سهوا فإنه يظل واقفًا على عتبة الباب . وتعودت أن أنام على سطح المنزل ؛ لأنى لا أستطيع ولا أريد أن أتعود على جهاز التكييف البارد . ويكفينى مرتبة صغيرة وملاءة خفيفة أحمى بها نفسى من لدغات الناموس التى أشعر بها عند استيقاظى ؛ ألتحف السماء على ضوء القمر وكان بدراً عندما وصلت . وعندما أكون عند ثريا ، أنام فى الحديقة المطلة على شاطئ دجلة على الخضرة حيث أجدد نشاطى بهواء الليل المنعش إلى أن تشرق الشمس وتداعب أشعتها جفونى . لم تعد صديقتى المقيمة على شاطئ دجلة تغادر المنزل ، فهى دائمًا مشغولة فى المطبخ أو غرفة الغسيل أو تنظيف السجاجيد والستائر والكتب والمكتبة والتحف الموجودة بالمنزل ، وتعتبر الكتب ملاذها الوحيد ، فهى تلتهم قصص أمين معلوف التى أحضرتها لها . يحرمنا المساء من التيار الكهربائى ومن سماع الموسيقى ونعيش على ضوء الشموع ، أما الوالد فهو شبه كسيح ويخصص بقية حياته فى مراجعة وتصحيح كتاب عن ذكرياته . . حياة ملؤها الإنسانية والديمقراطية كشاهد على عصره وقرن كامل من تاريخ بلده . ويتيح الضوء الخافت الذى يصل من شعلة مصفاة البترول أن نوفر لمبات الجاز ونظل جالسين فى الشرفة المطلة على النهر . « ورغم الظلام الذى يسود فلدينا الضوء » عبرت صديقتى بتلك الجملة عن مشاعرها الجريحة وعن الإحساس بالمرارة والحزن على واقع مرفوض .

• البيئة

أصبح تدهور البيئة من المشاكل الكبرى فى العراق . وقد سألت ثريا الأخت الصغرى لنصرة عن هذا الموضوع حيث تعمل مهندسة فى الطاقة الشمسية . وجميع مشروعات الوزارة مزودة بأماكن لحضانة الأطفال ومنها مشروع الطاقة الشمسية وبرنامج تحلية المياه ، ويتوفر بهذا المشروع مركز لاستقبال الضيوف وعقود متوقفة لم تنفذ مع الشركات الأجنبية منذ أكثر من عشر سنوات ؛ بسبب الحصار وعدم توفر الأموال اللازمة . ومع ذلك ، فقد بدأت الأبحاث الخاصة بحماية البيئة وإجراء فحوصات للمياه والكشف عن التلوث والتلفيات فى المصانع المتوقفة عدة سنوات وإعادة إحياء المصانع والصناعات باستخدام الطاقة الشمسية . « تقوم إدارتنا بالإشراف على مصانع إعادة معالجة المياه وكذلك الأعمال الخاصة بإزالة ملوحة التربة الموجودة فى منطقة المستنقعات والملاحات ، فلابد من غسل التربة قبل تسليمها لتكون جاهزة للزراعة ، فالتلوث مشكلة كبرى تحتل الأولوية فى مراكز الأبحاث الجامعية وهى مشكلة جاثمة فى قلب بغداد ووسطها ، ولكن ماذا نفعل والسيارات المتهالكة تملأ الشوارع وتستخدم البنزين العادى الأرخص سعرا وصار جو العاصمة مليئًا بالأدخنة والعوادم ؟ وهناك مشروع يتمثل فى إعادة دوران النفايات الحيوانية لتوليد طاقة نظيفة على غرار ما يحدث فى الهند . ولكن هذا المشروع لايزال قيد الدراسة . ويوجد فى وزارة الصناعة قطاع لحماية البيئة . كما أن اقتصاديات توفير الطاقة من التدفئة لازالت قيد البحث . وتواجهنا المشكلة نفسها فى أشكال مختلفة عند استخدام الدفايات ، لتدفئة المنازل القديمة بالكيروسين والسولار وتصاعد الأدخنة من خلال مداخن فتساعد على زيادة تلوث الجو فى الشتاء إضافة إلى أجهزة التكييف فى الصيف . والغريب أن الوزارة وهذه الإدارة بالذات تخضع لزيارات متكررة من جانب موظفى الأمم المتحدة وبصفة خاصة خبراء الزراعة !.. ما الشىء الذى يبحثون عنه ؟ وماذا يريدون إثباته ؟ ما الذى يبحثون عنه فى طعامنا ؟ سر غامض . . كذلك مصنع التبغ الذى ترك المنطقة الشمالية واتجه إلى وسط البلاد حيث يزرع التبغ بنجاح . الحال نفسها بالنسبة للأرز ، ففى الماضى كنا نستورد الأرز من الولايات المتحدة ، ومنذ عام ١٩٧٥ ونحن ننتجه فى العراق » .

واتخذت الأمم المتحدة هذا المركز مقرا حقيقيا لها ... لماذا ؟

– بصفتك مهندساً فى التكنولوجيا الميكانيكية ، ما الراتب الذى تتقاضاه؟

– إنها نكتة ! ومزاح ! فلا أحد يعيش براتبه فقط . لا أعرف كيف نصل إلى هنا . فنحن ندفع للحكومة وليس العكس .

سيارات بغداد

يكفى أن تقطع مسافة معينة بالسيارة لتتحقق بنفسك من مدى التدهور الذى لحق بهذه السيارات . فأنا أستخدم التاكسيات فى بغداد بصورة مكثفة لأشعر بحرية التنقل والحركة ولا أكون عبئًا على أصدقائى خاصة وأنى أعرف المسافات وخطوط السير ومنعطفات الطرق . تتراوح التوصيلة بالتاكسى من ٥٠٠ إلى ٧٥٠ ديناراً وهو ما يوازى ثلاثة فرنكات فرنسية . يشعر الرجل الغربى فى دول العالم الثالث بأنه « غنى » . ومع ذلك ، فلا يقارن بميزانية موظفى الأمم المتحدة ورجال السلك الدبلوماسى المقيمين ببغداد والصحفيين ورجال الأعمال الذين يمتلكون سياراتهم الخاصة . والتنقل بتاكسى عبر بغداد ، يجعل المرء قريباً من الحياة اليومية وهموم الناس والمشاكل المستعصية ، وعلى الرغم من التقاليد التى يجب مراعاتها ، فإنى أفضل الجلوس فى المقعد الأمامى بجانب السائق وهذا المقعد يكون عادة للرجال لكنى أفضله حتى يمكننى التحدث مع السائق بلغة الإشارة ، ولأتمكن من التفاهم بلغتى العربية الركيكة أو الإنجليزية المختصرة للسائق .

وأغلب السيارات فى حالة سيئة للغاية مثل استحالة فتح زجاج الأبواب الخلفية ومع الحرارة الشديدة للجو المحيط تكون التوصيلة قطعة من الجحيم ، وهذا الهواء الساخن الذى أشعر به يلفح وجهى وهو ملىء أيضا بالعوادم والأدخنة والغبار فيصبح غير قابل للاستنشاق . فى شهر أغسطس تصل درجة الحرارة إلى أقصاها والتلوث إلى أعلى درجاته ، وتمتلئ الطرقات بالحوادث والتلفيات . وتلك هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالخوف وأنا فى سيارة ببغداد . وعدم وجود إشارات مرور لكثرة انقطاع

التيار الكهربائى يجعل قيادة السيارات تتسم بالجنون والغضب والعدوانية واللامبالاة . كما أن عوادم السيارات تطلق دخانا أسود كثيفًا يزكم الأنوف لأن زجاج السيارات مفتوح لعدم وجود أجهزة تكييف فى السيارات ، وتستخدم الميكروباصات البنزين العادى ذا النوعية الرديئة مما يجعلها تختنق . مررنا بمحاذاة نهر دجلة فشعرنا بنسمة هواء ووجدنا الأطفال يستحمون على الشواطئ المهجورة التى يغطيها البوص فى مياه ضحلة وموحلة ، كما يوجد خيول مع أصحابها للاستحمام ، تنفض الخيول الماء من على أجسادها وسط الأطفال الذين يلعبون ويغطسون ويظهرون فوق الماء . وهناك جدول ماء يخرج من النهر ويستحم فيه الرجال ويغطسون وهذا الفرع الصغير من النهر ملوث تمامًا حيث يوجد مصنع فى نهاية الفرع ورغم ذلك يستحم فيه الناس نظرًا لشدة حرارة الجو . تمتلئ الطرقات والكبارى بأعداد ضخمة من السيارات التى لا تتحرك ، نتيجة أعطال أو لانفجار إحدى العجلات أو لنقص زيت المحرك أو لنفاد البنزين ، مما يضطرهم لأخذ كميات من سيارة أخرى أو الحاجة إلى الماء لتبريد المحرك ، أو عدم وجود عدة كافية للإصلاح . وهكذا تجد الشوارع ملطخة بالشحم الأسود والزيت ، كذلك تلمح سيارات بدون أبواب أو إشارات ضوئية أو رفارف أو غطاء محرك ، أو بعجلات ملتوية أو ممتص الصدمات معدوم ، أو الزجاج الأمامى الواقى من الريح غير سليم . الشوارع خانقة وأدخنة المدينة ترتفع إلى عنان السماء والجو رمادى محمل بعوادم وأتربة ورائحة البنزين والمجارى التى تزكم الأنوف ، كل هذا جعل بغداد بعيدة تمامًا عن الرخاء الذى عاشته طويلا .

سيارات الأجرة فى بغداد

تعطل سيارة يمثل كارثة قد تهدد حياة أسرة . وفى بداية إقامتى أخذت تاكسيات ثلاث مرات متتالية وكنت أسأل السائق عن نشاطه الذى يمارسه ونمط حياته ؛ ذكر الأول أنه مدرس رياضيات فى الصباح فى إحدى المدارس ، والثانى مدرس تربية رياضية ، أما الثالث فقال إنه مهندس مدنى ، وأجمع الثلاثة على أن المرتبات لا تمكنهم من العيش . فى الثامنة صباحًا ، يبدأ كل منهم عمله فى المكتب أو المدرسة أو المصنع .

لا وقت للراحة بعد الظهر وإنما يكد الجميع حتى ساعة متأخرة من الليل ؛ ليتمكنوا من تلبية احتياجات الأطفال من المأكل وصيانة السيارة وإصلاحها ، وكذلك المطالب اليومية الملحة والعلاج والاحتياجات المنزلية لأنه من المستحيل العيش بمرتب ثلاثة آلاف دينار . ومن المعروف أن إطار عجلة السيارة ثمنه ثلاثون ألف دينار وأى قطعة مستوردة من تايوان مختلفة تمامًا عن القطعة الأصلية ولذلك يتم الإصلاح بأى شكل من الأشكال . سائق التاكسى الذى أوصلنى إلى شارع منصور، كردىٌ من السلمانية شمال الموصل، وقد ترك عمله كمدرس فيزياء فى إحدى المدارس الثانوية ليتحول إلى سائق تاكسى ، وفى عام ١٩٩٤ قام بالمحاولة فى مكان آخر : فى تركيا وليبيا والسويد مرورًا بتونس ثم عاد مرة أخرى إلى تركيا وبعدها هرب إلى الجبال الكردية لعدم وجود أوراق لإقامته هناك . وفى العراق ، يشعر أنه سجين ويتحدث عن صديقته التى لا يتمكن من الزواج بها لعدم توفر المال اللازم . مهندس بالمعاش يعمل سائق تاكسى ليتمكن من العيش والعناية بنفسه ، سائق تاكسى آخر أب لستة أطفال ، أرمل يشكو من ألم فى البطن وشحوب فى الوجه طلب زيادة عما دفعته . سائق تاكسى يبحلق فىَّ ويلتهمنى بنظراته بدلا من الالتفات للطريق ولا يتحدث سوى اللغة العربية . . سائق تاكسى يدَّعى معرفته بالجهة التى أريد الوصول إليها ثم يتوه فى الضواحى والحى الصناعى ومصانع الأسمنت والمداخن قبل أن نعود مرتين إلى نقطة الانطلاق نفسها ، وعند تقاطع أحد الطرق ، تركته معلقًا ونزلت لآخذ سيارة أخرى . وبطبيعة الحال فقد تأخرت عن موعد المحاضرة الأولى الخاصة بعلم الآثار فى المركز الثقافى الفرنسى . سائق تاكسى مولع بالموسيقى ولديه أحدث الأغانى الأمريكية ، سائق آخر شديد الصمم علىَّ أن أكرر خمس مرات حتى يفهم المشوار الذى أريده ، وأفضل شىء فعلته هو هروبى منه عند أول تقاطع طريق . سائق تاكسى ضابط بالقوات الجوية العراقية يتميز بالقوة والعنف وصل إلى أعلى رتبة وهو فخور بوظيفته لكنه يمارس هذا النشاط بتصريح خاص لأن الطائرات ظلت جاثمة على الأرض والراتب الذى يتقاضاه ثابت أيضًا لا يتغير . لاحظت أن أغلب سائقى التاكسيات يحملون منشفة لتجفيف عرقهم ويرتدون الجلباب الأبيض ويعلقون تمائم على المرآة التى داخل السيارة لجلب الحظ لهم وأحيانا يعلقون صليبًا ، «أنا مسيحى وأنت ؟» تحدث معى عن الحالة فى العراق وعن رغبته فى ترك البلاد والعيش فى أوروبا ، فى تشيكوسلوفاكيا . سائق آخر أوصلنى حتى باب المنزل

ويتحدث الإنجليزية بطلاقة فقد كان سائقًا بإحدى السفارات وتحول إلى سائق تاكسى تحت ضغط الحاجة لأن أغلب السفارات مغلقة ، ويعمل فى الصباح كعامل صيانة فى أحد الفنادق بضواحى العاصمة بمرتب ٣٥٠٠ دينار بالشهر ولا يكفيه أكثر من يومين فاضطر للعمل على تاكسى حيث يجمع أكثر من ثلاثين ألف دينار فى اليوم . نحن اليوم ٨ أغسطس وهو ذكرى نهاية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٨ قبل عشر سنوات أى ٨ / ٨ / ١٩٨٨ ، لأن نهاية الحرب العراقية الإيرانية تعنى كابوسًا ظل جاثمًا على البلاد .

مدينة صدام

من المستحيل أن يقوم المرء بمغامرة بمفرده ، فقد استقلينا تاكسيًا للتوجه إلى مدينة صدام فى الضاحية الجنوبية لبغداد : أنا وعبدالظاهر زكى وهو صحفى وشاعر . وطوال الطريق شرح لى المدينة وقد أخذت المدينة اسمها الأول فى السبعينيات وكان يطلق عليها مدينة الثورة فى أيام حكم عبدالكريم قاسم ، وأحدث تغيير الاسم آمالا كبارًا فى أن المدينة ستكون محط أنظار واهتمام الحكومة البعثية . ومات من سكانها عدد كبير فى الحروب والثورات وأقامت بها قبيلة شيعية، وكانت المدينة موضع الاهتمام وتحسنت وسائل المواصلات وتم تمديد قنوات للمياه وتمت عملية كسح المجارى وأدخل التيار الكهربائى ونُظمت عمليات النظافة . وظلت المدينة محرومة من المياه والكهرباء عدة ساعات فى اليوم ، وتبدو المدينة كأنها مهجورة ومنغلقة على نفسها ويجوبها قطعان من الماعز يدفعها أطفال شبه عراة يغمرهم الغبار . لقد لمسنا هنا معانى البؤس ؛ تسيطر النساء على الأسواق وقد أوضحوا لى خلسة أن هذه الأسواق يتم فيها شراء كل شىء ولكن فى السوق السوداء ، جوازات سفر ، تأشيرات ، وأيضا شهادات جامعية أو ثانوية ، ومستندات ووثائق مهنية وتوصيات .

تردد عبدالظاهر طويلا قبل أن يوافق على استقبالى فى منزله خشية أن الضيف الغربى لا يشعر بالراحة نتيجة البؤس والفقر والمسكن الحقير فى هذه البيئة . لكنى أصررت وألححت أيضا فى أن أدفع أجرة التاكسى ، فالفقر يخفف من حدة الحياة . فكثير من فقراء حى الكرّادة تم طردهم ليعيشوا فى أطراف المدينة ، وتنتشر ظاهرة

الانتحار فى هذه المدينة بين الرجال والنساء ، فالنساء ينتحرن بسكب البترول على أجسادهن فيمتن حرقا ، أما الرجال فبالغرق أو بإطلاق النار على أنفسهم . ينقضى النهار بأكمله والمياه مقطوعة ؛ لذا فإنهم يقومون بالخدمات والأعمال ليلاً . خمس ساعات كاملة والتيار الكهربائى مقطوع ، فكيف يمكن حفظ الأطعمة أو الحصول على ماء بارد . وأى ثلاجة فى المنزل تستخدم بصورة جماعية لأهل المنزل والجيران حيث يتبادلون الخدمات فيما بينهم .

يتميز صوت الشاعر بالوداعة والرزانة والحياء ، ولم يحدث أن قامت أجنبية من الدول الغربية بزيارة المنزل الفقير الذى يتميز بالنظافة رغم عدم وجود مياه بالمدينة . وعلى الجدران البيضاء المطلية بالجير ، توجد أرفف مرصوص عليها كتب شعر وأدب وبعض الصحف . لديه خمسة أطفال : أربع بنات وولد ، ونادراً ما نراهم لكنهم يقومون بتنظيف المنزل حتى بدون ماء . قُدمت وجبة طعام بسيطة بعد تقديم التحية بالتمر واللبن لإطفاء الظمأ . تتكون الوجبة من الكبة والضلمة (المحاشى) والسلاطة والشاى . يا له من تهور لاستنزاف ميزانيتهم بهذا الشكل ! وشعرت بالألم عندما رفضت قبول هدية عبارة عن سجادة ورثها الشاعر عن أجداده ومصنعة فى البصرة بمنطقة المستنقعات ، وبدلاً من ذلك ، قبلت ديوانا صغيراً للشعر يضم بعض القصائد اقترحت طباعته فى فرنسا .

ساعدتنى العودة على اكتشاف صالة عرض للفن الحديث ، افتتحها الرسام النقاش فى حى الوزيرية . منذ ثلاث سنوات ، كان عدد صالات عرض الأعمال الفنية حوالى ١٥ ، أما الآن فقد تضاعف عددها وصارت ثلاثين . والسؤال الآن . . من أين توجد الأموال ومن هم المشترون ؟ موظفو الأمم المتحدة هم المشترون الذين يقبلون على شراء المنتجات الفنية بسخاء وكذلك أعضاء السلك الدبلوماسى والأغنياء الجدد ورجال الأعمال الذين يحضرون لبغداد لفترات قصيرة . ولذلك ، لا يندهش المرء إذا وجد أن الأسعار قد تضاعفت بشكل كبير ، وأن حى الكرَّادة تحول إلى سوق ضخم لأعمال الأرابيسك والتحف الشرقية .

عودة إلى المنصور . لاحظت تناقضًا كبيراً ، فأنا الآن فى كوكب آخر بعيداً عن الفقر والبؤس .

الفصل الرابع

فى صحبة النساء

كثير من النساء فى العراق أصبحن ضحايا الحروب : الحرب الإيرانية العراقية ، حرب الخليج ، آلاف النساء صرن أرامل . آلاف من النساء . . .

نرمين المفتى ، صحفية

سوسو :

تتكون أسرة السعدون من أربع فتيات ، اثنتان منهما مطلقتان . اختارت الابنة الكبرى الإقامة فى عمّان من أجل متابعة الدراسة لأبنائها، وارتداء الحجاب، وهو استثناء يلقى احترامًا فى مجتمع تسيطر عليه العلمانية بشراسة . أما سوسو الابنة الصغرى للسعدون فلها نفس طباع وسمات أخواتها : تتميز بقوة الإرادة ، عنيدة ، مثقفة ، حاصلة على دبلوم عال ، تتمتع بقوة طبيعية تمكنها من قيادة سفينة الحياة بمفردها . تقيم فى العامرية، وهو حى مجاور ، وتمر تقريبًا كل يوم على المنزل حيث تترك فيه طفلاً أو أكثر . فالولد الأكبر عمره ١١ سنة ويتعلم الفرنسية وكثيرًا ما يحيينى بهذه اللغة، ويشعر بمتعة كبيرة فى قضاء الوقت فى عمل إسكتشات ورسومات بالألوان ، يبذل علىَّ قصارى جهده ليحل مكان أبيه . أما عمر ، الولد الثانى فلديه رغبة كبيرة فى جمع الأموال ، كما يستحوذ عليه شعور مزمن بالضيق لأن المأساة التى تعيشها العراق تسكن داخل نفسه، فهو بحاجة إلى مساعدة نفسية مثل آخرين مثله . والغريب أنهم فى العراق يجهلون مدارس التحليل النفسى التى نادى بها فرويد وغيره، حيث إنهم لا يعالجون أية أعراض مرضية إلا بالعلاج الكيميائى والأدوية ، وتلك مشكلة كبرى .

كما أن العراق بأكمله - مَن فرط ما ألم به - فى حاجة إلى علاج سيكولوچى جماعى وتحليل نفسى على المدى الطويل . فكم من معاناة متراكمة وصدمات متلاحقة ومتلازمة، ومخربين عاثوا فى أرضها فساداً وتدميراً وعنفاً لم يتوقف وحسابات لم يتم تسويتها أو سويت بصورة سيئة ، والحصار الجاثم على أنفاس الجميع، ومآسى الحياة والمآتم التى يمنع إقامتها، وانعزال البلاد وحرمانها من الأفكار والتقنيات وأدوات الفكر التى لم تتوفر من أجل امتصاص أعراض انفصام الشخصية والهواجس غير السوية والهيستريا، المرتبطة كلها بممارسات الحياة والتفكير العقلى . تقع المسئولية الكبرى عن هذه الأعراض والأمراض على الغرب .

تتصرف سوسو بقدر ما تستطيع داخل عملها فى وزارة البيئة أو مع ذريتها ، فهى تعتنى بنفسها دائماً وتتدلل وتبدو جميلة وتضع المساحيق وأحمر الشفاه وترتدى الملابس ذات الألوان الزاهية بخلاف أخواتها القانعات والمعتدلات فى كل شىء . تبتهج بشدة وتثور بعنف واندفاع ، يشع من عينيها الذكاء والمكر وتتمتع بسرعة البديهة . لا مجال فى أن يرق قلبها على مصيرها ، اضطرت إلى بيع أوانى المائدة من الصينى التى ورثتها عن أمها وكذلك الأثاث وأجهزة المنزل . لقد أخذ الزوج كل شىء وحطم كل شىء ، حياة مدمَّرة كانت قائمة على الغش والخداع والتهريب والفساد لم تقبلها . كان عمرها أقل من الأربعين عاماً عندما بدأت حياتها من الصفر مرة أخرى ، حاولت الأسرة مساعدتها بقدر ما تستطيع بتقديم جزء كبير لها من إيرادات العقارات ومن الإيجار ، كما تقدم لها خدمات عينية وتشترى لها الملابس وغيرها . وتتضح معالم التكافل الأسرى بشكل قوى فى حياة الناس بالعراق كنوع من التعويض عن مرارة العيش ، ولعدم وجود نظام الحماية الاجتماعية المطبق فى الغرب .

تتميز صحبة النساء فيما بينهن بالبهجة والسرور ، ففى أبريل الماضى ، أقامت سوسو دعوة عشاء فى منزلها لسيدات الحى للاحتفال بالمولد ، وكذلك لنساء الأسرة لإحياء الترابط وإرجاع المياه إلى مجاريها واشترك الجميع بأن أحضرت كل واحدة الطبق الخاص بهذه المناسبة والأوانى والأكواب وأدوات الأكل والمشروبات . استعارت سوسو سجاجيد تكفى لجلوس حوالى ثلاثين امرأة وأطفالهن ووضعت ستائر جديدة وافتتحت هى الرقص، وكانت هناك نسوة ينشدن الأناشيد الدينية ويتلون آيات من

القرآن الكريم وتهتز الأجسام على الغناء والأناشيد . ويحظر استخدام آلات التصوير فى مثل تلك التجمعات والمناسبات لأن منهن من تكون فى حداد أو أخريات يهززن أجسامهن حيث إن هذا الاحتفال السرى يعتبر فى رأيهن تقربا إلى الله وترابطا اجتماعيا .

نرمين المفتى :

نرمين المفتى صديقة قديمة للأسرة وزميلة لنصرة ، وفى أغلب سفرياتى كنت أجدها فى منزل المنصور وقد تركت لفترة شقتها المتواضعة التى استأجرتها فى حى الكرّادة . تعرض بيتها للخراب أثناء الحرب ، وأصبحت ضحية مثل كثيرين غيرها لتلفيات وأضرار من جراء إطلاق الصواريخ « الذكية » التى كانت تستهدف برج الاتصالات المجاور . قابلت نرمين فى كل مرة أصل فيها للعراق ، فهى صحفية فى جريدة الجمهورية ، وبسبب مرتبها الهزيل لا يمكنها القيام بأية إصلاحات . شاركت نرمين نصرة نفس الكابينة فى «سفينة النساء العربيات من أجل السلام» عام ١٩٩٠ وتعرفت عليها دون أن ألتقى بها ، ثم تقابلنا بعد ذلك . وعندما عدت إلى بغداد فى سبتمبر ١٩٩٧ كنا ننام معًا فوق سطح المنزل ونشرب معا كأس المحبة . تتميز نرمين بوجه يفيض بالبشر وتجسد المرح وحب الحياة ، ومع ذلك ، فإنها تخفى وراء عمرها التاسع والثلاثين مأساة تضاعفت حدتها فى الفترة الأخيرة لموت والدها وهو فى سن الستين ؛ نتيجة حقنة خطأ أخذها فى مستشفى كركوك .

يوم الجمعة ، هو يوم الراحة فى المنزل حيث يتم استقبال الزوار وزملاء العمل والزيارات العائلية والأصدقاء الأعزاء . يشترك الجميع فى تجهيز وجبة الطعام ، ويدب النشاط فى المطبخ لإعداد الشاى والقهوة والحصول على كوب ماء بارد .

تعتبر فترة تناول القهوة ذريعة لقراءة الفنجان والتنبؤ بقصص الحب والمال والمستقبل المشرق ، وتعتبر نرمين بارعة فى هذا المجال .

شعرت نرمين بالإرهاق والتعب ، فأشرت عليها بعمل تدليك للجسم لأنها لم تتمكن من الصلاة وهى بهذه الحالة . بدأت بالظهر والعمود الفقرى ثم العضلات مع التركيز

على الرقبة وأخيراً الأطراف . بعد أن شعرت بالراحة ساعد ذلك على زيادة الود بيننا . وبعد أن قضت فترة من النوم استيقظت لإقامة صلاة الساعة الخامسة مساءً وارتدت عباءة خاصة بالصلاة ، وبعد الانتهاء جلست على سجادة الصلاة تقرأ بعض آيات من القرآن الكريم وكلها خشوع . لماذا لا تصلين معنا ؟ في اليوم التالى ، توجهت نرمين إلى الجريدة حيث تتواجد فى تمام التاسعة صباحاً فى قاعة الصحافة ، وفى الخامسة مساءً تؤدى صلاة المغرب ثم القيلولة الإجبارية . يعيش معها شقيقها إبراهيم فى الشقة الصغيرة ويعمل مهندساً كيميائيا لكنه فى الوقت نفسه رسام كاريكاتيرى فى الجريدة نفسها . وسوف يسلمنى مظروفا ضخما عن الأعمال والرسومات السياسية التى تم اختيارها لتقديمها إلى المهرجان الذى سيعقد بفرنسا لأنه لا مجال لإرسال هذه الأعمال بالبريد؛ لأنها سوف تصل مهلهلة وممزقة حيث ترسل بالباص إلى عمّان ثم بالطائرة إلى أى مكان فى العالم وذاك بسبب الحصار الجوى المفروض على العراق فضلاً عن التأخير فى الوصول . تتقاضى نرمين راتبا قدره أربعة آلاف وخمسمائة دينار، وهو مبلغ زهيد لا يكفيها ؛ ولذا فهى تقوم بعمل إضافى فى الجريدة إضافة إلى عملها مراسلاً في بغداد لمحطات تليفزيون أجنبية ومن تلك المحطات NBC . تكتب عمودا بالجريدة كل أسبوع لتعمل على زيادة راتبها ، كما تشارك كل أسبوع فى لقاء بالمركز الثقافى للنساء المثقفات وكذلك فى نادى التركمان لأنها أحد أعضائه . ولا تركب تاكسياً إطلاقا وإنما تستخدم الأتوبيس فى كل تنقلاتها . وتحضر دورة تدريبية على أجهزة المعلومات .

تقع شقتها فى الطابق الثانى من عمارة قديمة بحى الكرّادة ، وتغلقها بإحكام ؛ لأن الحى أصبح موطنا لكل الأعمال المخالفة للقانون من تهريب ومخدرات ومقايضة وتصريف بضائع غير مصرح بها . توجد بلكونة طويلة تشمل عدداً كبيراً من الشقق حيث تطل على فناء داخلى مكدس بالقاذورات والقطط الميتة ، والمياه شبه مقطوعة .

وعوضاً عن المفرش ، يتم فرش أوراق من جريدة الجمهورية على الأرض للأكل عليها . تقوم نرمين بخفق البيض على ملء مقلاة طماطم وقطع الباذنجان المقلى والفلافل ، وهى وجبة بسيطة لقهر الجوع ، يشترك معنا إبراهيم شقيقها وهو أيضاً حذر ومتحفظ مثل شقيقته .

تنتمى نرمين إلى عائلة تركمانية من كردستان العراقية التى تعيش دائمًا فى حالة حرب بين الأشقاء . كانت عائلتها غنية وتمتلك أراضى عدة مئات من القرى لكنها تناقصت بسبب الحكم الذاتى للإقليم الذى صار موطنا للحروب الدموية ، كما تمتلك الأسرة أرضًا مساحتها ستمائة دونم يكفى بيعها لشراء عمارة فى الحى الرئاسى ببغداد وسيارة تمكنهم من العيش فى رخاء . تسببت حقول البترول فى إذكاء أحقاد وأطماع المعسكرات والدول المجاورة خاصة القبائل والعشائر التى تتنازع على المنطقة القريبة من السليمانية . فالأرض لا قيمة لها ، ولذا فإن نرمين تكتفى بالذهاب للجريدة بالأتوبيس كل يوم حيث تقطع مسافة عدة كيلو مترات ، ثم إلى الجامعة حيث تشرف على مدرسة الصحافة . تركت ابنها عليا لأمها لترعاه وبذا فهو يعيش حياة أسرية حقيقية . ومنذ ما يقرب من ثمانية عشر عامًا ، رحل الحب عن حياة نرمين حيث تركها زوجها اللبنانى الأصل بعد أن عاشا قصة حب ساخنة وتنقلا ما بين إنجلترا والولايات المتحدة وأوروبا ولبنان ، حيث يمتلك عمارات على شاطئ البحر وسيارة فاخرة وحمام سباحة وصالة ألعاب، لكنه كان دائم السفريات والانشغال بحجة أنه رجل أعمال . ومن جانبه ، فقد أغلق قصة الحب وأخطر زوجته رسميا بأن تختاره إما هو أو العراق فاختارت العراق ، وبذا فقد اختارت البؤس والفقر وتربية ابنها وحيداً بدون أب يرعاه ، كان عمره فى ذلك الوقت ستة أشهر . ومنذ ذلك الوقت لم تعد تراه ولم تستبدل به زوجًا آخر . وشب على ولم يعرف أباه .

« تزوجت عام ١٩٧٧ وكان عمرى وقتئذ ثمانية عشر عامًا وعمره ٢١ عامًا يدرس فى بغداد . كنا نعتقد أن بإمكاننا توحيد العالم العربى بهذا الزواج ، لكن السياسة قتلت هذا الحلم . صدقت أنه من الممكن نجاح الزواج المختلط بين فتاة عراقية وشاب لبنانى لكن هذا كان خطأ . فالتاريخ العربى مثل السياسة العربية ، فلا يمكننا إزالة الحواجز والحدود . حاول العالم العربى أن يتحد وأن يلغى الحدود ويتخطاها ولكن الدول انهارت ، أحببت زوجى حبا جارفًا وكان هذا أقوى جانب فى تاريخ حياتى، لكنى أحب بلدى بصورة أقوى من حبى لهذا الرجل . كم من النساء العراقيات ضحايا الحروب : الحرب الإيرانية العراقية ، وحرب الخليج ، آلاف من النساء صرن أرامل الآن ويقمن بتربية أطفالهن بمفردهن . آلاف من الأغنياء الجدد هجروا زوجاتهن ليتزوجوا بفتيات صغيرات » .

تتميز نرمين بحلاوة المعشر والحماسة والاندفاع والجد فى عملها، والقوام الملفوف، تواظب على التدريب على السباحة مرتين أسبوعًا ، ترتدى فى المنزل قمصان تى شيرت ممزقة ، رشيقة وتجعل من صالة الصحافة خلية نحل حيث أغلب العاملين من النساء . تجولت فى ميادين القتال ومعها كاميرا الڤيديو وآلة التصوير فى يدها معرضة حياتها للخطر، فكيف تمارس عملها كصحفية ؟ يبدو أن حبها للعراق طغى على حبها لكردستان وهويتها التركمانية . فهل هى بعثية ؟ تنفى ذلك بشدة . لكن ذلك لم يَعُدْ له معنى أو قيمة فى بلدٍ تعرض - ولازال - لحرب دولية الغرض منها القضاء على جوهره وحاضره ومستقبله وماضيه ، هذا البلد يتمسك بهويته قبل أى شيء ويناضل من أجل البحث عن تحقيق ذاته .

« لدينا وعى جماعى قوى . عاش آدم وحواء جنبا إلى جنب بالقرب من البصرة ، الرجل الأول والمرأة الأولى اكتشفا الحب فى بلاد ما بين النهرين ، تعلمت البشرية من العراق - بلدى - الحب والحضارة . تعمقت الحواجز والحدود بينى وبين زوجى الذى أحب هذا البلد لكن ليس بالقدر نفسه مثلى . واختار الجنسية الكندية لكنى لم أستطع أن أترك بلدى . وبسبب الحرب كان إصرارى قويا على البقاء لأرى بنفسى ما حدث وما يحدث ، ولأكون شاهداً وأعد تحقيقات صحفية ميدانية فى بغداد وكردستان وفى مدينتى وفى منطقتى تحت وابل القنابل والصواريخ . كنت أحد أعضاء الوفد النسائى العراقى من أجل السلام فى ديسمبر ١٩٩٠ قبل الحرب مباشرة . وقد سبب رجال البحرية الأمريكيين إزعاجا شديداً لنا عندما اقتحموا السفينة التى لم يكن على ظهرها سوى نساء وأطفال وطاقم السفينة من الرجال وحمولة ألبان وأدوية للأطفال العراقيين ضحايا الحصار . تم اغتصاب العديد من النساء والأطفال أيضا وأتلفوا الأفلام التى أخذتها وحطموا آلة التصوير كما أتلفوا المستندات والوثائق . وبقينا فى عرض بحر عُمَان، حيث قاموا بتفتيش السفينة واحتجازها لمدة أسبوعين، دون طعام أو ماء . . وعند العودة نشبت الحرب . وفى الغارات الأولى ، تركت شقتى فى الكرَّادة وتوجهت إلى كركوك لمدة أسبوع ، وهناك قمت بتصوير الدمار والخراب الذى وقع للمدينة . . هدمت مئات المنازل وقتل العديد من المدنيين بقنابل وصواريخ الطائرات التى كانت تقلع من تركيا ، وفى الأسبوع الثانى قاموا بتدمير المبانى العامة والسكك الحديدية .

وأرسلت الصــور إلى بغــداد ورجعت فى أتوبيس قــذر ومقزز . لن أنسى ذلك أبداً . . صـار الموقف فى غاية الخطورة ، ولم تعد الكرّادة الحى الذى يتسم بالحيوية والنشاط فى وسط المدينة بمقـاهيـه ومحـلاته ، لا أحد إطلاقًا فى الشوارع ؛ جمـيع المحلات والمقاهى والبيوت مغلقة ، فتحت الشباك فوجدت الزجاج قد تحطم والحائط المواجه قد تهدم ، الميدان ليس به سوى الدمـار والخراب ، كانوا يريدون تدمير سنترال الهاتف بالعلوية المواجه لبيتى . منظر مرعب ، لازالت آثاره باقية حتى يومنا هذا . قلت لابنى : يجب أن تفتح عينيك جيداً وتعى فى قلبك وذاكرتك صورة المنازل والعمارات والحى» . لم تبرح الابتسامة وجهها الجميل إلا بقدر قليل عندما كانت تحكى المناظر المرعبة .

تتـحـدث نرمين الإنجليـزية بطلاقـة ، فـهى حـاصلة على دبلوم التـرجـمـة الفـورية إنجليزى - عربى من مدرسة الهندسة بلندن ، وحصلت من بودابست على لقب مهندس تصوير صحفى ، وتدير حالياً قسم التحقيقـات الصحفية فى الجريدة ، كما طبعت عدة كتب للأطفال الموهوبين . يبلغ عمر ابنها حـاليًا ١٥ سنة ويعيش فى كركوك مع الأسرة هناك .

فى شهر أبريل ، أخبرتنى نرمين وهى فى حالة اضطراب وعصبية ، أن والد على سيأتى للزيارة فى شـهر يونيـو . وبعد أربعـة عشـر عامًـا جـاء واستـقبل فى الشقـة المتواضعة وقابل ابنه ثم عاد أدراجه يلهث وراء حياة التجارة الدولية التى يمارسـها وأسرته الأخرى ، وكل ما فعله أنه ترك ورقة من فئة المائة دولار لابنه .

الفصل الخامس

إلى العمل

لا شيء يحمل الشعب العراقى على التخيل والابتكار وبنـاء مستقبله ، فلا تنتظر منه جهداً خارقًا ينقذه مما هو فيه ؛ لأنه استقر فى حالة بطالة وتعطل عن العمل ومعاناة . فلا شيء ينقذه من هذا المستنقع الذى وضع فيه سوى رفع العقوبات فى ظروف تتسم بالود حتى يتمكن من استعادة نشاطه وقوته .

دكتور ميشيل چولى

جريدة الجمهورية

اتفقنا على أن نذهب معًا يوم السبت إلى مقر عمل نرمين فى جريدة الجمهورية لنقضى يوم عمل معها ، وعند مدخل الجريدة ، قابلت أبا على الرجل العجوز ذا الابتسامة الصادقة ومعه دفتر الحضور والزيارات . ترددت فى الصعود بالمصعد ذى الكابينة العتيقة لكن نرمين بكل سطوة ونفوذ استخدمته حيث لا تتسع الكابينة إلا لثلاثة أفراد . تعتبر نرمين العمود الفقرى والمحرك الأساسى فى الجريدة ، تدير نرمين العمل بحماسة وشغف حيث أصبح بمثابة خلية نحل ما بين فك رموز المقالات الصحفية وقراءة المذكرات وإعداد المقالات وتكوين المراجعة النهائية وإعداد البرنامج الأسبوعى . يعمل تحت قيادتها أربعون شخصا معظمهم من النساء ، يرتدين ملابس متنوعة ما بين الحجاب والزى الغربى . ومن الواضح أن النساء ينجزن العمل بسرعة وهمة أكثر من الرجال .

قامت أمل المدرس* بزيارة مفاجئة لنرمين وقدمتها لى ، وهى مذيعة فى إذاعة بغداد ومعروفة لدى العراقيين بصوتها الدافئ عندما كانت تذيع عليهم حجم الخسائر التى نجمت عن القصف أثناء الحرب . وفى ٨ أغسطس ١٩٨٨ أعلنت انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ولذلك يطلقون على صوتها « صوت النصر ». تتميز أمل بالوجه البشوش ذى القسمات الضاحكة . يتجاوز عمرها الخمسين عامًا وترتدى الملابس السوداء ، فهل تلك دلالة على إخفاء مأساة تعيشها؟ لديها ثلاثة أبناء وهى جدة حاليا . ابنها الثانى عمره ١٨ عامًا ويعانى من نوع جديد من تكاثر كريات الدم البيضاء وظهور خلايا شاذة ، ولم يتوصل الأطباء إلى تشخيص المرض أو علاجه .

وقد تناول أدوية بالخطأ مما حتم ضرورة إجراء عملية جراحية عاجلة بالعمود الفقرى ، ومن المستحيل علاجه فى بغداد أو سفره للعلاج بالخارج ؛ لأن هذه العملية تتكلف ما مقداره راتب المذيعة لمدة ٧٥ سنة . انتشرت أنواع مختلفة من السرطان ولوكيميا الدم (تكاثر كريات الدم البيضاء) نتيجة اليورانيوم الناتج من الصواريخ الأمريكية . ويبقى الملف مغلقًا .

المكاتب الموجودة فى الجريدة فارغة ومحطمة وقديمة ، والزجاج مغطى بالغبار ، والهاتف معلق بالحائط وأسلاكه عارية ، ولم أشاهد أى فاكس أو جهاز حاسب آلى أو حتى آلة كاتبة وإنما تتم الكتابة يدويا . إنه حقا موقع صحافة يتسم بالغرابة . قدمت لى نرمين عبدَ الظاهر زكى وهو شاعر عراقى يعمل فى الصفحة الثقافية بالجريدة . يتميز عبدالظاهر بالكتمان والتحفظ والخجل وتعلو وجهه مسحة من الكآبة والحزن ، تحدث عن انعزال الشعراء وانقطاعهم عن أية صلة بنظرائهم فى العالم وفى أوروبا بصفة خاصة . فهو يتمسك بعلاقات الصداقة بين الشعراء والتبادل الثقافى والفكرى بينهم من أجل الوصول إلى العصرية والتقاء الخبرات والتجارب . واضطرته الظروف إلى اختيار البقاء فى العراق . وفى هذه العزلة ، أصبح مبدعا ولكن دون أن تتاح له فرصة طباعة مؤلفاته . وفى عام ١٩٨٠ طُبع فى العراق أعمال لعدد من الشعراء الفرنسيين أمثال بودلير **Baudelaire** ورينيه شار **René Char** ورامبو **Rimbaud** وأراجون **Aragon** حيث قام بترجمتها طاهر بن جلون أو قدوم جهاد أو أدونيس وهو شاعر سورى يعيش فى باريس . يتعهد جميع الشعراء بمقاومة الفاشية :

« فـهى خطر ضد المثقفين لأنها تحرمهم من الاطلاع على ثقافات الآخرين وتجعلنا نجهل ما يحدث فى الخارج . لقد أثر علىَّ الحصار كما أثر على جميع العراقيين ، فأنا فى حاجة إلى علاج وأدوية لإجراء عملية وهى غير موجودة أو باهظة الثمن ، وكل يوم أقضيه فى البحث عن أدوية لزوجتى . لقد قضى الحصار على بنكرياسى » .

وجدت مكتبه خاليًا تماما من أى شىء ، فلا يوجد به سوى منضدة معدنية وبعض الكراسى ، وأسلاك التليفون عارية والجهاز مكسور وصوت الجرس حاد وطفاية السجائر مليئة بأعقاب أردأ أنواع السجائر الشعبية لرخصها . يبلغ مرتب زوجته التى تعمل بالتدريس مع مرتبه ٤٥ ألف دينار شهريا ويسكن بمدينة صدام فى الحى الأكثر فقرا فى بغداد ويبعد عنها بعدة كيلومترات . فلا مجال لاستخدام تاكسى وإنما يستقل الأتوبيس فيقضى ساعة فى المواصلات لكى يصل إلى بيته فى المساء .

« إنه لأمر يدعو للغرابة ألا أتمكن من السفر للخارج ، فعمرى الآن ٤٥ عامًا ولم أغادر بلدى حتى الآن . قضيت تسع سنوات جنديا فى الحرب العراقية الإيرانية ، كان الجميع جنودًا ؛ إما متطوعين أو مجندين تجنيداً إجباريا ، وأثناء الحرب بذل الشعراء أقصى ما يستطيعون من أجل إنقاذ أرواحهم . لقد حطمت الحرب كل شىء ، وأنا ممزق الآن بين كونى شاعراً وهذا الشىء الذى يسمونه السياسة . إننى أتغنى كل يوم بالسلام والحب والحرية والقدر والحياة بصفة عامة . لم تعد لدينا أحلام . لا ندرى ماذا سوف يحدث » .

ثم قام بإعداد قائمة لحصر الأسماء الشهيرة التى اختفت فى السنوات العشر الأخيرة والكثير منهم لم يعد على قيد الحياة ، كتاب روايات وكتاب وفنانون ومثقفون : على العواردى ، ليلى العطار وهى فنانة تشكيلية وقد قتلت بصاروخ أمريكى فى يونيو ١٩٩٣ ، فرات الجواهرى الصحفى ، إسماعيل عيسى توفى فى ريعان شبابه ، موسى كريدى كاتب روائى ، كريم قارم شاعر توفى وعمره ٢٢ عامًا ، مهدى جبور ، محمد الجندرى كاتب ، بكر سمك كاتب قصصى للأطفال ، عبدالجليل موسى صحفى ، محمد الزبيدى ، سهام السعودى توفيت عن ٥٤ عامًا بمرض الربو التى لم تستطع معالجته رغم حالتها المادية الميسورة ، غازى العبادى روائى وقد توفى هذا العام ،

أبو أحمد مدير صالة عرض المنتجات الفنية إنّا . . . بعض الأسماء من بين فئات المجهولين الذين يموتون كل يوم .

– ما الأمل الذى تتمنى تحقيقه ؟

– أن أعيش فى سلام ، فى حب ، دون حرب ، دون حصار ، نتطلع إلى عالم الشعر والحرية والحب . واليوم لا يفكر أى شخص إلا فى الطريقة التى تمكنه من البقاء على قيد الحياة . كيف نعيش فى هذا العالم المرعب ؟

يقوم محمد صاحب سلطان رئيس تحرير الجريدة بالإشراف على العمود السياسى ، وهو رجل ودود تقدمه نرمين كصديق عزيز . وتصر على أن أسأله عن حياته وعن عمله بصفة خاصة . فأية مقالة لابد من أن تمر عليه قبل الطباعة . ما هى المعايير التى تضعها وتحدد بها قبولك أو رفضك لتلك المقالات؟ يبدو أن السؤال قد سبب له بعض الحرج . على الشكل ، فهو كمحترف ومتمرس فى هذه المهنة ، يرفض الأسلوب المعيب ، وعلى الجوهر ، فلا يسمح إلا بمرور المقالات التى تتفق واهتمامات المجتمع وقوانين أخلاق مهنة الصحافة . وهكذا ، فإن المواضيع الحساسة مثل البغاء والمخدرات والأخلاق غير الفاضلة ليس لها مكان فى الصحيفة وأية مقالة تسبب ضرراً أو مساساً بالأخلاق أو بفرد من الأفراد أو تتحدث عن مواضيع خطيرة وشائكة كقضية الأكراد واللصوص والمافيا – تترك بدون توقيع وتحتاج إلى أدلة كافية لتنشر إذا كان ذلك ضروريا .

« تفرض علينا حالة الحصار قواعد صارمة ، وأنا صوت من بين ٢٢ مليون عراقى خاضعين لهذا الوضع . لقد أثر الحصار على عملنا خاصة فى مجال الثقافة التى أصبحت أمراً قاسياً ومؤذياً للأجيال المقبلة . كما نقاسى من الحصار فى مجال الإعلام والمعلومات ، وحُرمنا من أى تكنولوجيا أو إنترنت أو كمبيوتر أو فاكس . . ومع ذلك ، فنحن نجاهد كى نستمر فى الكتابة . ولم يتبق لنا سوى استخدام أوراق الكربون ، إلا أن الأونيسكوم UNSCIM منع عنا أيضاً استيراد تلك المادة » .

مكتب رئيس التحرير عبارة عن غرفة فارغة تماماً ؛ أرفف خالية من أى شىء ، وليس بها أى جهاز فاكس أو تلكس أو كمبيوتر ، بل ولا حتى آلة كاتبة ، جهاز تليفزيون

قديم موضوع على أحد الأرفف وشاشته رديئة للغاية وثلاجة ومنضدة صغيرة منخفضة من الزجاج ، جهاز راديو قديم ، وصورة لصدام حسين مثل باقى المكاتب . الحبر المستخدم مستورد من فرنسا ويتم استعماله بحرص شديد حتى لا ينفد، ومن أجل ذلك، تم تخفيض عدد صفحات الجريدة من ١٦ صفحة إلى أربع صفحات فقط منذ ثمانى سنوات . وفى بضع دقائق يتم تصفح الجريدة وقراءة العناوين والأخبار بصورة إجمالية بدون أى تحليل . من المؤكد ، أنه إزاء تلك الظروف لابد أن يذبل الفكر . وتحاول صحف أخرى أن تفتح باباً آخر للنقد وأيضا ذا مضمون ثقافى ، وهذه الصحف يدعمها عُدَىٌّ بن صدام ، الذى افتتح أيضا قناة ثانية بالتليفزيون ذات طابع ثقافى ، وتقتصر الثقافة – حسب ما شاهدت – على إعادة بث حفلات موسيقية شعبية وأغان لمطربين مشهورين وبرامج للأطفال ومسرحيات شعبية وإسكتشات وبرامج كوميدية وبث احتفالات بابل . وإذا تجولنا فى القنوات الخارجية التى يبثها القمر الصناعى من دول الخليج والولايات المتحدة لفتح نافذة على العالم الخارجى ، نجد أنها ملتزمة دائمًا بالأخلاق العامة والقيم . أما الأفلام الأمريكية والمسلسلات المصرية والأفلام التسجيلية والثقافية فإنها تغطى أوقات الإرسال ، كما أن برامج عالم الحيوان تشغل الأطفال . والملاحظ أن البث لا يتضمن أى موضوعات جوهرية أو جادة . وكيف يمكن ابتكار أو خلق مواضيع جادة وباتلر هو المسيطر على الوضع ؟

وفى شهر أبريل ، أقيم عرض عسكرى لجنود الاحتياط والمتطوعين مما أدى إلى شلل الحياة فى بغداد وفى سائر العراق لعدة أسابيع ، ووقف صدام أمام المنصة عدة ساعات رافعًا ذراعيه للتحية وتكرر ذلك لعدة أيام . وأعيد بث فيلم ممل عدة مرات لرفع الروح المعنوية للقوات العراقية وللشعب ، وكانت الحماسة الشعبية صادقة أثناء وبعد أزمة فبراير ١٩٩٨ بين الأونيسكوم **UNSCOM** والعراق .

قمت بزيارة قاعة الصور الفوتوغرافية الموجودة بالطابق الأسفل ، وهى عبارة عن غرفة خاوية بها دواليب معدنية يعلوها الصدأ والغبار والدخان ، وبها الملفات التى تضم الصور الفوتوغرافية .

قدمتنى نرمين إلى رحيم قاسم وهو مصور فنى وحربى ، وعرض علىَّ شراء كتالوج يضم صورا عن المدينة وشرفات المنازل القديمة ومشاهد من الشوارع وأحد

أبواب مسجد أو منزل قديم مع التركيز على فن الأرابيسك العربى ، وأيضا صور مأخوذة أثناء الحرب العراقية الإيرانية . واقترح بيع الكتالوج بعشرين دولاراً أى ٣٠ ألف دينار وهو أقل من تكلفته ، لكنى أفهمته أنى لست أمريكية ولكنى فرنسية وليس معى المال الكافى ، كما أنى لا أود رؤية مشاهد الحرب والموت والجثث والدبابات المحترقة والجنود والأسرى .

الفصل السادس

التجمع العائلى

« سمعنا من يقول أن نصف مليون طفل ماتوا نتيجة العقوبات ضد العراق . وأعتقد أنه اختيار قاس جدا ولكننا نتصور أن ذلك هو الثمن الذى ينبغى دفعه » .

مادلين أولبرايت

(المندوب الأمريكى الدائم لدى الأمم المتحدة فى حديث أجـرته مع ليزلى ستال عام ١٩٩٦)

عيد الميلاد

اليوم هو عيد الميلاد السادس لرضا ابنة سوسو، وغالبًا ما توجد بالمنزل والكل يحبها ويدللها؛ فهى جميلة ، ولها المقدرة على إغراء الجميع بسحرها ودلالها . شاهدتها أول مرة وعمرها أربعة أشهر . وبدأت المأساة منذ صغرها عندما حدث الطلاق لأمها ، ولذا فهى لا تعرف أباها . تركت تلك الكارثة آثارها على الأم والطفلة، التى تمزق فستانها عندما تشعر بغضب للتعبير عن رفضها أى شىء .

استعدت الأسرة للاحتفال بهذا العيد منذ عشرة أيام ، وتم شراء الأوراق الملونة والشرائط ، ولابد من إعداد ملابس جديدة للحضور للحفل ، أما الأم فلا مجال أمامها لتغيير ملابسها ، لأنها تكفلت بتربية أطفالها الثلاثة ، تلك المسئولية التى قصمت ظهر الأم. تحتفل بأعياد ميلادهم فى منزل المنصور ، أما رضا ، فهى الملكة الصغيرة . تجمَّع ما لا يقل عن خمسة عشر طفلاً تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثة أعوام إلى ثمانية

عشر عاماً أغلبهم من الأولاد . جلس الرجال بجوار التليفزيون والنساء والأمهات في داخل المنزل مع الجد عم نصرة وزوجته . أما أم نصرة ، فقد توفيت منذ ستة أعوام على أثر تناول دواء لمعالجة نزلات البرد انتهت مدة صلاحيته وكان عمرها ٦٥ عاماً .

تحولت جميع الأنظار تجاه التليفزيون والآذان مصغية ؛ فالحديث جد خطير رغم الابتسامات وبهجة الحفل . فقد أذيع حوار مباشر بين باتلر وطارق عزيز وفريق الأونيسكوم UNISCOM بالكامل وأعضاء مجلس الوزراء في الجانب الآخر . غطت ضحكات الأطفال واهتمامهم بألعابهم على جدية الموقف ، كان المؤتمر يضم صفين متقابلين : أفراد يرتدون البدل السوداء وأمامهم الوزراء بالزى العسكرى ، والجميع منهمك في تسجيل ملاحظات والتوتر على أشده . ما هي النتائج والقرارات التي سيخرجون بها ؟ كانت هنا ذراع حديدية تعمل وتجهز للحفل لعدة ساعات ومنذ أيام ، إنها دعاء حيث تجمع الأطفال حولها فهي الآن أمهم جميعا . جهزت الصحون وفكت ربطات الهدايا والتورتات . ودخان السجائر يتصاعد بشكل حلزوني فيملأ أرجاء المكان ، أخذت أسجل بآلة التصوير التي معى عدة صور لبهجة الأطفال ثم أتوجه بالكاميرا ناحية الكبار ، فأسجل خطورة الموقف وسخونته على وجوههم . لم يوزع طارق عزيز ابتسامته وإنما قدم عرضا مطولا من جانبه كله شكاوى على فداحة الظلم الذى يتعرض له العراق . هربت نصرة من حديث مع أختها نورا ، كانت تلقى نظرات غير مباشرة نحو شاشة التليفزيون وأذن مصغية إلى الحوار وإلى الهاتف الذى يرن كل لحظة . وفجأة أعطيت إشارة فتح أول هدية . تجمع الأطفال على شكل دائرة حول دعاء وصيحات الفرح تملأ الأرجاء عند كل اكتشاف ، فيقفزون فرحاً وسروراً أو يصفقون والقبلات تنزل كالمطر . الأطفال بعيدون عن التليفزيون ، سجلت بآلة التصوير وجوه الأطفال وصرامة وتشبث الكبار بآرائهم . وتجهم على وجه باتلر ، كان يجلس خلفه مساعده ويبدو عليه القلق . ابتسم طارق عزيز بل وضحك واستأنف سخريته أمام قائمة الأسئلة :

« كيف دمرتم الصواريخ (وكان ذلك منذ خمس سنوات) وبأى آلات حفرتم حفراً لدفنها ؟ ما نوع الإطارات التي استخدمت ؟ وماذا فعلتم ببقايا وحطام مكونات

الصواريخ التى دمرت ؟ وأين تم تخزينها ؟ ومن أشرف على تلك الأعمال ؟ وكم عدد الذين عملوا ؟ » .

(فى الفترة ما بين ١٩٩١ و ١٩٩٤) تسعة وعشرون سؤالا من النوع نفسه ، وكان الأمر يتعلق بمضخة تم استيرادها فى ١٣ سبتمبر ١٩٨٩ « من كان حاضراً وقت استلام المضخة ؟ من كان موجودا من الجانب العراقى ؟ من الذى أعطى الأمر باستيرادها ؟ هل كان ذلك الأمر كتابيا ؟ متى طلبتم أن يتم تسليم المضخة قبل ذلك ؟ ومتى سلمت المضخة ؟ وما تاريخ رحلة الطيران التى نقلت المضخة ؟ وفى أى مطار عراقى هبطت الطائرة ؟ هل كان التغليف مكونا من مواد مستوردة ؟ أين تم تخزين هذه المضخة ؟ ما العلامة التى كانت على التغليف ؟ هل احتفظتم بالفواتير والمقايسات والأوصاف ؟ هل يوجد رقم على المضخة ؟ هل يوجد اختلاف بين المضخة التى تسلمتموها وبين الأوصاف الخاصة بها ؟ هل مستورِد المضخة لازال بالعراق ؟ كم يوما بقيت فى العراق ؟

– استوردتم ٣٥ مضخة ، وبقيت اثنتان . مستند من الخطوط العراقية محفوظ منذ عامين يؤكد أنه لازال يوجد مضختان .

– لماذا لم توجه هذا السؤال منذ عامين ؟

– لدينا صور بالأقمار الصناعية .

– لماذا لم تقدمها لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة » ؟

استمر عرض وزير الصناعات البترولية لمدة ست ساعات مع خبراء آخرين لإعطاء تفاصيل حول حفرة قديمة منذ ست سنوات . وقد أغلق ملف هذا الموضوع مع خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية AIEA الذين قاموا بالإشراف الروتينى منذ ثمانى سنوات ورالف أكيوس Rolf Ekeus المسئول السابق للجان التفتيش بالعراق ، وتم ردم هذه الحفرة . بعد ثمانى سنوات من الحرب يعود باتلر Butller إلى تولى المسئولية ، وبعد ثمانى سنوات يطلب المستندات نفسها ويتم إعطاؤه أيضا تفسيرات ، ثم يطلب مستندات جديدة وأيضا تفسيرات جديدة . وبعد ثلاثة أيام من الحوار المباشر بين باتلر

وطارق عزيز يلتف مرة أخرى حول نقطة اللاعودة . وكتبت نصرة مقالاً بعنوان : « الملك الذى يتنزه عاريا » ، فالعالم كله مقتنع بأنه يرتدى ملابس فاخرة ولكن طفلا عراقيا يتعجب لأن الملك عار تماماً .

بدأ الأطفال يشعرون بالقلق ، حان وقت تقطيع التورتة وعليها الشمعات الست وأضيفت إليها شمعات سحرية أحضرتها من باريس كانت مفاجأة أبهرت الأطفال . شعر الكبار بالبهجة ولكن بصعوبة ، فقد واصل طارق عزيز حديثه قائلا : « كان يجب تقديم الدليل فى ذلك الوقت على أن العراق خال من الأسلحة المحظورة ، وينبغى الآن تقديم الدليل على أنه لم يعد يوجد أى نوع من تلك الأسلحة . لقد فاض الكيل . إنها لهزلة مضحكة من أن الضحية يتم إنذاره بأن عليه أن يقدم الدليل على براءته ! » . ارتسمت تعبيرات الجدية والخطورة على الوجوه ، ومن السهل قراءة الأزمة واقتراب القطيعة . لم يوزع طارق عزيز ابتساماته أو حتى ضحكاته . ما البديل الآخر الذى يحدث عند «تقديم فنجان شاى، هل لابد أولا من إثبات أنه ينبغى تقديم فنجان الشاى؟» . هدوء مشوب بالطمأنينة من جانب هؤلاء الذين ليس لديهم شىء يفقدونه ، فالحقيقة واضحة تماماً ، ولاداعى لإثباتها .

ومن الأفضل ترك مسألة مرور الوقت لعلماء الرياضيات .

لم تعرف رضا الحرب فقد ولدت بعدها ، لكنها عاشت نقص الألبان والسكر والحلويات والشيكولاته . والآن بدأ الأطفال باللعب وبدأت معركة شرسة بالمخدات ولم أكن فى وضع استعداد . وتأججت النيران . ولم تكن هناك لهجة تدل على المصالحة ، فالكل على أبواب المقاطعة ، وعاش الجميع على أمل الانتظار . ماذا لدينا لكى نفقده هنا ؟ يجب الانتظار حتى يتم الأخذ بالثأر سواء تم ذلك فى الحال أو بعد فترة . وأى ثأر هذا ؟ ومتى وأين وكيف سيضربون ؟ غداً ؟ فى الخريف ؟ على بغداد ؟ فى الصحراء ؟ الرئيس الأمريكى يراقب الموقف مع « زيزى جيت » . من الممكن حدوث أى شىء .

يلعب الأطفال كالمجانين ، صار الوقت منتصف الليل ، وفجأة أصبح المنزل خاوياً .

الفصل السابع

العراق تحت الانتداب من جانب الأمم المتحدة

من الضرورى أن ألفت الانتباه مرة أخرى - مثلما فعلت فى تقاريرى السابقة إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة - إلى التعقيدات الاستثنائية التى لم يسبق لها مثيل للبرنامج الإنسانى الذى ينفذ بموجب القرار رقم ٩٨٦ (١٩٩٥) الصادر عن مجلس الأمن فى ١٤ أبريل ١٩٩٥ وبناء عليه ، يؤكد أن هذا البرنامج يجب أن لا يكون بينه وبين برنامج التنمية أى لُبس أو خلط ، وإنما هو برنامج فريد يتم تنفيذه من قبل مجلس الأمن لتلبية الاحتياجات الإنسانية للعراقيين - بصفة مؤقتة - إلى أن يقوم العراق بتطبيق القرارات ذات الصلة وخاصة القرار رقم ٦٨٧ (١٩٩١) الصادر فى ٣ أبريل ١٩٩١ الذى يندرج تنفيذه فى إطار نظام من العقوبات ذات أبعاد سياسية وسيكلوچية وتجارية ذات صفة خاصة تماماً .

(تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة فى الأول من فبراير ١٩٩٨ الفقرة السابعة)

إن بدء تنفيذ الإجراءات الخاصة بقرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ لم تساعد حتى اليوم على « تجنب الموقف الذى يزداد سوءا » (نص القرار) ... يظهر الحصار اليوم وكأنه : وسيلة لتمديد أمد الحرب ، والمرادف لاحتلال الأراضى . فالقرار رقم ٩٨٦ ليس سوى إحدى الوسائل لهذا الاحتلال الافتراضى الذى يطيل فترة « أزمة الحصار» أطول مدة ممكنة كما يتمنى المستفيدون من هذا القرار .

دكتور ميشيل چولى

(فى تقرير أعده حول النتائج السيكولوچية للعقوبات .. يونيو ١٩٩٨)

سبتمبر ١٩٩٧ ، العودة بعد عامين

بقيت ما يقرب من عامين لم أتمكن فيهما من الذهاب إلى بغداد ؛ لارتباطى بعدة سفريات فى جهات أخرى . ولدى عودتى فى سبتمبر ١٩٩٧ بمناسبة مهرجان بابل ، وجدت أشياء لم أشاهدها من قبل : ظهرت محلات الحلويات وقد تكدست بأنواع شتى ما بين حلويات شرقية وأخرى غربية ، لم أصدق ما أشاهده عندما لاحظت أن كثرة الحلويات وتنوعها تطغى على الفواكه الطازجة . كما وجدت محلات تعرض الخضراوات والفواكه : العنب والليمون والطماطم والفلفل والتين والكوسة وأنواع أخرى من الخضراوات المستخدمة موضوعة فى سلال ، بعض سيارات جديدة وأخرى تم تجديدها ، ويمتلك موظفو الشرطة عددا من تلك السيارات بنظام البيع عن طريق الإيجار وهو نظام جديد يلقى عناية كبيرة . ماذا حدث إذن منذ عام ١٩٩٥ ؟

الخوف أدى إلى التراخى

أتاح تطبيق القرار رقم ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن الفرصة للدولة إلى عدم الالتزام بآليات السوق الداخلية وأيضاً نظام التوزيع ، وتم توفير حرية استخدام السكر والدقيق والزيت والمكونات الأساسية الأخرى ، وأصبحت تلك السلع تباع بسعر حر ولم يعد السوق يخضع إلا لقواعد السوق الحر ولقوانين العرض والطلب . وتم الإبقاء على نظام توزيع السلع بالبطاقات والحصص المقررة لكل فرد ، ولكن دون أن تتدخل الدولة إلا فى حالة المضاربة على أى منتج أو حدوث أى تضخم فى قطاع من القطاعات واكتشاف الواقعة والعمل على تهدئة الأمور بفرض الحد الأعلى للأسعار وإعادة النظام .

يتم فورا إعادة بيع أجولة (أكياس) الحبوب والدقيق أو مكونات أخرى تم شراؤها من مراكز التوزيع التابعة للدولة بسعر مدعم ، أمام باب المقر أو حتى على الرصيف . تُجرى المقايضات والصفقات على قارعة الطريق فى وسط المدينة . كنت قد

* شاهدت من قبل نساءً وأطفالاً يقومون بتلك الأنشطة فى محيط المدينة على أرصفة الشوارع شبه الخالية ، أغلب النساء كن هزيلات وظهورهن مقوسة وعجائز ويخفين وجوههن ، حتى الأعين لا يظهر منها شيء . فهل تلك هى الأصولية والعودة إلى التقاليد؟ وهل ظهر التمسك بالدين من جديد ؟ أم أنه مجرد حذر والتعمد لإخفاء ما ألم بهن من بؤس ؟

العراق محتل من قبل الأمم المتحدة

تعادل قيمة الدولار الآن ١٥٠٠ دينار وهو السعر نفسه تقريبا فى البنك ومحلات الصرافة الخاصة فى المدينة ، يتم تغيير الدولار بكل حرية على مرأى ومسمع من الجميع . تباع زجاجة الماء بدولار . دخل الدولار المقدس بصورة رسمية وشرعية فى جميع مجالات المعاملات التجارية ، كما أن العربات التابعة للأمم المتحدة صارت تغزو المدينة وموجودة فى كل شارع وركن من أركان المدينة وفى محطات بيع الوقود وفى الشوارع المزدحمة وأمام البنايات الحكومية وعليها علامة UN وتسير فى مجموعات أو بصورة منفردة ، وأصبح واضحا أن الأمم المتحدة تحتل البلد . يُطبق القرار ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن والمسمى : « النفط مقابل الغذاء » ، إن هذا القرار يفرض على الدولة أن تدفع رواتب موظفى الأمم المتحدة ونفقات لجان التفتيش وديون الحرب (للكويت والمملكة العربية السعودية) وتكاليف المساعدة الإنسانية المفروضة بموجب هذا القرار إلى كردستان التى تحتلها العراق بخدعة خط العرض ٣٦ ...

لقد سقط العراق تحت الوصاية والانتداب والحماية ، ولكن هذه المرة من جانب الأمم المتحدة .

الوكالات التابعة للأمم المتحدة

أشعر بالأسى أن أذكر أنه رغم تطبيق القرارين ٩٨٦ (١٩٩٥) و ١١١١ (١٩٩٧) على التوالى ، فإن الشعب العراقى يجد نفسه دائمًا فى موقف يتسم بالصعوبة الشديدة على المستوى الغذائى والصحى ، وإنه لمن الضرورى أن يجتهد وبصورة ملحة لمنع تدهور هذا الموقف الذى لازال يتسم بالخطورة ...

(تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة فى ٢٨ نوفمبر ١٩٩٧ - الفقرة ٨٤)

بناية السعدون

تقع بناية السعدون فى وسط مدينة بغداد قرب نهر دجلة وهى المقر الرئيسى لمكتب الأمم المتحدة ONU ومنظمة الأغذية والزراعة (FAO) وبرنامج الغذاء العالمى (WFP) . وقد حل الدكتور ج . ف . دونارد J. F. Donnard محل ميشيل چولى ، ويشرف على فريق مكون من ٤٨ شخصا يشغل أغلبهم وظائف تتعلق بالعلوم الإنسانية والأوساط الدبلوماسية ، ولأن المكان جديد بالنسبة إليه فإن التحليلات التى يقدمها مدعمة بخبرة الفريق الذى ينسق معه . لكنه يقول : « بالنسبة لهذه الوكالة ، فنحن نحتاج بصفة خاصة إلى تخصصات فنية لعمل جداول على الحاسب الآلى وهذه الحالة لا تتوفر فى المبعوثين أو الدبلوماسيين أو الموظفين المعتمدين من قبل الحكومات » . والإجراء الذى يتم بموجبه العمل فى العراق هو فى رأيه أمر مستجد تماما ، مثل الأونيسكوم UNSCOM (لجنة فرض العقوبات) المنبثقة عن القرار ٩٨٦ والوكالات التابعة للأمم المتحدة . وهكذا ، فإن العراق يشكل أرضية للتجارب يتم مراقبتها بشكل دقيق وعلى أعلى مستوى من خلال التقارير الضخمة التى يتم إعدادها كل أسبوع ، فالتحليلات والنتائج المستخلصة تتيح الفرصة لإسقاط أو تخفيض أو تطويع الأدوات الجديدة التى قد تطبقها الأمم المتحدة فى إدارة الصراعات القادمة فى أجزاء أخرى من الكرة الأرضية واحتمالات تجنب فرض سلاح الحظر وسلاح التجويع .

• يعتبر الدكتور دونارد خبيرا فى أمراض المناطق الحارة، حيث عمل فترة طويلة فى مصر ، وقد أعد صورة قاتمة عن الوضع فى العراق الذى يزداد سوءا ؛ لأن الأجهزة والمعدات المستخدمة يرجع تاريخها إلى ١٩٨٠ ، كما أن الإحصاء العام لا يتم على أساس علمى ، والمحافظات ينقصها حرية العمل على تقويم الاحتياجات متجاهلين آلية الأوامر المباشرة .

« يعمل كل فريق فى مكانه بلا انقطاع. ولوحظ تخلف واضح فى جميع المجالات ، فمثلا الطاحونة المزودة بحاسب آلى لا يعرف أحد تشغيلها ، وظل كل شىء مهملا لمدة ثلاثة عشر عاما . ضاعت المعانى والمفاهيم العديدة ، ومن سيقوم بإعادة تعليمها ؟ يواجه العراق مشاكل العالم الثالث دون أن يكون ضمن هذا العالم . وتصرُّف الطبيب قائم فى أغلب الأحيان على عدم الفهم ، ولم تعد الأولويات توضع فى الاعتبار ، ففى مدينة تكريت مثلا، عولجت حالات التهاب السحايا والدرن الرئوى بمضاد حيوى عادى. والمعروف أن طلبيات الأدوية تتم بموجب برنامج منظمة الصحة العالمية OMS منذ عام ١٩٨١ وهو برنامج قديم لا يعمل به منذ عشرين عاما . كما أن الوسائل الفنية وأساليب العلاج قد تطورت بشكل كبير ولكن هنا فى العراق ليس لديهم أدنى معرفة بهذا التطور وكثير من الطلبيات لم يتم تسليمها » ، وفى رأيه أن « حالات اللوكيميا والسرطان التى تم إحصاؤها بمعرفة منظمة الصحة العالمية ما هى إلا بمثابة شجرة واحدة من غابة كبيرة : سوء تغذية ، التهاب شعبى ونزلات رئوية ، عدوى ، الدرن الرئوى ، آفات تسبب تلفا ودمارا لبعض أجهزة الجسم . وغالبا ما يتم الوصول إلى أصل المرض متأخرا جدا بعد أن يكون الداء قد استفحل ، وإذا صرفت أدوية مضادة للسرطان فإنها تخل بالأولويات لأن ثلاثمائة حالة لوكيميا تتكلف علاجا يعادل ما يصرف على ثلاثة آلاف حالة لمعالجة سوء التغذية » .

بدأت البلاد تدخل فى مرحلة تغيير وتحول نتيجة فتح المجال للاستهلاك ، فالمرحلة الرابعة للبرنامج المتوقع أن يتم فيه تصدير البترول بما يعادل خمسة مليارات من الدولارات وانخفض إلى أربعة مليارات ثم إلى ثلاثة مليارات من الدولارات (بسبب نقص قطع غيار لازمة لصيانة خطوط أنابيب البترول) . وتم التركيز على توفير « سلة الطعام » ، وقد أعرب الدكتور دونارد عن شكوكه بالنسبة لعلاقة الحكومة بالشيعة فى الجنوب والأكراد فى الشمال حيث واجهت الوكالات التابعة للأمم المتحدة صعوبات فى التعامل مع بيانات بدون سلطة الحكومة ، فيما يتعلق بالأوبئة تحديداً .

« فهذا المجتمع أصابه الإهمال والتحقيرعلى مر العصور فى أسسه وأسانيده ، وأكثر من ثلاثين بالمائة من الأطفال لا يلتحقون بالمدارس . والأكثر خطورة على المدى الطويل أن الاستثمارات فى تلك الأماكن غير كافية . ويمكن أن نعتبر البلاد كجسم ضخم فى حالة إضراب عن الطعام وتجويع إجبارى يعالج بمحاليل فى المرحلة الأخيرة . والأكثر خطورة أن المحاليل التى تعطى له ما هى إلا محلول سكرى خال من المواد الأساسية ، فلم يعد تغذية البلاد بسلع خارجية . وأسوأ ما فى الموضوع ، هو رفع العقوبات بصورة شرسة . عندئذ ستتضح الصورة أن البلاد يحكمها مجموعة من الأشخاص لا تتجاوز العشرين فرداً » .

فندق القنال

يعتبر فندق القنال مقرا لعدة وكالات إنسانية تابعة للأمم المتحدة وكذلك لجنة فرض العقوبات (الأونيسكوم UNISCOM) . يبدو المبنى كأنه معزول عن محيط بغداد ، ومن غير الممكن الدخول إلى هذا المكان إلا بعد تسليم جواز السفر عند المدخل والتأكد من عدم وجود ميعاد مسبق . إريك فولت Eric Folt هو المتحدث الرسمى للوكالات التابعة للأمم المتحدة ، وتصادف وصوله مع باتلر Butler ، ويقوم بالتعليقات التى تبثها قناة CNN التى تدل على قرب حدوث أزمة . ولا يتوقع الفرد انفراج الأزمة أو سماع أخبار طيبة .

قابلت إريك فولت فى شهر سبتمبر فى مكاتب وكالات الأنباء العراقية (INA) بوزارة الإعلام . يتمتع بذاكرة قوية ، وهو شاب يمتلئ حيوية وقدرة كبيرة على العمل المتواصل ، ويتقن الإنجليزية والفرنسية ، ويستقبل الصحفيين ويجيب على أسئلتهم وينشر البيانات الرسمية ، ويشرح طبيعة عمله ووظيفته بأنها مهمة تنسيق بين الوكالات التابعة للأمم المتحدة مع الأخذ فى الاعتبار وضع لجنة الأونيسكوم جانبا ، فهى كيان أنشئ على أنقاض حرب الخليج ويهرب من أية سلطة حتى من سلطة السكرتير العام للأمم المتحدة . وتم اختيار الخبراء العاملين بهذه اللجنة بواسطة دولهم الأعضاء فى مجلس الأمن دون أية تبعية للأمم المتحدة . إريك فولت موظف تابع للأمم المتحدة ولا يهتم

إلا بالمنظمات التابعة للأمم المتحدة . ولذا نجد أن أغلب موظفى الأونيسكوم من رعايا الولايات المتحدة وبريطانيا تم تعيينهم مباشرة بمعرفة دولهم ويرتبطون بها مباشرة قبل ارتباطهم بالأمم المتحدة، وبعض العاملين فى لجنة الأونيسكوم يحتفظون بجوازات سفر بلادهم وليس لهم أى امتيازات من الأمم المتحدة أو جوازات دبلوماسية .

وفى عام ١٩٩٨ وصل الأمر إلى وضع سيئ ، فقد أدت الأزمة إلى اشتراك دول أخرى فى لجنة الأونيسكوم **UNISCOM** مثل الصين وفرنسا واليابان .. ورغم ذلك ، يسود الاعتقاد بأن ذلك كله بمثابة قنبلة زمنية أو لغم أرضى من الممكن أن ينفجر فى أية لحظة . ترتسم على الوجوه ملامح الجد والخطورة .

يجيب إريك فولت على جميع الأسئلة بدون تحفظ ، كما يقوم بإعداد مستندات وتقارير رسمية أولا بأول . تعاقبت المهمة الخاصة بتطبيق القرار رقم ٩٨٦ المسمى «النفط مقابل الغذاء» على ثلاث مراحل زمنية : المرحلة ١ و ٢ و ٣ حيث أعيد تقييمها والتفاوض بشأن وضع الاحتياجات التى تم حصرها موضع التنفيذ . تقوم تلك المراحل على ثلاثة مبادئ : الفعالية ، والعدالة ، والوفاء بالمتطلبات ومطابقة التوزيع بالنسبة للاحتياجات الإنسانية . يتسم إريك فولت بالوضوح والحزم ، فقد تحققت الأهداف الخاصة بالغذاء . أما بالنسبة لقطاع الدواء ، أو القطاع التكنولوچى ، فهما دائما عاجزان عن تلبية الاحتياجات .

يختار العراق العقود ، أما شركات البترول فهى صاحبة السلطة المطلقة . يتم تصدير البترول بسعر السوق، وتتولى شركات روسية تصريف البترول ثم يعاد بيعه إلى العالم أجمع ، وبذا فمن الممكن أن تدار السيارات الأمريكية ببترول عراقى . توجد ثلاثة منافذ لتصريف البترول العراقى : سيهان على الحدود التركية من خلال خط أنابيب ، وطرابيل بالطريق البرى ، وأم القصر بميناء البصرة بناقلات البترول . يتمتع الأردن بمزايا نتيجة التسهيلات التموينية التى يوفرها للعراق . تمر المواد المستوردة عبر أربعة منافذ : الحدود التركية والسورية والأردنية وميناء البصرة . ولا تعقد أية صفقات مالية داخل العراق ، فالأموال موضوعة تحت الحراسة فى إحدى الوكالات بنيويورك تحت إشراف لجنة العقوبات (الأونيسكوم) حيث تقوم بجميع الصفقات

وتحل محل الحكومة العراقية فى هذا الصدد ، وأية مواد تصل إلى البلاد ، مدفوع ثمنها مسبقا كما لا تتعرض العمليات لأية اختلاسات أو انحراف . كذلك ، فإن مراحل التوزيع يشرف عليها حوالى ١٥٠ مراقبًا موزعون على جميع المناطق فى الشمال والجنوب والوسط . فى الشمال يوجد مستودعان للغذاء تابعان للأمم المتحدة أحدهما فى الموصل والآخر فى كركوك . يعطى نظام التوزيع الأولوية « لسلة الطعام العراقى » ويساعد التنظيم العراقى على تسهيل تلك العملية ، حيث يتولى توزيع السلع بموجب بطاقات تموينية منذ عدة سنوات حسب الاحتياجات التى تم حصرها بدقة ولا يمكن تجاوزها أو إهمالها ؛ ولذلك فإن هذا التنظيم اكتسب قوة وفعالية ومن غير المفيد تجربة نظام آخر بديل .

تخضع المنطقة الشمالية لإدارة الوكالات التابعة للأمم المتحدة بالكامل حيث إن العمل معطل بتلك المنطقة بسبب نظام الحكم الذاتى للمنطقة الكردية وتقسيمها إلى مُعسكرين متنافسين ، ولكن الدولة تظل مسيطرة على عمليات الإحصاء الخاصة بالاحتياجات وعقود الشركات البترولية والمواد التى ترد من الخارج . ويدحض إريك فولت الادعاءات الخلصة بالتباطؤ البيروقراطى الداخلى بين مرحلة إحصاء وحصر الاحتياجات وعملية التوزيع ، ولكن المشكلة ترجع أساسا إلى آليات لجنة فرض العقوبات التى تطلب ١٥ موافقة من ١٥ دولة أعضاء قبل إجراء أية عملية . واتخذت إجراءات حازمة بأن أى عقد لا ينفذ خلال شهر يعتبر ملغيا . وتشرف الوكالات التابعة لمؤسسة لويدز Lioyds للتأمين على البضاعة التى ترد عبر الحدود والتأكد من مدى مطابقتها للطلبيات والفواتير وتعطى موافقتها OK قبل تسليم البضاعة للمحلات المركزية التابعة للدولة لتوزيعها ، وهو ما يتم بالتفاهم التام مع السلطات العراقية .

يصر المتحدث الرسمى للتنسيق على أن التعاون بين السلطات التابعة للأمم المتحدة والعراق تام وكامل فيما يتعلق بالقرار رقم ٩٨٦ ، ومن الممكن منحه الثقة . وهذه هى الحالة الثالثة للحظر بعد هايتى وكمبوديا وهى دول تخضع لحظر جزئى .

*فيلم عن ممارسات الأونيسكوم UNSCOM (لجنة فرض العقوبات)

اقترح مصطفى أن نشاهد شريط ڤيديو عن المهام والأعمال التى تقوم بها لجنة فرض العقوبات التابعة للأمم المتحدة UNSCOM فوافقت عن طيب خاطر . وقد صور العراقيون تلك الأعمال وقامت وزارة الإعلام بإنتاج شرائط ڤيديو تسجيلية .

الموصل – سبتمبر ١٩٩٧ بجامعة العلوم : ألقيت الكتب والقواميس من النافذة ودمِّر خزان ماء بالانفجار الداخلى . وتقوم لجنة تفتيش على الصواريخ بعملها : تفتيش حقيبة يد أستاذ بالجامعة لدى دخوله موقف السيارات ، وخُرِّب مكتب كلية الطب . ١٨ سبتمبر : تفتيش السيارات التى تدخل الحرم الجامعى ، تم تفتيش أدراج مكتب أحد موظفى الجامعة . أسطول كبير من سيارات الأمم المتحدة يتقدم فى طابور متلاصق .

مقر شرطة دخله رجال يرتدون قبعات رعاة البقر لتفتيشه بالكامل . نادى كرة قدم تم تمشيطه بدقة . احتجت النساء على تلك التصرفات . ١٩ سبتمبر ، الساعة العاشرة و ٥٩ دقيقة : طابور من سيارات الأمم المتحدة تحرسه طائرة هليكوبتر ، قام الطيار بحركات بهلوانية فوق الشارع غير مكترث باحترام قواعد الأمن . ولم تظهر طائرة فى تلك المنطقة منذ ثمانى سنوات . ١٤ سبتمبر الساعة الخامسة والثلث مساءً : تفتيش مكتبة ، ألقيت الكتب إلى الشارع عبر النافذة . قاموا بتفتيش مصنع للأدوات الصحية ولوازم الحمام من أحواض ومراحيض (WC) ومواسير .. قاموا بتكسيرها جميعا وإحراق كل شىء . انقضّت مجرفة كبيرة على ثلاجة فخربتها وقاموا بدفن فواصل مواسير المياه (الجوانات) فى حفرة وبعد فترة وجيزة قاموا بتفجير تلك الحفرة وما بها من محتويات ، ارتفعت ألسنة اللهب وتصاعد الدخان الأسود . دمروا كل شىء . وفى بغداد ، لم تعد توجد الجوانات وأكواع التوصيل لإصلاح مواسير المياه .

انفجر خزان ، إنه صهريج ماء ضخم . تصاعد دخان أسود كثيف . حفرة ألقيت فيها إطارات سيارات وركام من القطع المعدنية المهملة . حقل به أنقاض مبنى ودعامات أسمنتية ، قام الخبراء بتفتيشه .

مكتبة الجامعة ، وثائق ومستندات الأمم المتحدة عن السنوات من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣ ، مراجع وكتب مدرسية ألقيت كلها على الأرض . أكوام من الكتب على الأرض . القواميس ألقى بها فى الشارع من النافذة . حفرت حفرة وجمعوا بها كل شىء وبعد قليل تصاعد الدخان الكثيف . انفجار . سحابة صاخبة . احترقت الكتب بأكملها ثم تبعها مصنع للورق وأطباق الكرتون الخاصة بالبيض ، كراسات وعلب كرتون . مزقوا كل شىء . مصنع سقن أب ، فتشوا وتحققوا من السائل . من الغاز المستخدم . لازلنا بالموصل . عامل يرتدى قميصا أبيض فى مصنع ملابس للأطفال ، يعمل هذا المصنع منذ سبع سنوات . آلاف المفتشين ، مئات المرات تمت فيها عمليات التفتيش والتخريب والتدمير . كل هذا على نفقة العراق . سلمت تلك الأفلام إلى السكرتير العام للأمم المتحدة كوفى أنان . أعلن باتلر أنه ليس لديه وقت لمشاهدتها .

شهادة الشهود

من عادة المفتشين أن يصلوا إلى الأماكن فى حالة عدم وجود أى شخص ؛ ولذلك يفضلون أن يقوموا بتلك الأعمال فى يوم جمعة ، وهو يوم العطلة الدينية حيث يصلون ليلاً أو فى الفجر ولا يوجد سوى الحارس الذى لم يتلق أية تعليمات للسماح بفتح المبنى . وقد أثبتوا فى تقاريرهم « عدم وجود تعاون » . وبناء على مبادرة من وزارة الإعلام ، عقدت ندوة تضم الجامعيين بوصفهم شهوداً على لجان التفتيش . وأكد الجميع أن الجامعة تعاونت معهم بصورة فعالة ، شهد بذلك أعضاء قسم العلوم ، لكنها تحديات دون أساس ، واقتحام للأماكن فى الأوقات التى لم يكن فيها أساتذة أو مسئولون إداريون وطلاب أصابهم الإزعاج واستيلاء على مستندات دون تصريح بذلك . وقد أثار ذلك التصرف ردود فعل عنيفة لدى الطلاب . وفى جامعة الموصل ، شهد أحد الفراشين قائلاً : « لم يكن لدى أى أوامر بخصوص التفتيش . ذهبت إلى الجامعة ولم يكن هناك أى أوامر أو تعليمات . وقال لى زميلى "ادخل إلى الكلية والجامعة" . لقد اقتحم المفتشون الأماكن مما سبب توتر الطلبة وانفعالهم . وحاول البعض تجنب المواجهة وخاصة فى قاعة أجهزة المراقبة » .

وشهد أحد الجنود قائلاً : « لم يكن لدىَّ أى تصريح للسماح لهم بدخول الحرم الجامعى. اتصلت بقيادتى وببغداد . لم يوقف الطيار محرك الطائرة . طلبت مترجمين . أصروا على الاقتحام عنوة . فى كل مكان بالعالم تحترم الجامعة . إن هذا ليس سوى اغتصاب واعتداء على شرف الجامعة ... تجمع آلاف الطلاب ولا يدرون ماذا يفعلون .. توجهت أنا والطيار نحو المفتشين . أصبحوا عصبيين . أصروا وكرروا الأسئلة » .

وتحدث رئيس جامعة التكنولوجيا قائلاً : « كانت الزيارة مفاجئة يوم جمعة . بذلنا جهدنا للتعاون وتسهيل عملهم . كان الجو متوترا ، الأساتذة والطلاب والموظفون ... الجميع أبدى رد فعل انفعالى ... منذ فترة طويلة لم أسمع ولم أشاهد تصرفًا بهذا الشكل . كنا فى فترة الامتحانات . أغلقوا الأبواب وأقاموا نقاط تفتيش ومنعوا دخول السيارات إلى الكلية . ظلت الأبواب مغلقة من التاسعة حتى التاسعة والنصف ثم فتحوا قاعات الأساتذة وقاموا بتفتيشهم . لم يسمحوا بالتقاط أية صورة . ثم طلبوا فتح المكتبة . فى فبراير ١٩٩٧ أعدت جامعة المستنصرية برنامجا معلوماتيا لتسهيل التعاون . ولم تحترم فترات الإجازات . فى ٤ مارس طلبوا من إدارة المعلومات مستندات خاصة بنظام أجهزة المراقبة . تمت الزيارة يوم الجمعة وكنا قد طلبنا أن تكون يوم السبت لكنهم أصروا على الجمعة وظلوا طوال النهار يقومون بعملية التفتيش . حاولنا أن نفهِّمهم الأسباب الدينية لإجازة يوم الجمعة . لكنهم ظلوا تسع ساعات وهو سلوك لا يمكن تصوره .

– أين الدكتورة منى ؟

– غير موجودة .

– نريد التوجه إلى مكتبها .

وفى الساعة العاشرة أحضرنا الدكتورة منى . والتقطوا صورا وأخذوا مستندات. كما التقطوا صورا لطلاب . دخلوا بكاميرات تصوير دون الحصول على إذن . إنه التحدى بعينه . قاموا بتصوير مشاهد وأخذوا مستندات » .

وذكرت إحدى المعلمات قائلة : « أخذوا شهادتى العلمية وخطابات شخصية وأصدروا أمرا بأن هذه المستندات بمثابة دليل على برنامج لصنع الأسلحة الكيماوية . إنه التحدى . إنه اعتداء على حقوق الإنسان » شهادة شهود آخرين : « طلبوا حضور أستاذ معين " سافر الى السودان وليس هنا " . لكنهم عاملونى على أنى كاذب . أصبحت عصبيا .

كانوا يبحثون عن قنبلة ذرية فى المختبر . قاموا بقياس درجة النشاط الإشعاعى ، والتقطوا صورا ونزعوا وسائل الوقاية فى قسم الفيزياء . كان عددهم كبيراً . لم يجدوا شيئًا على الإطلاق .

توجه طلاب قسم العلوم النووية إلى الطابق الأرضى . لم يتمكنوا من اكتشاف نشاط إشعاعى ، لكنهم ادعوا أنه موجود .

قام أحد أفراد فريق التفتيش بحركة بهلوانية من النافذة وطلب منهم أن ينتظروا عندما يُفتح الباب . لم يجدوا شيئًا . كان الطلاب فى فترة امتحانات وكان يجب تجنب المواجهة بأى شكل من الأشكال » .

فى جامعة البصرة وجامعة نينوى وجامعة بغداد قامت لجان التفتيش باقتحام تلك الأماكن فى يوم عطلة وهو يوم جمعة ، ولم يكن لدى الحارس سلطة السماح لهم بالدخول بأية حال من الأحوال . تمكنوا من الدخول من النافذة إلى قاعة الأحياء الميكروسكوبية وأخذوا صورا . الأماكن كلها مغلقة ، فاليوم جمعة .

الفصل الثامن

الوجود الفرنسى الدبلوماسى والثقافى

« الأمريكيون أصدقاء لنا ، ولذا فإن العراق لن يغير شيئا من تلك العلاقة »

برنار جارانشيه

(مستشار السفارة الفرنسية ببغداد)

سفارة فرنسا

غيرت السفارة الفرنسية من سلوكها وآرائها تغييرًا تاما وارتدت ثوبًا جديدًا ، تجلى فى تجديد المبنى داخليا وخارجيا وأنشئت حديقة جميلة . يرفرف علم رومانيا مكان علم فرنسا . استقبلنى السيد برنار جارانشيه Bernard Garancher - القائم بالمهام الإنسانية والتعاون الرسمى مع العراق - استقبالاً طيبًا . فهو رجل ودود ومتحفظ ، يكمن فى داخله إيمان يظهره فى مهمته وفى البشر، ويعتقد فى وجود إله يختلف عما يؤمن به العراقيون، كما يشغل منصب رئيس قسم المصالح الفرنسية بالسفارة ويعرف كل شىء عن الكتاب الذى أقوم بتأليفه ، يعشق الفن الواقعى . وقد ذكر لى أن « الدبلوماسية الفرنسية ترتكز على ثلاثة محاور للتدخل : برنامج للتعاون الإنسانى ، دواء ، رعاية ، نقل واستقبال الحالات التى تستدعى علاجها فى فرنسا ولم يتوفر لها علاج بالعراق ، وبرنامج للتدريب عن طريق تبادل الاختصاصات وتحديثها ، والتعاون على المدى الطويل ، بعيدا عن الشكليات لإتاحة الفرصة للعراق لإعادة إنشاء البنيات التحتية بصورة متعمقة . كما تعمل فرنسا على التجديد والتلاحم ونشر الثقافة الفرنسية بإعادة افتتاح

المركز الثقافي الفرنسي والعمل على إعادة التكامل مع المجتمع الدولى . تقوم السياسة الأمريكية على خط واحد وبسيط وهو الرفض العنيد . ورفضت دول الاتحاد الأوروبى وبريطانيا عن طريق تدخل لجنة فرض العقوبات UNSCOM السماح لطالبة سويدية بإرسال مستندات فنية وعلمية ليس بها خطورة ، تميز صوته بالرقة والإقناع ويوحى بالثقة والشفقة . فى كل مرة يتم فحص الملف الخاص بالأسلحة المحظورة والمواقع الخطرة وإفراغه من محتواه ، حتى تتضح الصورة أمامهم بأن العراق لا يشكل أى تهديد منذ فترة طويلة . ولم يعد لديهم أية ذريعة لمواصلة تلك السياسة . ومع ذلك ، فالعراقيون لا يعملون شيئًا من أجل تهدئة العلاقات مع جيرانهم السعوديين والكويتيين الذين يتذرعون دائمًا بالصدمات التى أصابتهم .

وقابلت السيد : طارق عزيز مرات عديدة كلما استدعى الأمر ذلك . وحضرنا مزايدة وتصلبا فى المواقف العراقية . ولا يتخيل المرء أنهم يطردون الأونيسكوم UNISCOM فعلاقات التعاون طيبة وتامة فى جميع المجالات ، وقد يتخيل المرء قرارًا بغض النظر عن الاستبعاد والطرد وإعادة استثمار منطقة الأكراد العراقية التابعة لهم نظرًا لأهمية الأمم المتحدة فى إدارة هذا الإقليم . كما أن موضوع القصور الرئاسية عبارة عن تهريج ونكتة سّخيفة ، فهل يعقل أن يقوم صدام حسين بخلع أرضيات قصوره وإخفاء أسلحة الدمار الشامل تحتها ! كما أن الاتفاق الذى تم مع كوفى أنان يشكل عقداً بكل معنى الكلمة ، وتوقع الجميع هنا منه الكثير ، لكنه ظل حبراً على ورق ، وهذا هو السبب فى شعور العراقيين بالغيظ والغم ، لقد نفد الصبر ولم يعد هناك مجال للانتظار ، لقد مل الجميع من وعود لا تنفذ ومن اتفاقيات دون تأثير » .

ويصر برنار جارانشيه على أن « البلاد قد دمرت من الداخل ، وكل شىء تعرض للضرر البالغ ، وهناك شىء أخطر من تدمير البنية الأساسية ، ألا وهو تدمير العقول والنفوس . ويحتاج الأمر لعدة سنوات بعد رفع العقوبات حتى يمكن إصلاح هذا الخراب ومحو آثاره . أصبحت المحلات الآن بها بضائع كثيرة والتموين يغطى الاحتياجات وصار العراق بمقدوره أن يدبر نفسه بنفسه دون الحاجة لتدخل خارجى أو وصاية من جانب أحد . وهذا ما يزيد شعور الناس بالمرارة» ، وبالنسبة للنظام الاقتصادى فقد وصف قضايا الضرائب بأنها «مشوشة وتتسم بالفوضى ووسيلة للدولة

للحصول على الأموال . ولم يعد العلاج المجانى بالمستشفيات العامة موجودا بل لابد من دفع الكشف وثمن الأدوية . وزادت أسعار العيادات والمستشفيات الخاصة زيادة كبيرة لأنها تدفع أكثر من ٨٠٪ من العائد فواتير الكهرباء غير المسددة ، وبالنسبة للكهرباء ، فحالتها تدعو للقلق وتنذر بالخطر . وإجمالا ، فإن البلاد قادرة على التحمل والثبات وهو ما يدعو للدهشة بل ويثير الإعجاب . ولا يفيد أن تبدو البطون ممتلئة وكبيرة والكل يعرف تلك الصورة التى إن دلت على شىء فإنما تدل على حالة التشبع ، لابد من رؤية شىء آخر وإظهاره . إذ إن العراقيين يعتمدون على ثلاثة أشكال للتدخل : الدبلوماسية ، والاتفاقيات و " الدعاية " بالمعنى السليم لهذه الكلمة كما تنادى به جمعية حفظ التوازن » .

وتعرب فرنسا عن أملها فى إعادة العلاقات الدبلوماسية بينها وبين العراق، ولو أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا فى الوقت الحالى . وتعتبر سفارة فرنسا هى الوحيدة التى تعطى تأشيرات دخول من بغداد وتمارس كافة الأنشطة حاليا .

وسوف ألتقى وبرنار جارانشيه مرارا وتكرارا فهو يستقبلنى بسرور ويدعنى أتصفح تقرير الدكتور ميشيل چولى الذى أرسله إلى وزارة الخارجية الفرنسية بعد أن أمضى ثلاثة أسابيع فى العراق للحكم على الآثار النفسية والاجتماعية والصدمات التى نجمت عن الحرب والحصار . وكان ميشيل چولى قد انهمك أثناء مهمته الأولى العام الماضى لحساب الأمم المتحدة ، وقد تفتحت أمامه أبواب كثيرة فى الوزارة بمساعدة نصرة السعدون ، وأيضا برنار جارانشيه فى السفارة ، وقد حرص على معالجة الآثار الضارة التى نجمت عن الحرب بالنسبة للأطفال . عمل لفترة طويلة فى فلسطين ولبنان وبلدان أخرى خربتها الحروب ، فهل من الممكن أن يلقى رأيه صدى لدى الحكومة الفرنسية وتقرر دعم جهود التعاون الطبى والعلمى اللازمة للعراق ؟ يتسم ميشيل چولى بالصراحة بعد تجربته مع وكالة الإغاثة والتشغيل **UNRWA** التابعة لهيئة الأمم المتحدة حيث لم يجد أى آثار تدل على الانحراف فى نظام توزيع المعونة الإنسانية ، بل على العكس تمامًا : تنظيم دقيق ومحكم وفعال . كان الدكتور ميشيل چولى قانعا بأن يكون طبيبا عسكريا وكان موضع احترام الجميع ويبذل اهتماما كبيرا لأى إجراء يؤدى إلى الاستقلال والحكم الذاتى . وتعرفت عليه قبل عام بفضل هذا الكتاب حيث

كان يستعد للسفر إلى بغداد . وبعيداً عن أية مطبوعات كان الكتاب يحتوى على معلومات قيمة . كما قدم لى چيانى دى Giani D . موظف الأمم المتحدة فى بغداد لحساب الوكالة الإنسانية حيث عمل فيها لمدة عام لحصر الاحتياجات اللازمة من معدات وأجهزة وطواحين وحبوب ووسائل تكنولوچية ، وقد أنهك نفسه ، حيث يجوب الشوارع كل يوم والأقاليم والمواقع والصيدليات والمصالح الحكومية وذلك قبل إعداد تقريره الأسبوعى الذى يُرسل مع زملائه إلى نيويورك مع مستندات ضخمة . وقد وصلت زوجته إليزابيث إلى البلاد بطريقة غير مباشرة مع جمعية التوازن . انتقلت أعمال جمعية التوازن من كردستان إلى بغداد عندما تولت وكالات الأمم المتحدة إدارة المعونة الإنسانية هناك . يرأس ألان ميشيل جمعية التوازن وقد تأثر تأثراً عميقاً لحجم الكارثة الإنسانية فى العراق ونادى بحملة تنوير وإلقاء الأضواء على ما يحدث فى تلك البلاد ، بل أيضاً رفع دعوى قضائية « للجريمة التى ترتكب ضد الإنسانية للتحريض على تفشى المجاعة » . تصل القوافل إلى البلاد بعد إجراءات مطولة من المفاوضات وفك الحصار عن المساعدات المالية المخصصة للمركز الثقافى الفرنسى واليونيسيف UNICEF (صندوق رعاية الطفولة التابع لهيئة الأمم المتحدة) والمنح والتبرعات . وقد انهار تمويل الجمعية بسبب عدم انتظام دفع أموال للمعونة الإنسانية ، وتحملت السفارة الفرنسية ديون الجمعية لدى اليونيسيف خصماً من الأموال المخصصة لبرنامج التعاون الفنى والطبى مع العراق .

المركز الثقافى الفرنسى

أعيد افتتاح المركز الثقافى الفرنسى بشارع أبى نواس على شاطئ نهر دجلة ، واستأنف نشاطه رسميا قبل عام عندما تم تعيين جيرار مارتينيز رئيساً له ، حيث أحيا المركز بإصراره وحماسته ، ونظم مهرجانات للفيلم الفرنسى فى الموصل ومحاضرين فرنسيين فى الموصل والبصرة ، كما أقام معارض للفنانين العراقيين داخل المركز ولوحات لفنانين فرنسيين فى متحف الفن المعاصر ببغداد . وامتد النشاط إلى الجامعات العراقية حيث قام المركز بتنظيم دورات تدريبية إلى فرنسا لطلاب عراقيين ، وكذلك إرسال طلاب فرنسيين ومحاضرين ومدرسين إلى العراق . أمضى جيرار ست

سنوات فى عمَّان بالأردن ولذا فهو يعرف المنطقة جيداً ولكن حرب الخليج قد مزقت كل شيء . ويحاول الآن إصلاح الخراب الذى أصاب الناحية الثقافية . تتولى زوجته مارى إعداد الكتالوجات والمشاريع الثقافية والعلاقات مع الوزارة والمناطق والإعانات ، والتمهيد للمشروعات وتنفيذها . تركت مارى بيتها المطل على المحيط الأطلنطى الذى يعتبر بمثابة متحف يضم معروضات ثمينة وحضرت بصحبة أولادها الثلاثة غير آبهة بتعريضهم للقصف الأمريكى المقبل ، وللتوترات السياسية ، وانتقام الدولة مما لحق بها ولمآسى الحياة فى بغداد . لقد خاطروا فعلا بأنفسهم ولم يتصوروا أن يعيشوا بعيدا عن الوالدين لمدة عام آخر ، وتحمل الأطفال عواقب القدر . وفى خلال العام أدت الأحداث والتوترات إلى فتور حماستهم .

تعتبر تقوية الروابط الثقافية مع العراق بمثابة ضمانة لإمكانية الخروج من النفق المظلم الذى دخلت فيه البلاد ، شأنها فى ذلك شأن العلاقات الدبلوماسية إن لم يكن أكثر ، كما أنها تساعد على دعم المصالح الفرنسية ، وهو عمل ليس بالسهل إطلاقا كمن يحاول نقل جبل من مكانه وإزالة تلال من عدم الاكتراث والخزى ومواجهة التحدى . وبالإرادة الطيبة والنوايا الحسنة يمكن تحقيق المستحيل وتخطى العقبات وعن طريق الفنانين والمثقفين والتحالف بين وزارتى الثقافة العراقية والخارجية الفرنسية . وقد عبرت مارى بول جارسو الملحق اللغوى بالمركز الثقافى الفرنسى والمسئولة عن العلاقات مع الجامعات عن رأيها قائلة : « إن الوسام الذى يستحقه العراق هو تمكنه من خلق "مواطن عراقى" ، بينما فى جهات أخرى لا يتحدثون إلا عن العائلة أو القبيلة ويسألونك ما اسمك ومن أى عائلة أنت وما هو دينك » . وتتحدث بثقة لأنها تعرف ذلك تماماً حيث إنها قضت عشر سنوات فى فلسطين وخمسة وعشرين عاما فى لبنان . «إن الوضع جد خطير ، فالمثقفون والجامعيون مضطرون لبيع كتبهم ومكتباتهم من أجل لقمة العيش . وإنه لوضع فى غاية الخطورة أن تحرم الناس من الغذاء الفكرى . لقد دخلت بلاد ما بين النهرين إلى طى النسيان ، وحاليا ، يكسب الشحاذ فى اليوم الواحد أضعاف ما يحصل عليه أستاذ الجامعة . إذًا ما الدوافع التى تدفع الشباب إلى مواصلة تعليمهم ودروسهم ؟ » .

الفصل التاسع

الفن والفنانون

منذ بدء الحصار اتخذ الفنانون العراقيون خطا وحركة اتسمت بالأصالة والتخصص بعيداً عن أى تأثير خارجي . وكرد فعل لانحدارهم إلى نقطة الصفر ، ارتفع مستواهم بصورة تشبه التفجر الداخلى .

جميل حمودى

رسام ، ١٩٩٢

« بعِيت العراق »

افتتحت آمال منزل الآثار الواقع على شاطئ نهر دجلة فى منزل الأسرة ، حيث تم إصلاحه من جراء قصف كوبرى الجمهورية الملاصق له الذى تهدم عام ١٩٩١ . تعرض فيه أشياء فنية قيمة تتميز بالذوق الرفيع والقيمة المادية . يساعد المكان الفسيح على إظهار قيمة تلك المعروضات وجمالها ، بنيت جدران هذا المنزل العتيق بالحجر الأبيض ، وهو مكون من حجرات تفتح على فناء داخلى يزخر بالنباتات الخضراء والشجيرات ونوافير الماء التى تعطى جوا منعشاً وتضفى على المكان الهدوء التام . أما الصالات فتحتوى جميعها على فكرة رئيسية تتمثل فى فن الزخرفة ومقتنيات يدوية ولوحات من الزجاج الملون وزخارف من الزجاج المعشق ومناضد خشبية ومقاعد أثرية وملابس من العصور القديمة وأخرى حديثة ذات تفصيلات راقية ، واكتشفت سجادة صغيرة مطرزة بألوان زاهية على أرضية سوداء تعطى انطباعاً بأنها من القرى الكردية ، وفى تلك الزيارة تعرفت على إلهام التى تتولى إصلاح وترميم المجوهرات القديمة ،

وهي امرأة ناضجة تخطت سن الشباب غير متزوجة وعلى المعاش ، تعمل في تلك الحرفة لإظهار جودة المجوهرات القديمة وحقيقتها ، كما تعمل في الصليب الأحمر السويسري مترجمة لرفع دخلها ؛ لأن راتبها من المعاش هزيل . تعرفني آمال حق المعرفة وأزورها في منزلها منذ افتتحت هذا المكان . أما إلهام فقد وقعت في حيرة وتساءلت عما إذا كنت سائحة أو موظفة بالأمم المتحدة أو بالسفارة . لكني عرفتها بنفسي وأطلعتها على الكتاب الذي أقوم بتأليفه . لكنها ظلت صامتة . وأخيرا نطقت وقالت : « توقفت الحياة هنا في عام ١٩٩٠ ، ومنذ تلك اللحظة لم نعد بشرا ، بل منبوذين ومحتقرين ، لا وجود لنا ولا أمل ولا مستقبل . الحياة هنا موت بطيء ... لم يعد للعراقيين حقوق المواطنة أو الوجود على خريطة العالم » . توجه شقيقها إلى الأردن وطلب تأشيرة خروج لكي يلحق بأسرته في الخارج . استدعته السلطات الأردنية وأجرت تحقيقًا معه : من أين جئت بالمال اللازم لسفرك ؟ استمر التحقيق معه عدة ساعات ولعدة أيام . «إذًا ليس لنا الحق في أن نسافر؟ .. في أن نعيش؟ .. في أن يتوفر لدينا أجهزة منزلية وسيارة ؟ .. نحن موضع شبهة واتهام في كل مكان ... صدام حسين دخل الكويت . لم نتخذ نحن القرار . ولماذا نحن أيضا ندفع الثمن » ؟

« أكثر من عشر سنوات ..... » توقفت الكلمات في حلقها . ثم استأنفت قائلة : « ماذا جرى في البوسنة ، وفي الجزائر ، وفي إفريقيا ؟ كانوا يتقاتلون أيضا هناك . فهل تدخل المجتمع الدولي هناك ؟ لماذا لم يتركونا نعيش ؟ لماذا لا يعطوننا حق العيش في سلام » ؟

عاد نشاط اليونسكو مرة أخرى إلى بغداد وافتتح مبنى له في مواجهة المبنى الخاص ببرنامج الغذاء التابع للأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة FAO التابعة للأمم المتحدة . قابلت الدكتور دونار Donnard الذي ذكر لي أن لجنة فرض العقوبات باقية لفترة أخرى .لا يمكن تصور الآثار الضارة الناجمة عن لجنة فرض العقوبات وعن الحظر المفروض . ولكننا نذكر أنه مثلما حدث في بولندا وفي اليابان وفي ألمانيا ، في تلك البلاد التي مزقتها الحروب ، استطاعت بفضل القدرة البشرية إنقاذ نفسها وإعادة بعثها للحياة مرة أخرى .

• صالة عرض دجلة

التقيت زينب مهدي مصادفة في المركز الثقافي الفرنسي ، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي لزيارتها في صالة العرض التي افتتحتها مؤخرا بشارع أبي نواس بالقرب من المركز الثقافي ، لكني وعدتها بزيارة ، فهي تستقبل الفرنسيين بروح طيبة وتتحدث الفرنسية بطلاقة . زينب امرأة متحفظة ومهذبة ، يعلو وجهها مسحة من الكآبة . قامت بتجديد منزل الأسرة المطل على نهر دجلة حيث أطلقت هذا الاسم على صالة العرض التي تحيط بها مطاعم « المسجوف » . حولت منزل أجدادها إلى صالات عرض حيث الغرف متسعة ومضيئة . تعلمت زينب اللغة الفرنسية بجامعة بغداد وأتقنتها بمصاحبتها لجارة فرنسية أصبحت صديقتها . تستخدم تلك اللغة بسحر وبهجة . كما أنها تعشق الفن ، فهي فنانة تشكيلية ويتنوع رسمها بالألوان المائية من مشاهد تقليدية إلى الرسم التجريدي باستخدام اللون والشكل والتكوين . تقضي جزءا كبيراً من وقتها في إدارة صالة العرض، ومن طاقتها في ابتكار الأعمال الفنية . تقوم بتربية أطفالها بمفردها ربما بسبب طلاق ؟ لم تتحدث عن ذلك الموضوع بعد ، فهي تتميز بالحياء والفطنة والرقة . اعترفت لي فيما بعد ، عندما اكتسبت ثقتي ، بالمأساة التي تعيشها ؛ لقد وضع الطلاق الذي تم مؤخراً نهاية لثمانية عشر عامًا من الكابوس المزعج . بقي الابن الأكبر مع أبيه ويأتي لزيارة أمه يوميا في سيارة فارهة . أما البنات الثلاث فبقين في كنف أمهن يغمرنها بالحنان ويتمتعن أيضا بنفس جمال الأم ورقتها واجتهادها وتحفظها . المنزل المطل على شاطئ نهر دجلة بحي الجادرية عبارة عن ملجأ أمين ومتحف صغير يحيط به بستان يضم أشجار البرتقال والنخيل والليمون وفواكه أخرى ، وهو عبارة عن جنة خربتها القنابل . ففي شهر ديسمبر عاشت فترة الرعب والفزع حيث الصواريخ تشق عنان السماء وتهز الحي بأكمله ، الذي أصبح هدفا للقصف لأن قصور عدي ابن الرئيس ونادي عُدَي ومراكز الخدمات السرية موجودة في هذا الحي واعتبرت أهدافًا عسكرية تم تركيز القصف عليها . ظلت الأم وبناتها جاثمات تحت بئر السلم عدة ليال ترتعد فرائصهن من شدة الرعب . لم تعد جفون زينب ترى النوم .

وهى بوصفها امرأة فنانة وتدير صالة عرض الأعمال الفنية ، تجد نفسها عرضة للإغراء والحسد والتحرش الجنسي من جانب الرجال : مما جعل حياتها تتسم بالتعقيد . يتميز اختيارها بالذوق الجميل والموهبة الفنية وتدفق الألوان وصالات العرض المتعلقة بفكرة رئيسية إضافة الى أعمال النحت أيضاً والطباعة على الحجر والألوان المائية الأكثر تقليدية في نثر السلم والفن العراقي المعصر والتقليدى ، إنه فعلا بمثابة متحف صغير حقيقي في إطار رائع . ووعدت بإهدائى كتاباً يفيدنى في عملى الذى أقوم به فى التأليف : « المجتمع العراقي كما يراه المجددون » ، وهو مؤلف يفيدني كثيراً في معرفة نفسية العراقيين وعقليتهم . وعند العودة سلمتنى بعض الرسائل لتوصيلها لأصدقاء فى فرنسا وللأسرة أيضا ، فقد باعدت الحرب بين البشر .

الموسيقار نصير الشمة

أتاح لى شهر أغسطس هذا وأنا في بغداد أن أستمع لتسجيل للحفل الموسيقى الذى أقيم مؤخرا لنصير الشمة في بوسطن حيث دعانى شقيقه على مدير أعماله بمنزله فى حى الكرّادة لأن نصير الشمة أقام بالخارج بصفة نهائية . وفى تونس يقوم بتعليم فنه ويواصل الغناء للعراق ومواطن الجمال وأيضا المآسى التى حلت به . طاف حول العالم ، فزار لندن وباريس والولايات المتحدة وألمانيا وبلجيكا وهولندا ومصر والأردن ... وكفنان يحمل دائمًا العود معه ويتغنى بليالي بغداد ، ومأساة الأطفال العراقيين وتغريد الطيور ومواطن الجمال والإبداعات التي تحققت على أيدى العظماء القدامي في بلده ، يتميز برشاقة الحركة وعذوبة الصوت وتآلف الأنغام والسعى وراء التجديد والابتكار ، والتحليق في عالم الأنغام السامية ، كل هذا فى جو من التنهد العميق والتوتر الخلاب ، كما أن موسيقاه تشع رقة وجاذبية وتتميز بالتقليدية لكنها ذات طابع عصرى . ينشد الكمال في النوتة الموسيقية التي تتسم بالصفاء وكأنما يفوح منها عبير الياسمين .

ينساب الإيقاع القوى ويعمل على تجميع النغمات فى مقاطع موسيقية جميلة فى الوقت الذى تتحرك فيه أنامله على أوتار العود . يؤدى نصير مأساة العراق فى

موسيقاه وألحانه ، وكم من مآس يعبر عنها في موسيقاه ، فيضطرب الوقار ويتشتت الإيقاع ، إلا أن المأساة لا توقف الحياة ، بل يتمسك بها وبصورة أقوى .

ليالي بغداد زاخرة بحرها الشديد وتاريخها المجيد وبمأساة تنقض على المدينة فتصور النوتة الموسيقية الليل غير الآمن بنغمات تتناقض في ارتفاع الصوت وحدته ، فهل تنتظر بغداد كل ليلة طوفان النار ؟

موسيقى صاخبة مليئة بالمأساة . اختفاء الأطفال من الحياة ترك ذكريات لا تمحى كلها عار.

ينساب نهر دجلة في دوامات داخل شجيرات البوص التي تنمو على حافة النهر حيث يستحم فيها الأطفال . ينساب الماء والليل على مضض . تفتتح الطيور صياحها الغريب ، من أي جيتار تخرج تلك الأصوات برشاقة وبقدرة على الإقناع . ومع الفنان تهرب الطيور من دروبها التقليدية عندما يعزف موسيقى أصوات الطيور فتحدث صدى كشلال هادر تماما كما يغني أطفال المخبأ في جوف الليل . وفي ليال كثيرة ، انقضت الحرب وتمزقت سماء بغداد ، مجموعات متلاحقة من القنابل تملأ السماء يظل الكبار في مأمن داخل المخبأ ولا يبالون بأصوات القنابل. تتغير النغمة إلى لحن كئيب ومبهج ، وفجأة يخيم الصمت الرهيب ويتوقف كل شيء . تنطلق صافرة الإنذار . تندفع الألحان لتعبر عن المأساة والفزع دون النطق بأية كلمة . تهدأ موجة الفزع لترتفع موجات من الغضب الذي ينتشر في صورة ألحان تعبر عن الإصرار على الحياة ، ورفض المأساة التي يعيشها الشعب العراقي ، والتمسك بحقوقه . إنها لمسة وفاء جميلة وصافية إلى أطفال المخبأ الشهداء .

محمد غني ، نحات

يشعر المرء بالافتتان لدى زيارته مرسم محمد غني حيث تُفتح أبواب الحلم والجمال ، فيسعده أن يدعو إليه أصدقاءه ولكن بموعد سابق : لأن أعباء العمل تأخذ كل وقته . فالمرسم أو ورشة العمل مليئة بنماذج صغيرة من أعمال النحت وتماثيل صغيرة من الجبس تعكس الأفكار الرئيسية عن الجنس اللطيف والماء والأمومة ، حتى

تصبح بمثابة قصيدة تتجدد وتمتزج بينابيعها الحية إلي ما لانهاية تنهل من الحياة العادية ومن الجذور الثقافية للعراق . تتفوق ابتكاراته الحديثة وتسمو على الأشكال التي يميل إليها ليتجه نحو الفن التصويري لأشكال مميزة ، بل أيضا تكوينات لأجسام وتماثيل صغيرة تضم نساء حول طفل ومجموعة من القوارب كرمز لأهمية النهر وأيضا نافورة ينساب منها الماء ، ويستأنف تصوير العباءة التي تغطي جسم المرأة وغموضها وحياءها في بلد يعاني من الحصار .

فالمرسم في حد ذاته عبارة عن تحفة فنية تبهر الأبصار وتشيع البهجة وتفرض علي الزائر أن يقدر المكان ويحترمه .

أدخل محمد غني في الأشكال المستديرة صدعا وثقبا كاستعارة للمأساة التي تمزق العراق ، حيث يحفر شكلا مميزا ومجسما لأم تعانق طفلها ، وفماً يصرخ بنداء صامت ومجموعة من القوارب تأخذ شكل العباءة .. هذا الفراغ الذي يقدمه محمد غني ما هو إلا استعارة لمأساة العراق . كما أن طريق الصليب الذي ابتكره الفنان أثناء الحرب لكنيسة أرمنية في بغداد الجديدة ، وهو مسلم ، ترمز إلي العراق الشهيد الذي دمرته القنابل والصواريخ ، وبعد ثماني سنوات من الحرب تتجسد المأساة في الأجسام في صورة معاناة حيث يسمو الفنان بفنه وإلهامه .

انتهي الفنان من إعداد التمثال الكبير ، وهو عبارة عن هيكل عظمي داخل قضبان سجن .

يتميز كل عمل فني يقوم به محمد غني بأنه يختلف عن غيره ، ويكرر مصادر إلهامه مع التجديد باستمرار . فمن طريق الإلهام يريد أن يحفر فكرة ويغذيها ويطورها وينقيها ويضخمها ، ومن هنا جاء التكرار الحي للفكرة والشكل والموضوع . فمثلا مقبض الباب .. أشياء من الحياة اليومية يخلق منها أعمالا فنية ، لكن الغريب أنه لا يوجد بالعراق قانون يحمي الإنتاج الأدبي أو الفني . فكم من أعمال من إنتاج محمد غني سرقت ونسبت لأفراد آخرين .

عندما خرج محمد غني من الأستوديو الذي يعمل به ، تسمر في مكانه في منتصف الشارع . « أثناء الحرب ، كنت أعمل هنا داخل الأستوديو ولم أغادره .

كانت القنابل تهز المكان بأكمله وتحطمت جميع النوافذ الزجاجية . وذات يوم عندما خرجت إلى الشارع ، رأيت صاروخا يسير بمحاذاة الشارع وفوقه تماماً ، وتتبعت مساره بعيني بطول الشارع ولا أدرى أين انفجر . اهتز الحي بأكمله . والآن مرت ثماني سنوات ولا أستطيع أن أنسى هذا المنظر . وكل يوم أخرج فيه ، أرى الصاروخ من جديد .

الوضع لا يبشر بالأمل ، بل ننتظر ما هو أسوأ مما نحن فيه الآن قصف جديد في الخريف أو ربما قبل ذلك . يتحدثون عن تجربة أسلحة أمريكية جديدة علينا ، قنابل جرثومية ، أسلحة كيماوية . الجميع يعاني من عدة أمراض نتيجة حرب الخليج . الضيق النفسي وعدم فاعلية التقهقر والانسحاب أوجدا أعراضا لسلسلة من الأمراض ، ووزع العلاج المدعم لكنه لم يوقف انتشار تلك الأمراض» .

التوجه إلى منزل ليث فتح الترك النحات

توجهت إلى منزل ليث النحات والخزاف لتوصيل رسالة له وطرد صغير من هولندا حيث تعيش إحدى شقيقاته مثل باقي الفنانين ، إنها عائلة كبيرة من الفنانين والفنانات ورثوا الفن أبا عن جد . وينحصر زواجهم من داخل الأسرة وأصبحت أسماؤهم مشهورة في العالم أجمع . جاء ليث يبحث عني بمنزل المنصور ويأخذني معه إلى منزله في الدرة على الجانب الآخر من نهر دجلة جنوب المدينة . وبمجرد دخولي إلى منزله ، وجدت نفسي محاطة بجو نسائي : زوجته إلهام ذات الوجه الوقور وعلى ما يبدو أن هناك مأساة في حياتها ، خمس بنات تتميزن بالطبع الحاد تتراوح أعمارهن بين ثماني سنوات وعشرين سنة ، وجوههن باسمة وعيونهن زرقاء تميل إلى الاخضرار . كانت الجدة موجودة لبضعة أيام لدى ابنتها وأحفادها وتقيم في حي المنصور بعيداً عن منزلها ، وهي من أصل سوري وصلت الموصل وقابلت زوجها هناك ثم استقروا في بغداد أربعين عاماً ، ومنذ أن تزوجت لم تعد إلى موطنها . كان البلدان مثل الإخوة الأعداء . أنجبت أطفالا . . ثلاث بنات إحداهن لم تتزوج وعاشت مع أمها في المنصور والثانية حتى وقوع المأساة « لم أعد أعرف الابتسامة منذ المأساة ، ولا أتذوق طعم السعادة

أو الضحك . لن أضحك أبداً ما حييت » . ارتسم الحزن الذي لا حدود له على الوجه . إنها شكوى تُسمع بصعوبة ولا يتلقاها أحد . « فقدت سبعة من أحفادي في مخبأ العامرية . . . . » . إنها امرأة عجوز لكن وجهها وجه فتاة صغيرة ، بشرة صافية بيضاء مثل الوردة المتفتحة ، وجه أملس ناعم . إنها شبح امرأة . إن مأساة المخبأ تهز كيانها دون أن تنطق بكلمة واحدة لكنها تستسلم لغرور الغضب .

ومع ذلك فالبنات يلعبن ويضحكن وأخذن يوجهن الأسئلة لي لاستجوابي : « لماذا أتيت إلى بغداد ؟ إننا جميعًا نريد أن نرحل ، لم يعد لنا مستقبل هنا ، نحن في سجن كبير داخل بلدنا . أتمنى الذهاب إلى فرنسا لأنهي دراساتي . . . كيف يعيش الناس في فرنسا ؟ احكي لي عن باريس . . . أريد أن أعرف كل شيء ، إنه حلم بالنسبة لنا ، فرنسا ، باريس . . . إننا نحب والدنا حبا جما . . وأعز صديق لنا . . وأمنا هي روح هذا المنزل ، دعامتنا وسندنا . . صديقتنا »

يعلو وجه الأم حزن وكآبة ، فهي لا تبتسم أبداً وتشعر بتعب شديد . استقالت الأم من عملها كمدرسة لتتفرغ لتربية بناتها ، فهي الرابطة بينهن تبثهن الحب والحنان مما يهيئ لهن الحياة والضحك والسعادة . فالبنات لم تعرفن مباشرة الحرب وأهوالها خاصة الصغار منهن . أما الكبرى ، فقد بذلت قصارى جهدها في التعليم إلى أن حصلت على ٩٦٪ وهي فخورة بأن تكون من الأوائل ، وفي الصيف تحضر كورسات لغة إنجليزية بالجامعة ، فلا توجد إجازات بالنسبة لها ، أما الثالثة فهي مغرمة بالرياضيات والعلوم .

يبتهج ليث ببناته الخمس اللاتي يملأن حياته بهجة وسرورا ، وتبدو الطيبة على وجهه ، أما شقيقه إسماعيل فلديه خمسة أولاد . توجهنا جميعا إلى المطبخ لمشاركة الأم في إعداد الطعام . قدم لي ليث هدية من الخزف من تكوينه وسوف أشتري له تمثالا من البرونز . بدأ يستعيد نشاطه الفني بعد فترة توقف طويلة من جراء الحرب وأهوالها .

• سعدى الكعبي ، رسام

هو رجل أشيب ومتحفظ ، كريم الطباع ، خجول ، يكرس جهده لعمله الفني من أجل بلده .

يستمد إلهامه من نداء الصحراء ومن فن الخط العربي ، يضع صورا ظلية على لوحته وأشكالا وهياكل مفككة ومخففة تدريجيا ثم يمزجها معا حيث يرسم خطوطا متسعة، محددة لابتكار قوى البنية . يتم تجميع العمل الفني وبسطه ثم ينتهي إلى زوال حيث يتجاوب مرة أخرى ويبرز في استمرارية الفكرة الرئيسية التي يريد التعبير عنها مع التعمق الدقيق للأشكال واستخدام الألوان بدرجات مختلفة تميل إلى لون الأرض فيستخدم اللون الرمادي والأسمر . ومن هنا تأتي لوحاته وقد غمرتها ألوان الصحراء ، كما أن الصور الظلية تبدو كسراب لا يمكن إدراكه لكنه ملموس . يستخدم أيضا ألوان الجواش المائية عندما يريد إبراز الصحراء بأرضها ورمالها .

في كل رحلة أقوم بها إلى العراق كان يدعوني لزيارته ولقائه في المعرض أو كافيتريا قاسم السبتي لأمتع نفسي بالذوق الجميل والإفراط في الدقة والوفرة في أعماله الفنية . ورغم قسوة الظروف التي تمر بها العراق ، فإن الكرم من أوجب الواجبات رغم ما يبذله من تضحية مادية فوق طاقته ورغم الفقر الذي يمر به . ويعيش هو وزوجته في مأساة كبيرة ، فابنه الصغير يعاني من مرض غامض من الصعب تشخيصه أو علاجه وهو على شفا الموت ، وقد وعدت أمه بأنه في حالة شفاء ابنها فسوف ترتدي الحجاب الإسلامي شكرًا لله على نجاته .

تتميز أعمال سعدى الكعبي بالجاذبية والافتتان . واقترحت على الفنان أن يصور أعماله في شريط فيديو ، لكنه تردد إلا أنني رجوته وقام المركز الثقافي الفرنسي بإحضار الكاميرا وصور كل أعماله الفنية والوثائق والمستندات والميداليات التي حصل عليها ، وقام بشرح كل أعماله باللغة العربية وتولت ثريا الترجمة ، وأعطيته نسخة . فهل تعرض تلك الأعمال يوما ما في فرنسا ؟

الفصل العاشر

هل توجد قيم روحية بالعراق ؟

بين التعصب الديني والكفر ، اخترنا طريق الإيمان .

صدام حسين

(على لسان الأب يوسف حبّي)

صور صدام

يفاجأ الأجنبي الذى يزور العراق لأول مرة بالعدد الهائل لصور صدام حسين واللوحات المعلقة على الجدران في كل مكان التي تمجد الثورة أو الحرب العراقية الإيرانية ، بل إن الفن قد تم تطويعه وانساق مع التيار في هذا الاتجاه ، تتكاثر صور صدام وتغمر البلاد والمدن على هيئة تماثيل من البرونز والرخام والجبس أو المصيص أو صور زيتية أو أبيض وأسود أو ملصقات أو لوحات إعلانية أو ميداليات داخلها صور صدام ، وفي المنازل والمكاتب والمحلات والقاعات والأتوبيسات أو سيارات الأجرة كلها تحمل صوره ، أو سلاسل المفاتيح أو ساعات الحائط . كما يُرى في الصور وذراعاه ممدودتان لأعلى كحامي حمى المدينة وعند مدخل كل شارع وفي وسط الميادين يرتدي الكوفية والعقال أو راكعًا فوق سجادة صلاة أو واقفًا على رأس سرير طفل والقرآن بيده أو يقوم بزيارة الأرض وبيده آلة تصوير ، وبالملابس المدنية أو بالزي العسكري أو بالجلباب، أو يبدو كرجل سمح مرتاح البال جادا ومبتسما كما لو كان أب لكل العراقيين . إن عبادة شخصية صدام عمل وطني ولا يجرؤ أي فنان على ممارسة عمله بدون دفع

إتاوة إما على هيئة صورة أو تمثال أو عمل فني يتم إهداؤه له بناء على طلبه أو بصورة تلقائية من الفنان . وهناك ضرورات الحياة المتمثلة في الحصول على الطعام ، ومن الصعب على الفنان أن يدبرها من عمله الفني فقط ، وتبدو تلك الظاهرة متواضعة بمقارنتها بما يحدث في بلد مجاور للعراق . ففي سوريا مثلا تستخدم صورة الرئيس الأسد في تهدئة السرعة حيث تغطي الطرقات والبنايات وجدران العمارات وكذلك في الكويت وفي المملكة العربية السعودية والأردن ، وقلما ينتبه المرء لذلك . ولا يدل هذا العمل على ارتقاء الفن أو تقدمه .

فالفن لا يتقدم بالدرجة الأولى إلا في جو من الحرية والفكر الحر وفي القدرة على التصرف الحر . أما في البلاد العربية ، فينسب تقدم الفن إلى مدى عبادة الشخصية ذائعة الصيت ، ومن المعروف أن الإســلام يحرم تصــوير أو رسم البشر بل حتى الحيوان .

الفتاة الصغيرة

على مقربة من فندق الشيراتون بوسط المدينة ، إذا بفتاة صغيرة تتعلق بأذيالي بإلحاح ، وبيدها كيس فارغ من البلاستيك ومدت يدها القذرة إليّ ، وجهها شاحب وثيابها رثة عديمة الألوان وشعرها كث مغبر وترتدي فستانا غير مكتمل الأزرار وتدل ألوانه الفاقعة على التحول إلى البؤس والفقر . مدت يدها ومعها أختها الأكبر منها ، وقفن يرصدن المسافرين الذين يغادرون الفندق ، لم يكن معهن شيء للبيع ولكن إلحاحهن كان منفرًا .

أخرجت من جيبي ورقة فئة المائتين وخمسين دينارا وهي تعادل فرنكا واحدا وأعطيتها لهن فانفرجت أساريرهن وابتسمن ، ومددت يدي بلمسة حنان وإشفاق وطبعت قبلة على وجنة الصغرى ، ولم يكن معي سوى قطعة صابون معطر فأخذتها وهي فرحة على أمل أن تبيعها لتحصل على طعام بثمنها .

قولي لهم .. عبري لهم عن معاناتنا وعن عزلتنا هذه .. إنها عريضة تلقتها فيرجينيا فولت الطالبة بقسم العلوم السياسية والتي تحضر دورة تدريبية ببغداد.

نحن في جامعة المستنصرية إحدى جامعتي بغداد . إن صورة الرئيس صدام حسين هنا لتذكرني بأني رغم الظواهر فلست في أية جامعة أخرى في العالم . أدركت بسرعة أن ظروف الطلاب العراقيين سيئة للغاية ولا مثيل لها، فمع ستّار وسهاد وهاشم وأستاذهم بدأ الحوار سريعًا . إنهم يقاسون من النقص الحاد في الكتب والمراجع الحديثة المحظور استيرادها بسبب الحظر المفروض على العراق، إنهم يعرفون فرنسا من خلال إميل زولا وأندريه مالرو أو ألبير كامو دون أي تغيير لمجتمعنا . فهاشم مغرم بالتاريخ لكنه يشعر باليأس من الفكرة التي تسيطر عليه وهي أنه « مسجون » داخل العراق . وفي السابق كانت أعداد كبيرة تواصل دراستها في الغرب ، أما الآن فلا تتمكن الجامعة من إرسال أحد سوى طالب واحد في السنة ، ومع ذلك يواصل الطلاب دراساتهم لتعطشهم للثقافة .

وفي إطار الفقر العام الذي حل بالجميع ، لم تجد الأغلبية الساحقة من الطلاب مجالاً أمامهم سوى هجر المدرسة والخروج للشارع لبيع السجائر والبخور واللبان والجرائد على قارعة الطريق للحصول على بضعة دنانير للأسرة . وذكر صندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف UNICEF) التابع لهيئة الأمم المتحدة أن أكثر من ربع التلاميذ لم يلتحقوا بالمدارس ويعملون لمساعدة أسرهم .

والمعروف أن النظام التعليمي العراقي كان أكثر النظم تقدمًا في المنطقة

إن حنين الطلاب وإصرارهم على « التقدم » كان من الأمور الثابتة قبل حرب الخليج وقبل الحرب العراقية الإيرانية، وقد حلت الآن مكانه ثوابت أخرى وهي اليأس . وتتأوه سهاد وهي تندب حظها قائلة : « انتهى كل شيء بالنسبة لي ، ولم يعد هناك أي أمل أو مستقبل لي هنا .... » ، فهي مثل كثير غيرها تعيش يومًا بيوم محرومة من أي أمل ، وتشغل نفسها فقط بالحاضر ولا تدري أي شيء عن المستقبل .

انهار النظام التعليمي بسبب نقص الأوراق والأقلام والطباشير ، ولا يوجد أى تجديد في الأجهزة أو المعدات والمكاتب ، بل والأسوأ النقص الحاد في أعداد المعلمين . المجتمع بأكمله يعيش في معاناة منذ ثماني سنوات ، المعاناة المادية ملموسة وواضحة في كل مكان ببغداد، بل إن المعاناة السيكلوجية والمعنوية لا أحد يدرك حقيقة أبعادها ، إن هذا المجتمع الذى عاش طوال ألف عام يحتضر الآن نتيجة العزلة التى فرضت عليه ، بل أصبح منبوذا ، وتوصل الكبار إلى المحافظة على بعض سمات وعلامات ، وبالنسبة للأجيال الصاعدة ، فإن شباب اليوم ليس لديهم معرفة أو تخيل لمستقبلهم ، وأصر كثير من الشباب على نسيان أحلامهم ، أو حلم اكتشاف العالم أو الحلم بأيام أفضل مما هم فيه الآن . فكيف يحلمون وهم غارقون في الهموم اليومية والمادية ؟ وكيف يتخيلون مستقبلاً في ظل حاضر كله إحباط وحرمان ، وأى مستقبل لمجتمع لم يعد شبابه لديهم أى أمل ؟ وربما يكون ذلك أحد أهم وأخطر المساوئ التى نجمت عن حصار وحظر لمدة ثماني سنوات قتلت فيها آمال الشباب وأحلامهم .

إن شهادة فيرجينيا Virginie لها قيمتها . فقد حضرت إلى بغداد بصفتها متدربة دون أن تضع في أولوياتها أن تساعد إريك فولت أحد أقاربها ، لقد تلقت هذه الصور المفزعة والمأساة التى يعيش فيها زملاؤها الطلاب وقد أصابت الهدف مباشرة ، فهى تبحث عن الوسائل التى تمكنها من معرفة حجم الكارثة . وفي قسم اللغة الفرنسية بالجامعة نفسها ، تؤكد مَيّ عبدالكريم مديرة القسم أن ظروف الدراسة مؤقتة ، وهى حاصلة على دكتوراه من السوربون وتتقن الفرنسية وتقوم بترجمة المؤلفات الأدبية الفرنسية وعلم السلالات البشرية والحضارة ومقالات الصحف ، وكذلك زوجها الذى يعشق الثقافة الفرنسية ، تركز مى جهودها وأنشطتها لتواجه المواقف القاسية والجافة من العالم تجاه العراق وذلك رغم التعب والمعاناة . يعمل الجميع بجد حتى يهربوا من الواقع المؤلم ، وهو هروب إلى التقدم يستهلك الطاقات . وتؤكد مى شدة الحاجة إلى المجلات والمؤلفات والنشرات والكتب والمواد الثقافية لتلبية احتياجات العدد الأكبر من الطلاب . وقد لمس الجميع النقص الحاد في أعداد المدرسين لأن عدداً كبيراً منهم غادر البلاد ، والآخرون الموجودون لا يجددون معلوماتهم ولا يحصلون على دورات تربوية .

تصر مَيّ على دور النساء ووضعهن في العراق ، تلك الدولة العلمانية التي وصلت فيها المرأة إلى مراكز ذات مسئولية دون اضطهاد أو تعنت من منافسيها ، فما الدولة العربية الأخرى التي يمكن أن تحافظ على ما وصلت إليه المرأة من جهد وتتمسك به ؟ تعمل النساء بجد ونشاط ؛ فالمرأة عبارة عن خلية نحل وطاقة جبارة . وعندما قابلتها بالجامعة في نهاية شهر يوليو ، والمفروض أنها في إجازة صيفية ولديها عائلتها وأولادها ، وأن تتفرغ لأعمال أخرى غير الجامعة والدراسة ، لكني وجدتها تعد للعام الجامعي الجديد وتشرف على رسائل ماجستير جديدة وتجهز محاضرات جديدة وتستقبل الطلاب الجدد . وفي بلاد عربية أخرى كاليمن والأردن ، تقضي المرأة الوقت في النوم ليمر الوقت ، وقد أعرب جيرار مارتينيز عن دهشته لمقدرة العراقيين على العمل ومدى تحملهم ومثابرتهم . ثم تساءل قائلاً : إن أناسا بتلك الطبيعة البشرية يريدون تحطيمهم ، فهل يصلون إلى ما يريدون ؟

– لا أعتقد ، فالعراقي متقدم جداً وفي الوقت نفسه ماكر ومخادع . لقد غادر العراق عدد كبير .

– وماذا عن الذين بقوا ؟

– يتحملون التعب والمشقات ولكن لا يفقدون الأمل . إنه صراع دائم .

لقد أتاحت السنواتُ الأخيرة الفرصةَ للتأمل حول الطابع العراقي وعقليته وطاقته والحضارة . ومن الممكن أن يحكموا علينا من ماضينا ، فالعودة إلى جذورنا تثبت صحة تنبؤاتنا . في شهر أبريل ، تم الاحتفال بعيد ميلاد الرئيس العراقي لمدة ثلاثة أيام، رقص وموسيقى بالجامعة وترك الطلاب المحاضرات للاشتراك في موكب داخل الحرم الجامعي ولبس الطلاب ملابس تنكرية، أما الفتيات فقد تجمعن وهن يغطين رءوسهن أو يتركن الشعر منسدلاً بحرية . أخذت أصور الاحتفال بالڤيديو والكل مسرور دون حدوث أي اعتداءات أو تهور . بل تجرأت وأخذت أجوب الشوارع مستخدمة كاميرا الڤيديو فتحن في الحي الجامعي ورغم ذلك يصرون على المطالبة بالعباءة الحريمي . الحرم الجامعي في تلك المناسبة كله بهجة وضحك وفي شهر أبريل تغطي حدائقه الزهور اليانعة والشجيرات والخضرة حتى صارت كأنها قطعة من الجنة .

افتتحت هذه الجامعة عام ١٩٦٣ بعد الثورة البعثية بقليل لاستقبال الطلاب العاملين والمعلمين والموظفين والأطباء في دراسات مسائية .

وأنشئت الجامعة على مبدأ الإدارة الذاتية ولا تطلب أية مصروفات . يقوم المهندسون برسم التصميمات ويتولى الطلاب جمع تبرعات لتجهيز مناضد وكراس ، يعتبر مصطفى المختار أحد مؤسسي الجامعة ومن أوائل الطلاب الذين واصلوا دراساتهم حتى حصل على دكتوراه في الاقتصاد ، وأدخلوا فيها تدريس الاقتصاد والعلوم السياسية والرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء واللغات ، وكافحت الجامعة حتى تم الاعتراف بشهاداتها . أنشئت جامعة العلوم ببغداد وتضم أربع كليات : الفنون والتربية والطب والعلوم الإسلامية ، وبها عشرة آلاف طالب : خمسة آلاف في الصباح وخمسة آلاف في المساء . يفد إليها الطلاب من جميع أنحاء البلاد ، ويخصص لهم سكن داخل الحرم الجامعي أو يقيمون لدى عائلات أو عند الأقارب أو بالفندق ، وظروفهم المعيشية تدعو للرثاء . وقد شاهدت بنفسي حالة الطالبة التونسية آمال التي ظلت في غرفتها الجامعية تعاني اليأس والملل حيث لا يوجد تكييف ، وتشعر بأنها سجينة هذا ولم تجد حلا سوى مواصلة دراسة القانون ، كما تقوم بدراسات للترجمة للغة الفرنسية والإنجليزية . فأي مستقبل لها وليس لديها المال الكافي أو معونة أو عمل ؟ تقضي الوقت تتجول في المدينة كالأسد داخل القفص عندما تخرج من غرفتها ، ويحدث أن تستجدي وجبة في كافيتريا قاسم القريبة من الجامعة .

في ديسمبر ١٩٩٨ . قمت بزيارة الجامعة مرة أخرى ووجدت أن صاروخا قد دمر متحف التاريخ الطبيعي وانهار السقف وتحطم الزجاج وأصبح المتحف يحتفظ ببقايا الصاروخ جنبًا إلى جنب مع الطيور المحنطة وجلود حيوانات الصحراء

الأساقفة والمسيحيون

إن الله يحب الفقراء وليس الفقر

تمتلئ القلوب بالغيظ والحقد تجاه المسيحيين الغربيين. أما المسيحيون الشرقيون ، فيشعرون بأنهم مهملون من الجميع ، فهم كالحمل الوديع ومع ذلك فأصولهم واحدة مثل المسيحيين الغربيين ، فقد انحاز الغرب ومال إلى المعسكر الأمريكي البريطاني ذي الغالبية اليهودية والبروتستانتية ، فهل هناك تحالف مع اليهود والصهيونية ؟

أقيمت سهرة في الكنيسة الكلدانية بالدرة برئاسة الأب يوسف حَبِّي؛ ضم مدعوين من الفاتيكان وأساقفة من سوريا ولبنان والعراق وبعض مدعوين غرباء ، استقبلنا الأب يوسف بملابس عادية حيث كان يرتدي بنطلونًا وقميصاً من القطن . وكانت السهرة في يوم عيد عزفت فيها الموسيقى واستمعنا لأغان عاطفية عندما غنى كل شخص أغنية عاطفية من بلده وجاء دوري وغنيت أنا أيضا . وأعدت سميرة أطباقًا من المقبلات والأرز والدجاج وأحضرت الشراب. كانت السهرة تضم مسيحيين فقط وقبل كل شيء ، فنحن داخل إطار العراق . وأجبرنا قطع التيار المتكرر على استخدام مولد الكهرباء . عشنا في هدوء بعيداً عن ضوضاء المدينة . يعتبر الأب يوسف متعمقًا في الفلسفة والفكر ومحبا للكتب ، وهو رئيس كرسي الفلسفة بأكاديمية العلوم وله أصدقاء كثيرون من المسلمين يحترمون آراءه بحكم طبيعة عمله وهو قبل كل شيء عراقي قلبا وقالبا ، كما أن نظارته السميكة ونظره الضعيف يبعثان على احترامه وتقديره . يقود يوسف حَبِّي بعض مدعويه إلى كهف مختبئ وهو الصومعة التي يعمل فيها ويتأمل ويوسع مداركه الذهنية والعقلية ، يعقد في هذا المكان تنظيم كنسي يضم مسيحيين من العالم للتفكير في الوضع الذي وصل إليه العراق والمأساة التي يمر بها ومستوى التعليم الذي هبط . لم أتمكن من إجراء حديث معه في تلك الليلة لأنها كانت ليلة عيد

وبعد يومين ، بدأ يثق بي ، وذكر أنه يعد كتاباً يتمنى ألا يطبع إلا بعد وفاته . وكثيرا ما ردد قائلاً : « إن كل فرد هنا ينتظر رفع الحظر المفروض على العـراق . إنه إجراء غير عادل وغير فعال ، ولا يقهر حكومة أو يكبح جماحها .

إن الوضع أصبح ينذر بضرر رهيب لا يعانى منه سوى الشعب ، وفى السابق كانت معاناة الشعب لا تتعدى ٥ ٪ من جراء حوادث أو وجود بعض الفقراء . أما الآن فإن ٩٥ ٪ من السكان لا يجدون ضرورات الحياة ولا الخبز ، وأصبح الجميع يردد "إنها عملية إبادة جماعية" لشعب بأكمله . لماذا ؟

فالنتائج لا تبشر بالخير إطلاقًا بالنسبة للأخلاق ؛ تفككت الأسر ، وبدأت الهجرة للخارج وهربت العقول وظهر أغنياء جدد .. وكثير من هؤلاء الذين لم يغادروا العراق بقوا لحماية النظام ، وآخرون فقراء جدا ، كما ظهرت فئة أخرى من الأغنياء الجدد بعيدين تماماً عن المُثل والأخلاق العامة ، وأصبح التضخم يمثل كارثة أخرى ، وأجد نفسى أتساءل : وأين الضمير العالمى والمؤسسات الدولية وهل تقر هذا التصرف وتراه عدلا ؟ إن هؤلاء الذين يثورون ضد الخطر لهم الحق ، فالتاريخ لن يغفر تلك الجريمة ، وفى يوم ما ، سيعرف العالم أن أعداداً ضخمة من البشر قد أبيدت . لماذا لم نفعل شيئا لمنع تلك الجريمة ؟ إننى أشعر بالحزن والمرارة . لقد وصل الأمر إلى أن تتخذ السياسة كلعبة جديدة ، وأصبحت المصالح المادية تطغى على كل شيء وتعمل وسائل الإعلام صباحًا ومساءً لكى تكتم الأفواه التى تصرخ حتى وصلت إلى درجة الصمت . إننى من المؤمنين بالسلام وحسن النية ، ولابد من ترجمة كل ذلك إلى أفعال . إن تلك المعاناة التى يقاسى منها الشباب . . الخطر سوف يولد معاداة ضد الغرب وضد أوروبا وضد المسيحية وحقداً وضغينة تزداد على مر السنين ، وهذا يتعارض مع آمالنا وحضارتنا والحب الذى ندعو إليه فى مطلع الألفية الثالثة التى يجب أن تبنى على مبادئ الحياة والسلام والعدل والكرامة الإنسانية والتعاون وتوزيع الخير والمحبة .

إن بلدنا ليس فقيرا ، إنه بلد غنى ولكن ثروته قد أجهضت ، إننى أتهم ، وأكرر الاتهام . . إن الشعب هو الذى يقاسى . . إن الشعب العراقى يمكن أن يعيش بصورة سليمة ويساعد الشعوب الأخرى ، العمال المهاجرين ، المصريين والفلسطينيين . . . ويوزع الثروات من أجل الصالح العام . ما الفائدة التى تعود من وراء دعم الحصار ؟ لا شيء . بعد ثمانى سنوات لازلنا فى مشاغبات وخصام وافتراضات . مَن الشخص المستفيد مِن وراء ذلك ؟ لا أحد . وهؤلاء الذين يعتقدون أنهم حصلوا على مكاسب ، يمكنهم الحصول على ما يريدون ولكن بوسائل أخرى كالعمل والتقدم والمحبة .

*وفى الشرق العربى ، تحقق الصداقة والتعاون أضعاف ما يتحقق عن طريق القوة . إننى ضد القـوة المادية أو العسكرية أو الأخـلاقية ، فالإنسـان يمكنـه - بل يجب - أن يبنى نفسه بالحوار وأن يسلك طريق العقل فى كل أموره وحسن التفاهم والمحبة ، هل أنا أحلم ؟ هل هذه أمنية ؟ وبدون أن نحلم ، لا يمكننا أن نعيـش أو نعمـل شيئا . فمن لا يحلم إما عجوز أو ميت . يحلم الشباب بأن يتعرفوا على العالم ."لم تعد أمامنا أى أحلام نحققها" هكذا يرددون : لقد أصبحنا عجائز وأنهكنا التعب ... » .

وبما أن الأب يوسف حَبِّى مسيحى ، فإنه يثور ويرفض إساءة استخدام كلمة «الصليبية» لوقت طويل والتى تعود إلى الماضى .

كما ظهرت نتائج أخرى للحصار المفروض على العراق وتتمثل فى ظهور الواقع الدينى القوى الذى يهدد الحريات ، واستشهد بكلمة لصدام حسين : « بين الكفر والتعصب الدينى ، اخترنا الإيمان بالله » . وماذا عن إسرائيل ؟ إنه موضوع تاريخى معقد ، بل ولا الجن الأزرق بإمكانه إقناع المسلمين بعقد سلام حقيقى مع إسرائيل ، ولابد من معجزة كى يتم ذلك . ومن ناحية أخرى ، فإن أضرار العولمة ، والسياسة الحقيقية مسئولة عن الحد من قيمة البشر ، وجعلهم مجرد أرقام وقطع شطرنج يحركونها كما يشاءون ، وشفرات چينية . ما هذا الانحطاط الذى حدث للفكر البشرى ؟ وفى رأى الأب يوسف أن ظاهرة الانتحار تعود إلى تصرفات طائشة ومتهورة ومتلاحقة نتيجة إجهاد شديد ، كما أن الهجرة الجماعية تساعد على اتساع نطاق الانتحار الجماعى . وقد أحدثت مقالته حول هذا الموضوع رد فعل عنيف فى الصحافة . فهل يجب أن نناضل ضد النفى والغربة ؟ وكيف ؟ ألم يكن سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو أول من غادر بلاده وامتدح هذا الاختيار من أجل إنقاذ حياة ؟ إن خروج الفنانين وعيشهم بالخارج ، والمهندسين والأطباء والفنيين والمعلمين كلها موارد بشرية استنزفت أضفت على البلاد طابع المأساة القومية وحرمت العراق من قواه الحية .

ومن الأمور الواضحة أن البلاد بدأت تحدث فيها موجة ضخمة من النشاط الدينى ، فبدأت النساء ترتدى الحجاب بأعداد متزايدة فى الشوارع ، وفى الجامعة ، وفى المكاتب وفرضت الصلاة وأصبحت المناسك الدينية تؤدى بكل دقة . وبدأ حزب البعث المعروف

باتجاهه العلماني* العنيف يشجع الاتجاه للدين وممارسة العبادات ، على أمل أن يتودد ويداهن دولا إسلامية أخرى ويضع حدا لاتهامه بالكفر ؛ ولذا فقد حدث تراجع إضافى فى دولة تتسم بالتسامح الدينى وتعمل على الاهتمام بالحريات الدينية للطوائف والجاليات ، بما فى ذلك منطقة الأكراد التى لها برلمانها الخاص بها ولغتها ومدارسها وصحافتها .

فى الكنيسة اللاتينية

يدعو الأب روبير فى صلاته أن يحل الربيع وتغرد فيه الطيور بعد شتاء طويل . لكنه يؤكد عدم وجود أى تحسن ، بل تزداد الحالة سوءًا مع موكب الفقراء والجهود المضنية التى يقومون بها كل يوم من أجل الحصول على خضراوات أسعارها فى متناول اليد . كما أن المحلات ممتلئة بالسلع ولكن لا توجد وسيلة للشراء أو للحصول على الطعام ، فيباع كيلو الطماطم بسعر يتراوح ما بين ٥٠٠ و ٧٥٠ دينارًا . وأصبحت الرعاية الطبية باهظة التكاليف ، فمن المستحيل إجراء عملية جراحية فى القلب ، وإذا توجه المريض إلى عمَّان لاستشارة طبيب ، فإنهم يعيدونه إلى بغداد حيث يحتفل به أمهر الأخصائيين . وما هو المبلغ المطلوب ؟ تنتظر صديقة نادرة منذ عامين لإجراء تلك العملية ، حيث ينبغى عليها أن توفر راتبها لمدة ١١٥ عاما متواصلا لدفع تكاليف تلك العملية . أما نادرة ، فهى تعانى من الدوالى فى السيقان ويزداد الألم بشدة كلما ارتفعت درجة حرارة الجو . وطلب منى الأب روبير أن أحضر لها جوارب طبية خاصة من فرنسا لعلاج هذه الحالة .

كنيسة الإصلاحيين

وأخيرًا ، قمت بالاتصال بالكنيسة البروتستانتية ببغداد بناء على اقتراح من محمد المصاحب لى، فقبلت عن طيب خاطر. استقبلنا الأب إكرام والقس إبراهيم مهنى الذى عُين منذ بضعة أشهر فى بغداد بعد أن أدى رسالة إنجيلية فى مصر حيث تقيم أسرته هناك . يتسم الأب إكرام بالطيبة والسماحة وضخامة الجسم والابتسامة ،

ويقوم بإرشاد ما يقرب من ٣٠٠ أسرة ويراسل حوالى ١٢٠٠ من أتباع الكنيسة البروتستانتية . ويبدو أن العلاقات بين الجماعات المسيحية المختلفة صعبة بل أكثر مما بين المسيحيين والمسلمين الذين تعودوا على التعايش العميق بينهم وبين المسيحيين . أما الجماعات المسيحية فإنها ترتاب من تيار دينى ينحدر من الكنيسة التابعة للدول الأنجلو- ساكسونية ، فهم عراقيون أولا وقبل كل شىء . ويوجد بالعراق كلها خمس كنائس بروتستانتية فقط فى : بغداد والبصرة وكركوك والموصل وبرتيلا . وتحتاج الكنيسة إلى عشرين ألف دولار سنويا لكى تعمل وتقدم معونة إنسانية واستئجار سيارات وأدوات وعربات ومحاضرات وصيانة وإصلاح المبانى . كما أن الأب فى حاجة إلى مائتى دولار شهريا لعائلته ولم يحصل على أى شىء منذ وصوله إلى بغداد ولم يرسل أى مبلغ لعائلته المقيمة بمصر . وفى غرفة الاستقبال التى يجلس بها الأب إكرام ، كانت هناك امرأة كبيرة نسبيا فى العمر جاءت تطلب المشورة . فلها قريبة تقيم فى لندن وأرسلت لها تأشيرة الدخول بصورة قانونية . لكنها لم تحصل على تأشيرة خروج من العراق إلا بصحبة زوج أو أب أو أخ . وتشعر المرأة بالحزن الشديد لعدم تمكنها من الخروج . وقد شرح لى محمد هذا الإجراء الوقائى لحماية المرأة وعدم تعرضها للانحراف أو الإغواء خارج البلاد .

الفصل الحادى عشر

الأوضاع الاقتصادية

أود أن ألفت انتباه المجلس إلى خطورة المشاكل التى تمس قطاع الكهرباء بصورة عامة : فالطاقة القصوى لإنتاج الكهرباء حاليًا لم تتجاوز ٤٠ ٪ عما كانت عليه ، ووضعت خطط لتخفيف الحمولة فى جميع أنحاء البلاد . وبسبب حتمية استغلال عدة مراكز توليد الكهرباء غير مراعين إجراءات الحماية والأمن المفروضة ، فإن مولدات الكهرباء أصبحت عرضة للتوقف والعطل تماما ، وانهارت كذلك شبكات التوزيع ، وفى الأقاليم الشمالية فى أربيل ودهوك والسليمانية كان يحترق كل شهر ما لا يقل عن ألف محول ، وحاليا لا يتوفر التمويل اللازم لتقليل أعداد تلك المحولات التالفة واستبدالها . كما أن المواد الغذائية المكدسة فى ثلاجات ضخمة أصبحت معرضة للخطر ، وإذا لم يتم تغيير هذا الوضع فسوف يحدث مزيد من التدهور . والشبكة مهددة بالكامل بالتوقف ويترتب على ذلك مزيد من المعاناة البشرية ، إضافة إلى الصعوبات والمشاكل الأخرى التى يعانى منها الشعب العراقى .

(تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة أول فبراير ١٩٩٨ - الفقرة ٢٧)

يؤكد عدد كبير من قادة الحزب والسلطة مرارًا وبصورة حاسمة قائلين « ارفعوا عنا العقوبات ونحن سنتولى الباقى » . ويقصدون بالباقى فتح آبار البترول وأيضا استغلال إنتاجها . وهؤلاء لا يضعون فى تصورهم إمكانية العودة للماضى لأن البلاد عند خروجها من تلك المحنة لن تعود كما كانت ، ويجب قبل كل شىء إعادة بناء المجتمع وذلك بإدخال عامل مهم فيه : وهو العزة والكرامة .

دكتور : ميشيل چولى يونيو ١٩٩٨

التسوق اليومي

اتجهت إلى شارع الإمارات لأدخل فى شارع ١٤ تموز (يوليو) وهو شريان رئيسى للمواصلات ، حيث تصطف المحلات على جانبيه لمسافة تزيد على الكيلومتر إلى أن تصل لتقاطع الطريق الآخر . وعند الساعة الحادية عشرة صباحا تكون الشمس عمودية . وإذا بفتاة صغيرة كانت تحتمى فى ظل أتوبيس معطل تحذو حذو خطواتى وتتعلق بى : فلوس ، فلوس ! أدركت أنها تريد نقودا ومن المستحيل علىَّ أن أتخلص منها . سارت معى بطول شارع « ١٤ تموز » وتعرفت عليها ، اسمها مروة وعمرها حوالى ١٢ عاما ، وفستانها باهت تماما لا لون له وكذلك شعرها . وتنطق العربية بصورة واضحة ويصاحب نطقها حركات باليد حتى أتمكن من فهمها ، تتميز بأن لها موهبة حقيقية وقوة على الإقناع . كان وجهها الطفولى يعلوه صرامة إنسان مراهق .

– هل تريدين ماء ؟

– لا ، بل أريد نقوداً .

– هل تذهبين إلى المدرسة ؟

– لا ...

– لماذا ؟

– لكى أحصل على طعام ... واصلت توجيه أسئلتى لها ، فهى تسكن فى حى شعبى بوسط بغداد ، بالقرب من السوق وسوق الطيور الذى تحول الآن إلى سوق للحيوانات الأليفة والمقايضة .

– هل تريدين آيس كريم ؟

– لا ، أريد نقوداً . . . فهى الأخت الكبرى لستة أطفال . وبحركة منها تجاه السماء فهمت أن والديها متوفيان . أعطيتها ٢٥٠ دينارا . ووعدتها بأنى سأعطيها غدا رداء نسائيا على مقاسها ويمكنها أن تبيعه . وغدا لن أراها .

اشتريت ورقًا للحمام باللفة وسائل للتنظيف وإسفنجات وأدوات تنظيف ولبن وجبن وزجاجة عصير برتقال مركز . ودفعت أكثر من عشرة آلاف دينار أعطيتها للبائع على هيئة رزمة كبيرة ليعدها بنفسه .

أحب التوجه إلى السوق لعمل المشتريات وأيضا الذهاب إلى المحلات الموجودة فى حى المنصور . وعندما أسير فى الشارع ، أشعر بدهشة الناس لدى رؤيتهم لى لبشرتى البيضاء وشعرى الأشقر ، لكنهم بدأوا يتعودون علىَّ لأن الكثير من الأجانب لا يتجرءون على السير فى شوارع بغداد . وبدأت محلات كثيرة تفتح لعرض سلع متنوعة من أجهزة كهربائية وعطور مقلدة ومسجلات وحلويات وأدوات مدرسية وعصائر وحبوب وأجبان ومراوح ومجوهرات ، ولكن الإنسان يمنى نفسه بالنظر فقط إلى الواجهات دون أن يجرؤ على الدخول لشراء شىء . « عندما كانت المحلات فارغة أو مغلقة كان الجميع متساوين . أما الآن ، فالمؤسف أن ٩٥ ٪ من الناس ليس لديهم الإمكانيات لشراء أى شىء » . واختفت الطبقة المتوسطة تمامًا . ولحق الأغنياء السابقون والنبلاء بطابور الفقراء الجدد ، وفى الوقت نفسه يستعرض أغنياء الحظر أنفسهم بغطرسة وكبرياء ثروتهم ورخائهم . وظهرت القصور فى المدينة كما يظهر النبات الفطرى لأن أصحابها وصوليون ، وظهرت السيارات الفارهة ، وبدأ نوع من السرطان الخبيث ينخر فى جسم المجتمع وفى السلوك وفى العقلية . ويصاحب هذا كله الانحراف والانحلال والذوق الفاسد وموت الفن ، وحل محله الغطرسة الكاذبة وضياع القيم الأخلاقية وانتشار البغاء وتعدد الزوجات وهبوط الأخلاق .

فى شهر سبتمبر زرت ڤيلا تحت التشييد ، وكان معى المهندس المعمارى المكلف بعمل الديكورات . تحولت الموهبة الواعدة إلى مجرد رسم بالألوان المائية ذات الطابع الشرقى وهو السائد حاليا . فالڤيلا عبارة عن قصر ، صعدنا على السقالات قبل أن ندخل إلى الساحة لزيارة القاعات الفسيحة المكسوة بالرخام ، وجدنا عدة حمامات ومطبخًا ضخمًا بالدور الأرضى . وعلى الأرض ترقد لوحات جدارية من المصيص صنعت فى إيطاليا . القصر كناية عن الذوق الفاسد . وكما يحدث فى أى مكان آخر ، أصبح كل شىء هنا يباع ويشترى ، الفن والخبرة والكفاءة والجسد والروح ، بل حتى الأطفال .

بعد أن كان البيْض منذ عامين يتجاوز سعره أسعار اللحوم ، أصبح الآن متوفرا فى كل مكان وفى محلات بيع الأغذية ، كما ظهر السكر بعد أن كان نادرا وجوده .

يتوفر كل شيء فى بغداد ولكن بأسعار باهظة ، وسوف نقوم بشراء مروحة تهوية لتلطيف الجو نسبيا عند انقطاع التيار الكهربائى وتوقف التكييف ؛ لأن درجة الحرارة فى الظل تتجاوز ٦٠° مئوية ، ومن المستحيل النوم أو حتى الحصول على إغفاءة فى هذا الجو الرهيب بعد يوم من الإجهاد والتعب . وهذه المروحة صناعة تايوانية ومزودة ببطارية يمكن شحنها لتعمل عند انقطاع التيار الكهربائى . وهناك فرق ضخم بين أسعار المنتجات المحلية والمستوردة وهى مشكلة ضخمة بالنسبة للاستيراد العراقى . توسع القطاع الزراعى فى الإنتاج نتيجة للحصار المفروض وعلى أثر تحسن نظام الرى ، وتم تحرير الأسعار مما أتاح الفرصة أمام المزارعين للبيع فى الأسواق كما يريدون دون تدخل أو إجبار من جانب الدولة . ويعتبر القطاع الزراعى من أكثر القطاعات حساسية ؛ لأنه دائما محروم من المبيدات الحشرية والمخصبات؛ لأنها تعتبر « ذات مخاطرة » و« ذات استعمال مزدوج » من قبل لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة .

الفصل الثانى عشر

أناس يعيشون تحت خط الفقر

فى منتصف الطريق بين الحلم العصرى والانحطاط البشرى ، لم يجد المواطن العراقى أمامه مجالا للاختيار إلا بين الحنين للماضى والرغبة فى الانتهاء منه بأقصى سرعة وبأى شكل من الأشكال .

دكتور ميشيل چولى

(الآثار الثانوية لنظام فرض العقوبات على العراق ، يونيو ١٩٩٨)

أناس موضع ثقة

العيش أو حتى مجرد الإقامة فى العراق يعتبر مخاطرة ؛ لأنه يضم عدة مناطق غير آمنة . ولابد للأجنبى من وقت كاف حتى يتأقلم ويعوِّد نفسه على الشك والاكتشافات وأن يعطى نفسه مهلة ليكتسب ثقة الآخرين التى لا يحصل عليها إطلاقا لأى سبب من الأسباب . وبالنسبة للأجنبى غير المقيم يمكن أن « يقال له كل شىء » للتأكد من كفاءته ومقدرته على استيعاب حجم المأساة التى لا يُعترف بها داخل العراق . حدث ذلك أثناء العودة بالسيارة بعد قضاء سهرة ، بدأ محدثى يثق بى عن طيب خاطر وتركته يسترسل فى حديثه ويفصح عما فى نفسه بحرية رغم تقيده بعوامل الشك والريبة والتحفظ . إذ صار كل شخص لا يثق بالآخر حتى بين الأصدقاء ، فهناك اتفاقات تفرض على الجميع عدم التحدث واتخاذ جانب الحذر . وفى العودة ، وفى هدوء الليل وسكونه وبعيداً عن الآذان التى تنقل كل شىء تسمعه وداخل السيارة ، شعرت برغبة

محدثى فى الاسترسال دون قيود ورغبته فى منحى الثقة وأن يقول كل شىء وأن يطلب منى النصح ، والواقع أنى أتعلم كثيراً بالإصغاء أكثر من الحوار .

جمعت السهرة عند سعدى الكابى أصدقاء حميمين وشخصيات محترمة : إسماعيل فتاح ؛ نحات ، وإسماعيل الشيكلى رئيس القسم العراقى لإحدى الهيئات الدولية وزوجته الفرنسية سوزان ، وصديقتى هيام ، والمهندس المعمارى فيصل الجوبورى وزوجتـه . تميزت السـهرة بكرم الضيافة حيث أعدت وليمـة فاخرة للرد على الحظر المفروض . أتاحت لى السـهرة كذلك أن أتعرف على الدكتور علاء بشير ، جراح التجميل وفنان تشكيلى شـهير فى الوقت نفسه ، حيث تتميز لوحاته بعرض كنايات حادة وغريبة تعبر عن الفكر المعذَّب والجسد الذى يقاسى ويتألم والعراق الممزق . ولكن الدكتور علاء بشير مرهـق بعمله الذى يستـغرق كل وقـته فى خـمس عيـادات للجـراحة والحـالات الطارئة ومعرض الجثث المجهولة ، وقد اعترف بأن عددا ضخما من المدنيين والعسكريين قد لقوا حتفهم أو بترت أجزاء من أجسامهم ، كما أنه يعيش بصحبة الجثث . يحكى ذلك بصوت رقـيق وهـادئ ورصين دون أى عنف لدى هـذا الرجل الكتوم والمحـترم . ويعتـبر من الأطباء المميزين ذوى الموهبة الفذة فى مجال عمله بالعراق الذى استنفد قواه من جراء المأساة التى يعيشـهـا . وفى لوحاته يصـور غرابا يلتـهم عينا من رأس إنسـان وجمجمة مشطورة إلى قسمين تتناثر على اللوحة ووجهًا مبعثرًا وفمًا يتشنج بصراخ غير مسموع فى طابور من الأشـخاص تشتعل فيهم النيران . رسمت اللوحة فى الموقع الذى وقعت فيه مجزرة صبرا وشاتيلا فى لحظة المـأسـاة نفسها ، والعراقيون الذين اندحـروا وذابوا همـا ، والعـراق الذى يرى آمـاله تضـمـحل وتنزوى والجـثث المتراكمـة ومجهولة الهوية ما هى إلا كناية عن جسم العراق المعذب .

« فى خدمة الدولة »

كانت العودة مبكرًا لأنه غير مسموح بالتجول بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً . وقام صفوان بتوصيلى وكانت لفتة جريئة منه ، وهو رجل ملأ الشيب رأسـه ، قصير القامة وممتلئ ، ويعيش بمفرده بصحبة كتب الفلسفة والعلوم السياسية . ولديه الكثير مما يود

أن يقوله حتى إن كتابا بأكمله لا يستوعب المآسى التى مرت به فى حياته ولا تلك التى مرت بالعراق . يتحدث صفوان الفرنسية حيث عمل فترة طويلة بسويسرا ملحقًا بالسفارة ، ويتحدث عن تلك الوظيفة بفزع يعجز عنه الوصف . يصمت عن الكلام لأسباب تتطلبها مصلحة الدولة. فلديه كم هائل من الضغط الداخلى يمنعه من التحدث ، لكنه قاوم الصراعات الداخلية واتخذ طريقًا يخالف الدولة . فيما يتعلق بالتأييد المطلق للحرب ، فهو فى حرب مع نفسه ، ثلاثون عامًا فى حرب داخلية وتمزق نفسى ، ورغم طلباته المتكررة بنقله إلى وظيفة أخرى ، فقد ظل فى خدمة الدولة بالخارج فى حرب مع نفسه وفى موقف المدافع عن الحروب وتبريرها . وهو الآن محال للتقاعد بعد أن قضى معظم سنين حياته فى تدريس الفلسفة والعلوم الإنسانية بالجامعة وهو نشاط يستهويه لكنه لا يسد رمقه . وذكر أنه لم يكسب شيئا طوال حياته العملية والوظيفية سوى الخروج بالشعر الأبيض ، وودع أجمل سنوات عمره وتركها خلفه ، تتجسد المرارة بكل أبعادها لديه وفى حياته الفردية دون زوجة أو أولاد ، ولكن ما يعزيه أنه مقتنع بأنه من المستحيل العيش لأن المستقبل مغلق أمامه .

دعيت إلى منزل نادر لأن صديقة له من باريس كلفتنى بأن أوصل له رسالة وبعض المعونات المالية . فقد أحيا نادر مركزًا ثقافيا عراقيا بالخارج ، وهو حاليًا بالمعاش ، واضطر إلى بيع منزله بسعر بخس لعدم قدرته على صيانته . وجدت فيه الوجه الحزين المتسم بالمرارة . وفى المطبخ حيث أصررت على البقاء به ، وجدته فى غاية البساطة ، بدأت الثقة تنمو وتظهر على استحياء وبتحفظ مشوب بالذعر . وفى التليفزيون شاهدت عسكريين ومتطوعين فى طوابير عرض منذ عدة أيام . إن تماثل الفكر يعتبر جهلا وعدم خبرة من جانب القادة وشراسة ووحشية يوحى بها فى كلمات مغلقة ، ويترك المستمع ليفهم أبعد مما يقوله . حياة كلها قهر دون إعطاء حد للمناورة ودون إمكانية إتاحة الفرصة أن يعلن الفرد رفضه لما يحدث ، ومسلوب الإرادة حتى من الهرب أو الفرار ، وحب الإنسان لبلده يطغى على كل شىء مما يزيد الهم وتتراكم المآسى والآن أصبح فى رقبته هم الأطفال ، فلديه أربعة أطفال ويتساءل ما هو مصيرهم ؟ وليس لدى نادر إمكانية اقتناء سيارة ولكن صهره هو الذى أوصلنى ليلا ، وهى سيارة آخر صيحة فى عالم السيارات . فى الطريق ، باح لى هو الآخر بأسرار .

فهو يشغل منصباً كبيراً ذا مسئولية فى مصنع أغذية وعضو مجمع لإنتاج المشروبات والحلويات والجاتوه وكلها سلع تعتمد أساسا على السكر أو تحويل مواد إلى سكر . وهو قطاع إستراتيجى خاصة فى بلد كان محروما من السكر لسنوات طويلة . وراتبه يعادل تماماً راتب مسئول كبير فى القطاع الخاص أى مائة دولار فى الشهر علاوة على العمل الإضافى والسيارة ومزايا أخرى عينية .

« فى القطاع الخاص »

اصطحبنى أحد المدعوين فى السهرة التى أمضيناها عند قاسم ، وهو مهندس فى القطاع الخاص . ضمت السهرة أصدقاء ومقربين : فاروق وزوجته الشابة الجميلة ، وإسماعيل فتاح ، وفيصل وزوجته ، وطبيبة أصيبت بصدمة لأنها لم تكن محط أنظار الجميع ، ودودى وهو أيضا فنان ومعه زوجته . ينتمى دودى إلى طائفة الصابئة التى تدين بديانة تعبد الشمس والنار والماء ، تتم جميع طقوسهم فى مياه نهر دجلة حيث يرتدى كل منهم جلبابا أبيض طويلا سواء فى مراسم الزواج أو التعميد أو الوفاة . إنها عبادة ربانية . يرجع وجود طائفة الصابئة فى العالم أجمع إلى بغداد . وقد حوّل ما يقرب من ٧٠٠ ألف مؤيد لهذا المذهب من أوروبا واتجهوا إلى نهر دجلة للتجمع المكثف . وهناك لحظة قوية وفريدة من نوعها فى حياة الصابئة حيث وجدت فى أحد دهاليزهم « آدم وحواء » .

كانت السهرة عند قاسم مليئة بأنغام الموسيقى والضحك على صوت عود فاروق سلوم ، ورقص الجميع وأيضا إسماعيل . تحدثت أخيرا مع فاروق حديثا مباشراً وعميقا فى المشروعات الثقافية وفى التبادل المكثف . وفى منتصف الليل ، يتوقف كل شىء واصطحبنى الرجل لتوصيلى . وفى الطريق سألته عن مهنته وأنشطته التى يمارسها ، وهل تشجع الدولة العمل بالقطاع الخاص ؟ « لقد أحسنت الدولة صنعا بأن تركتنا نعمل ونشتغل بأمور أخرى . ولا تتصورين مدى الخسائر والعجز الذى يواجهنا » . إن تدخل الدولة يعيق - فى رأيه - حرية الشروع فى العمل وإدارته وتوقيع العقود والتفاوض وعقد العلاقات المثمرة مع الصناعات فى الخارج .

« فكثير من التخصصات فقدت قيمتها وضعفت القدرة على العمل والإنتاج ، فنحن هنا لا يمكننا عمل أى شىء » . فالمرارة شىء رهيب . وقد غنى فى تلك الليلة .

« أتدرون ، تلك هى المرة الأولى التى أغنى فيها منذ خمسة عشر عاما عندما بدأت الغناء . ومنذ الحرب العراقية الإيرانية لزمت الصمت ، وفقدت كل معنى للبهجة والحياة. أما الليلة فقد استطعت أن أغنى وكان ذلك بصورة عفوية تلقائية » . مرة أخرى، قمنا بالغناء وشربنا وأكلنا ورقصنا حتى إسماعيل شارك معنا وعمت البهجة الجميع ، ووعد إسماعيل بأن يعمل تمثالا لوجهى وعليه الشعر المنسدل . وهكذا ، بدأت الثقة من جانب زملائى فى السهرة تظهر ولكن بصعوبة ، فهناك كم هائل من المعاناة والمرارة وكوارث الأفراد ونكباتهم .

كيف يتم إنجاب الأطفال ؟

إن وضعى كامرأة غير متزوجة لأمر محير ، ويحدث خلاف فى الرأى حول هذا الموضوع فى بلدان الشرق ويثير الفضول وتوجه أسئلة مختلفة وملتوية ومباشرة أحيانا بدافع الرغبة والاشتهاء . ولذا ، فقد حدث لى أن نسجوا قصة خيالية عن زوج لى بقى فى باريس لانشغاله بأعماله ، وأن لى طفلين ولدا وبنتا احتراما للتقاليد ولتوفير الهدوء لى ، لأن اقتحام الأجنبى لتلك البلاد أصبح يثير القلق وأن الحريات الغربية صارت مصدر إزعاج . ولابد من الانفتاح التام لأصدقائى الذين قطعوا الصلة بالتقاليد الغربية والمطالب الملحة للحياة كى يشعرونى بأنى على راحتى دون أى اعتبار آخر .

يبدو أننا نعيش فى العراق فى عالم لا جنسى إزاء العلاقات الصارمة المعترف بها بين الرجال والنساء ، التى تراعى بدقة الوقار والاحتشام ، وكل شىء يتم بدافع المحبة . كما أنه يراعى أن تكون الثياب غير خارجة على التقاليد وبدون بهرجة والألوان تميل إلى الفاقعة وتستر الجسم والأذرع مغطاة بالنسبة للنساء والشعر مغطى بغطاء رأس وهو أمر مستجد فى العراق ، وأغلب النساء فى حالة حداد . كما منع الاختلاط بين النساء

والرجال فى حمامات السباحة إلا إذا كانوا عائلة واحدة . إلا أن سهام تعترض على ذلك قائلة : « ماذا يهمنى الآن ؟ لم يعد للحياة معنى ... » ، وأصبحت السمات المماثلة تقترب من بعضها بالقهر ، بينما الروابط والنسيج الاجتماعى بدأ يتفسخ . لقد حدث كسر .

والأطفال موضع رعاية وحب ودلال وإعزاز لا فرق بين صبى وبنت ، لكن التدليل يتوقف عند بلوغ سن المراهقة . كما أنهم يخضعون منذ الولادة لإجراءات صارمة ، وكم كانت دهشتى عندما زارت إحدى قريبات العائلة وهى أم ومعها طفلها الرضيع المولود منذ أيام وقد قامت بلف جسمه وأطرافه الأربعة بقماط حتى أصبح وكأنه مومياء محنطة ودرجة الحرارة بالخارج خمسين درجة مئوية وأيضا بالداخل لانقطاع التيار الكهربائى وكان الطفل يبكى بشدة ، ووضعته أمه على الفراش تواسيه . أعربت عن تأثرى الشديد لنصرة لهذا المنظر . لكنها ردت قائلة : « تلك هى التقاليد . أما أنا فقد رفضت معاملة أطفالى بهذه الطريقة . لقد شبوا أحرارا » . إن تلك الإعاقة تؤثر على أجسامهم ونفسياتهم . ومع ذلك أرى الأطفال يضحكون ويبتسمون فى الشوارع والمنازل . إنهم يحبون الأطفال لدرجة العبادة ، ولكن ما هو التصرف عندما يكونون فى سن المراهقة ؟ أعرب لى فاروق فى إحدى السهرات عن ضيقه عندما كان فى ألمانيا للعمل هناك عندما تعرض للسخرية من جانب الكبار أثناء مداعبته الأطفال ، إنها حركة طبيعية جدا وتلقائية جدا وهذ الشك الفجائى .. تعمل زوجته الشابة راقصة باليه فى أوبرا بغداد ، ويحتفظ معها بعلاقات كلها محبة بصورة مكشوفة بل ويحضن كل منهما الآخر على الملأ ، وهى جميلة ونحيفة ومتحفظة . وصل فاروق إلى سن النضج وهو كفنان رجل مرح يحب الموسيقى ويستولى طواعية على عوده وينشد أغان رومانسية قديمة ، لكن تعلو وجهه ظلال من القلق لحساسية مركزه وخطورته فى وزارة الثقافة وأيضا لعلاقة الود بينه وبين الرئيس . لكن الجميع بدأ يصفق إعجابا بصوته وبدأوا يصاحبونه فى الغناء ، فالفن والموسيقى من المواهب التى يتفوق فيها البشر ، خاصة الرجال .

والملاحظ أن العلاقات بين الأولاد والبنات تظل أخوية بشكل صارم ، ومع ذلك يتم الزواج . فكيف تولد قصة حب فى أيامنا هذه بالعراق ؟ ليس لدىَّ مفتاح لحل هذا اللغز .

تتم إجراءات الزواج بمعرفة العائلات ، فنوره الابنة الكبرى لليث مخطوبة منذ فترة قليلة إلى ابن عمها الذى يقيم بألمانيا . « تهنئتى القلبية لك يا نوره ، وهل أنت سعيدة ؟ وهل أنت التى اخترت عريسك ؟ أبدا .. أنا لست موافقــة على هذا الاختيار . وسوف نرى ما سيحدث فيما بعد ... » . إنها تسىء استقباله . وقد كشفت لى طالبة تونسية عن مشروعها بالنسبة للزواج كمخرج من مشاكلها الاقتصادية التى تعانى منها فى بغداد حتى يمكنها الإقامة كذلك . قدمت الرجــل الذى تقــاسمه السكن كأخيها ، وفى أسرته لا يوجد سوى بنات ، ورويدا رويدا سيصبحن نساءً يرتدين الحجاب فوق رءوسهن بدافع الاحتشام ، وعلىَّ أن أكون مقبولة فى صداقة منزل لأن قسوة الحياة عقدت من صعوبة السلوك والتصرفات ، وما الشىء الذى يدعـو للدهشة ؟ كانت نصرة فتاة صغيرة ترتدى المينى جيب وتجوب شوارع بغداد وتتوجه للمركز الثقافى الفرنسى وكلها طاقة وحيوية ، عندما رآها مصطفى للمرة الأولى وغازلها ثم قررا الزواج رغم معارضة الوالدين لأنهما يتبعان مذاهب إسلامية مختلفة . لكنهما لم يفترقا . لقد أصبح التدين ملاذا فى هذا البلد العلمانى ليرفع من قدر الفصل الشديد بين سلطة الدولة والسلطة الدينية، والتمسك به أو بقواعده وطقوسه ومبادئه على الأقل . تحتل مشكلة الزواج نسبة عالية تدعو للقلق فى مجتمع منظم يدور حول الأسرة ، واحترامها الشديد وضرورة وجودها ، فلا رحمة ولا شفقة ولا مكانة لامرأة من خارج الزواج ولا يمكن قبولها لحياة جنسية . ويخصص التليفزيون مسلسلا عنوانه « الشـاب » لهذه المشكلة التى تتكرر وعدم إمكانية الشباب ورغبتهم فى الزواج وتكوين أسرة والعيش خارج شرنقة العائلة .

وأمام ضربات الحصار المفروض على العراق أصبحت أبعاد عملية الزواج مقـيدة ، وفى الوقت نفسـه أهملت القيم الأخلاقيـة وانتشـر البغـاء والزواج السـرى والتـزوج بامرأتين أو تزوج المرأة برجلين فى وقت واحد وكذلك الفسق والدعارة للأطفال . «تحرُّر» محزن للأخلاق . وأكد الأب يوسف حَبِّى أسقف الكنيسة الكلدانية أن الزواج بدأ يقل شيئا فشيئا مادام المستقبل قد صار مظلما لعدم توفر الأموال اللازمة لذلك ، ونقص الإيمان وخاصة فى المستقبـل الذى لا يبشـر بالخـير وانعـدام الآمـال والرؤيـة المستقبلية . « تلك هى المعــاناة التى يقاسى منها الشباب ... فالشـاب أصبح لا مستقبل أمامه ، بل لا يحصل على الحد الأدنى من الحياة البشرية ولذا لم يعد أمام الشاب إلا أن يرحل ...

فالرجل يمكنه أن يرحل ويسافر بعيدا ، أما الفتاة فهى مرغمة على البقاء دون زواج ، فى مجتمع إسلامى يفضل الأسرة والزواج كهدف فى حد ذاته» .

الشىء نفسه يتكرر فى الكنيسة اللاتينية حيث يخصص الأب روبير نشاطه فى فصول التأمل والتقشف والزهد ، كما يتحدث عن الآثار الناجمة عن البؤس الاقتصادى والمستقبل المسدود وطلب اللجوء للكنائس لأسباب مادية ، «لقد أنهكت حرب الخليج العراق بشدة ، ويشعر المسيحيون هنا إنهم بحاجة شديدة إلى نمط لصياغة وتشكيل مادتهم، ليس بالنمط الغربى وإنما بنمط يناسبهم ويجعلهم مقبولين . وهذا ما أحاول أن أقوم به . فالإسلام أيضا معروف عنه التعمق الدينى الواضح وذلك لأسباب أيديولوچية وليست سياسية أو اجتماعية» .

الغربة

هذا التشتت الذى يقدره البعض بحوالى مليونى فرد يعتبر نزفا خطيرا وكئيبا بالنسبة لهذه البلاد .

د . ميشيل چولى ، يونيو ١٩٩٨

قابلت سهام فى بغداد بعد عودتها لقضاء الإجازة الصيفية حيث آثرت أن تعمل فى ليبيا ، وبعد خمس سنوات من حرب الخليج وصلت إليها ، ولم يكن التأخير بسبب عدة محاولات وإنما لأن الأبواب ظلت مغلقة أمامها . وقد حدث لها أثناء دخولها العابر إلى عمّان أن فقدت كل ما كانت تدخره من دولارات ، فقد تعرضت للسرقة وهى فى منزل إحدى الصديقات . لقد أفسدت الحرب البشر . ولذا فقد قررت العمل من أجل توفير ميزانية للأسرة وإصلاح المنزل وعلاج الوالدين المسنين فوالدها على المعاش ولا يكفى راتبه الذى يبلغ ٣٢٠٠ دينار كل ثلاثة أشهر أى ما يعادل ١٢ فرنك فرنسى . عادت سهام لقضاء شهر إجازة بعد غياب عامين كاملين وكانت ترسل بعض المساعدات المالية لإصلاح المنزل . وعندما التقينا على عتبة دارها تعانقنا طويلاً .

تعيش سهام فى ليبيا فى قرية صغيرة على شاطئ البحر بالقرب من طرابلس وتقوم بتدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس ولا يتوفر لديها الكتب اللازمة ، وجاء وقت كان العراق يمد ليبيا بالكتب الدراسية مجانا وكذلك الصومال ؛ لأن قرارا جمهوريا كان قد صدر بتخصيص ٢٪ من عائدات البترول لمساعدة دول العالم الثالث الأكثر فقرا . وهدمت حرب الخليج كل تلك المساعدات وأصبح ما يقرب من سبعين ألف أسرة عراقية يعيشون فى منفى هناك ، أغلبهم مدرسون بالجامعة والمدارس العليا . وتجنبت سهام الاتصال بهم لأن القبائل والعشائر أعيد تشكيلها من جديد ؛ كذلك هناك الشيوعيون والبعثيون والمستقلون ، وكان يطلب منها دائما أن تحدد انتماءها لكنها كانت ترفض وتتمسك بلقب أجدادها . وهى معجبة بالليبيين وتصف الشعب الليبى بأنه بسيط وكريم ووجدت لديهم الطريق إلى التقشف والزهد ، كما تفضل مصاحبة السودانيين لأنهم ودودون . تعيش فى غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها تسعة أمتار مربعة وبدون فتحة تهوية أو شباك . وماذا عن التغذية ؟ انزواء للتقشف . تتحدث عن نفسها كما لو كانت أجنبية منفية ومعزولة عن بلدها ومدينتها التى تعرفها بالكاد ولا تخرج إلا لقضاء الحاجات الضرورية ، أجنبية فى بلد مضياف والآن فى العالم العربى ، قبلت بمأساة المنفى لحاجتها المادية وليس بدافع المثالية ، وعليها أن تقطع المسافة من العراق إلى ليبيا بالطريق البرى ؛ لأن دولتين هما العراق وليبيا يقعان تحت فرض الحظر الجوى ، فكان عليها أن تقطع طريقا بريا بطول خمسة آلاف كيلو متر عن طريق الأردن ومصر وما تتعرض له من محنة الحدود الواقعة تحت الرقابة العسكرية الصارمة وإزعاج إدارى وتطعيم وساعات طويلة من الانتظار دون طعام أو شراب وبدون حمامات .

عائلة عراقية من ستة أفراد مات أحد أطفالها ونقصت إلى خمسة وتركت الجثة فى الصحراء . مسافة ضخمة من الصحراء داخل الدول تخضع جغرافيا وسياسيا للمؤامرات الأمريكية ، التى لم تتوقف عن إثارة الفتن والتمزق داخل العالم العربى .

فى عمّان

فى عمّان ، قام أحد الأصدقاء العراقيين باصطحابى إلى منزل أحد أقاربه ، وتلك هى زيارة الدقيقة الأخيرة ، وطُلب منى الكتمان الشديد . يعيش مع زوجته وطفلان فى شقة صغيرة تحت الأرض بإيجار معقول ؛ إحدى الغرف لا يوجد بها سوى كنبة صغيرة ومنضدة وتليفزيون حيث رحل أثناء الكارثة تاركا خلفه كل ما يملك من أثاث وملابس فى بيته بالبصرة حيث كان يعمل هو وزوجته بالتدريس ، وباعوا كل ما كان لديهم من حلى ومجوهرات وتحف فنية ليجمعوا عدة دولارات معهم ؛ لأن المرتب الذى يحصلون عليه هزيل لا يكفى أى شىء . قاموا بشراء جواز سفر من السوق السوداء ومزود بتأشيرة عائلية . كان القلق يلازمهم حتى الحدود خوفا من اكتشاف أمرهم ويتم التحقيق معهم واكتشاف هويتهم الحقيقية ويعتقلون ويضيع الأطفال .

« عشنا القصف بالقنابل الأمريكية على البصرة فى منزل بأحد الأحياء السكنية وتهدم المنزل واصطحبت زوجتى وأطفالى إلى منزل أسرة زوجتى ، وبعد يومين حدث قصف بالصواريخ انفجر أحدها بالقرب من المنزل الذى أقمنا به ، فكان لابد من الرحيل إلى المدينة علىّ بعد مائة كيلو متر إلى الجنوب وأقمنا بها شهرا . عدنا بعد ذلك إلى البصرة بمجرد وقف إطلاق النيران . كانت الحياة فى غاية القسوة ، لا ماء ولا كهرباء ولا غاز وكنا نشرب من مياه الأمطار، وفقدت الحكومة السيطرة على المنطقة ولم يعد لدينا أى شىء ، ومن المستحيل التحرك أثناء الحرب المدنية إلى أن عاد الجيش بعد شهر . كانت جثث الجنود والمدنيين تغطى كل مكان حول المدينة ، وبعض تلك الجثث التهمتها الكلاب الضالة حتى مسافة خمسة كيلومترات من هنا . ويقال إن الإيرانيين دخلوا تلك المناطق بمساعدة « جهاز المخابرات » . وعندما دمرت المستشفيات والمدارس والمبانى العامة ثار الناس وأعلنوا العصيان ، وجاء الجيش العراقى وأعدم آلاف الناس دون أية محاكمة . لا يمكن أن نقول شيئا أو نفعل شيئا ، لا تعليق . أُخذنا جميعا على أننا جواسيس وصُرف لنا مرتب مائة دينار فى الشهر ؛ أى ما يعادل ستة دولارات ، ولا يكفى هذا المبلغ شراء ألبان لأطفالنا أو ملابس . فكنا كل شهر نبيع مجوهراتنا وأثاث المنزل بل والسيارة . وذات يوم ، ويا للعار ، اضطرت ابنتى لسرقة

بيضة ؛ فلم يكن لدينا أى طعام ... وفى خلال ثلاثة أيام ، كان لابد من تسوية كل شىء ونجد أية ذريعة لمغادرة هذا المكان ، حيث غادرنا بجواز سفر اشتريناه من السوق السوداء وكنا على القائمة السوداء حتى مدينة طرابيل . بعنا كل شىء لنوفر ثمن الجواز فقط . وهنا بدأنا من الصفر . ولمدة سبعة أشهر لم نجد شيئا نعيش به إلى أن أجد عملا بالجامعة بعقد مؤقت غير ثابت لأننا لا يمكننا العودة ثانية إلى العراق . إننا خائفون جدا على أطفالنا وماذا سيكون مصيرهم ؟ نفكر دائما فى الهجرة إلى نيوزيلندا أو أوروبا ، ولكن الأمر ليس هينا ؛ فلابد من توفير مبالغ ضخمة للجهات التى تسهل دخولنا إلى أوروبا ؛ خمسة آلاف دولار لكل شخص مع المخاطرة بإمكانية القبض علينا من قبل شرطة البوسنة أو فى سلوفاكيا قبل أن نصل إلى الجهة التى نريدها . قام أحد زملائى ببيع السجائر فى السوق . لا يمكنك تصور حجم المآسى .. إن حالنا أفضل بكثير من غيرنا . اضطررنا لبيع دبلتى زواجنا ، وأشعر بالخزى وأنا أقول ذلك . مثال آخر ، الاحتياجات الأولية لم تعد تكفى ... » . طلب من زوجته أن تتسلل إلى الخارج دون أن يراها أحد . لقد كان العار أشد وطأة على النفس من المأساة . غطت الزوجة الشابة رأسها بغطاء للرأس ونفذت ما طلب منها دون أن تقول إنها تعرف ما سوف يقوله لى . « كان من المستحيل أيضا شراء فوط صحية . لم تكن توجد حبة سكر واحدة . وهنا يعيش نصف الناس تحت خط الفقر ومع ذلك فهى مدينة مزدهرة وحديثة ولكن دون روح . حياة جافة . كثير من النساء العراقيات أصبحن الأب والأم للأطفال ، فالنساء هن اللائى يعانين وحدهن » .

وفجأة ، وجه سؤالا ثم ظهر عليه القلق وأعقبه صمت وأخيرا جاء الطلب : « هل لديك النية أن تستشهدى بنا وتذكرينا ؟ ماذا ستفعلين بتلك المعلومات ؟ وما هى الضمانات لدينا ؟ وكيف نثق بك ؟ كان يجب ألا نعترف لك بأية حال من الأحوال .. نرجوك ونتوسل إليك ألا تذكرى شيئا يتيح إمكانية التعرف على هويتنا ... » .

الفصل الثالث عشر

العودة

فى كل مرة يتم فيها الرحيل يتحطم القلب أسى وحزنًا على فراق الأحبة ، مع وعد بالعودة مرة أخرى .

الثلاثاء ، ليلة السفر

مضى الوقت بسرعة رهيبة تجعل الإنسان يفقد توازنه فى المدينة التى تتسم بالبطء ، وذلك بسبب المواعيد والزيارات التى تتم فى آخر لحظة والقيام ببعض المشتريات .

الثلاثاء ، حرارة الصيف الملتهبة ، وغدا الأتوبيس السريع والعودة . يوم ملىء من أول الصباح حتى الليل . توقفت فى صالة عرض دجلة أودع زينب، ثم إلى صالة عرض "أبو نواس" لأنظر الطباعة الحجرية لإسماعيل فتاح ، وقبلهما إلى السفارة الفرنسية . بعد ذلك ذهبت إلى حى المنصور لأنى نسيت جهاز الفيديو لنسخ الحديث الذى أجراه سعد الكابى . أسرعت لمقابلة إريك فولت حسب الموعد ، حيث كان فى قمة الانشغال والتحدث بالهاتف مع قناة CNN الإخبارية وقناة BBC البريطانية وانهماكه فى الملفات التى أمامه .

قابلت مصادفة أحد خبراء الأمم المتحدة فى مجال الزراعة وهو فى مهمة منذ ثمانية عشر شهرا ومسجل على قائمة الخبراء الملحقين بوزارة الزراعة. والسؤال الآن.. ماذا فعل فى العراق ؟ كنت أود أن أعرف الكثير عنه . وظاهريا ، يبدو أنه مهتم بعمله

« أى مجتمع صناعى لم ينمُ ويتطور دون أن يزدهر ويتقدم قطاعه الزراعى ، فالتاريخ لا يكذب » . ومن المؤكد أن راتبه السخى الذى يحصل عليه هو مبعث حماسته .

قضيت السهرة الأخيرة لدى قاسم ، وكان من المفروض أن ينهى قاسم إجراءات سفره لنسافر سويا ولكن ظهرت صعوبات فى السفارة الفرنسية وفى جهاز المخابرات العراقية والملفات المفقودة فى خفايا المصالح المختلفة ، رغم بدء الإجراءات قبل ستة أشهر ، والشروط الجديدة التى طبقت على خروج الفنانين والضرائب الباهظة التى عليهم أن يدفعوها قبل الموافقة على الخروج والإعفاءات التى تأخرت ، ويوم الجمعة تتعطل فيه المصالح والوزارات ولا يتم عمل أى شىء قبل يوم الأحد ، وكنت قد حجزت مقعدا فى الأتوبيس السريع الذى يغادر بغداد مساء الأربعاء وتستمر الرحلة ١٤ ساعة فى قيظ الصحراء .

لدى قاسم موديل كانت تتميز برشاقة تؤهلها لإنجاز أعمال فنية كثيرة ، ولكنها حملت ثلاث مرات مما أفقدها رشاقتها ، وحاليا تقوم بالسهر على قاسم وعائلته . وهناك تساؤلات ... إذ كيف يمكن لامرأة أن تعيش بدون زواج وبدون أطفال ؟ لأن أى امرأة فى حاجة إلى أطفال لتمارس أمومتها ولا تتخيل الحياة بدون أطفال .

وفى العراق ، فإن المرأة غير المتزوجة محكوم عليها بالعذرية تحت سقف العائلة . ومع ذلك ، فهناك بعض الاستثناءات . فكيف يمكن إدراكها ؟ إن ضغط ظروف الحياة قد ساعد على التخفيف من التمسك بالسلوك والآداب ، فكثيرا ما يحدث لقاسم أن تغازله الطالبات ويأتين إليه صدورهن عاريات لرفع درجاتهن أو النجاح لسنة دراسية أعلى ، لكنه يرفض أن يورط نفسه فى فضائح إضافية . وتحدث إلىَّ عن الخزف المكسور ويقصد بذلك فض عذرية الفتاة وهو شىء مقدس فى العراق . وهكذا يمكن القول إن سلوك النساء انحدر أمام الفقر والبؤس . فكيف تنزلق المرأة ؟ إن الانحدار نحو البغاء ما هو إلا فقدان الروح والجسد واحترام الإنسان لذاته . جو خطير فى ظلام الليل وعلى أضواء الشموع لانقطاع الكهرباء . فى هذا الركن من الشارع افتتح قاسم كافيتريا بالقرب من أكاديمية الفنون الجميلة حيث يتواجد فيها المدرسون

والفنانون والطلاب بعد انتهاء المحاضرات، وتتاح فرص كثيرة للمقابلات وكل يوم يحمل في طياته مفاجأة ولقاء جديداً . والسمة السائدة في أوساط الطلبة والطالبات هي الفقر والبؤس ، وميزانياتهم معدومة .

٢٢ أغسطس ١٩٩٨ . العودة

في محطة اللعوي للسفريات بالبر ، تختلط الدموع بالعرق ، ومرة أخرى أرحل ولكن في هذه المرة أسافر وحيدة ، ومرة أخرى أجد نفسي أبكي ، والجميع حولي يبكون وصراخ الأطفال يملأ المكان . تحركت السيارة ببطء وفتحت أبواب المحطة . لحظات الوداع والفراق مؤلمة . إنني أعرف تقاطع الطريق الذي يؤدي إلى بيت أصدقائي ، شارع ١٤ تموز (يوليو) . قبل ساعة ، كنت في هذا المكان أتسلم خطابات وتمراً لتسليمها لأصدقاء في باريس أو لأفراد أسرة مشتتة . إن لحظة الوداع أليمة على النفس ، فلم أعد أرى شيئًا .. لا أشجار النخيل المغلفة بالأتربة ولا المدينة ولا المنازل المنخفضة داخل الحدائق ولا الأدخنة ولا القصور الخاصة بالأغنياء الجدد . إننا الآن نغوص في أعماق الصحراء باتجاه الحدود . كان الجو شديد الحرارة واتجهت إلى المقاعد الخلفية من السيارة لأمدد أرجلي على مقعد آخر خال .

ورغم المخاطر التي يتعرض لها المسافرون عبر الصحراء من قطاع الطرق ليلا ، فإنهم يفضلون السفر بالليل حتى لا تنفجر إطارات السيارات من شدة الحرارة نهارا . شاهدت فجأة قطيعا من الماعز والأغنام في قلب الصحراء ، ماذا يفعل هذا القطيع في هذا المكان ، وعلى أي شيء يتغذى ولا يوجد سوى الرمال والحصى ؟ فلا توجد أية خيمة أو مأوى يحميهم . شاهدت سيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر العراقي وهي سيارة فرنسية ، وكانت فرنسا قد سلمت العراق أربعين سيارة إسعاف إلا أن الأونيسكوم **UNSCOM** قد رفض التصريح باستيراد إطارات لتلك السيارات . في الصحراء هناك كلمات ومعان ، وكل علامة يمكن تفسيرها . فعلى الحدود ، توجد مئات الشاحنات ذات الصهاريج في انتظار عبورها ، شاحنات نقل بترول عبر الطريق البري وأيضا لنقل المياه ، وقد علمت ذلك فيما بعد بأنها متجهة إلى الأردن كمياه للشرب .

امرأة غريبة وحيدة فى الأتوبيس السريع أثار الفضول والنظرات ، فبعد البكاء والدموع كنت أحتاج قدرا من الوقت حتى تهدأ نفسيتى ، خاصة وأن السيارة غير مريحة رغم أنها جديدة ويعمل جهاز التكييف عند تشغيل السيارة لكن حرارة الجو شديدة خاصة عندما ترتفع الشمس فى السماء تجعله غير قادر على التحكم فى تلك الحرارة التى تصل إلى ٦٠ درجة مئوية فى الظل . بعد فترة ، بدأ البعض يوجه أسئلة لى ويسألونى عن أسباب زيارتى ، وأعربوا عن دهشتهم عندما علموا بأنى أقيم فى منزل خاص وليس فى فندق مخصص للأجانب ، وعما إذا كنت متزوجة ولدى أطفال وكم عددهم ؟ ولماذا أتيت إلى العراق ؟ كان الكتاب معى فى يدى فأظهرته لهم وأيضا الكراسة التى أدون فيها ملاحظاتى . ذكرت لهم أنى بصدد تأليف كتاب آخر ولكن عن أطفال العراق ، وهنا انفرجت أساريرهم وتبدل الحزن إلى ابتسامة عريضة وبدأوا فى ملاطفتى والعناية بى ، ويشعرون بالقلق تجاهى من الإجراءات التى ستقابلنى لكنهم سوف يساعدوننى . وبدأوا يضحكون عندما وصفت نفسى بأنى مجنونة لأنى أقضى إجازتى كل عام فى العراق منذ ثمانى سنوات . لكن أنزل ضيفة وأكون محل رعاية وحماية ، ورغم المحن التى مرت بهم ، فإنهم يكنون احتراما شديدا للأجنبى .

سألتنى موظفة الجمارك .

– « فى أى فندق كنت تقيمين ؟

– لم أكن أقيم بأى فندق ، ولكن عند أصدقائى ، المختار ...

– نعم ، صلاح المختار ؟

– لا ، مصطفى المختار ، ابن عمه ، ونصرة السعدون ، صديقتى ... » .

انفرجت الأسارير تنم عن ابتسامة عريضة ؛ فأنا جزء من العائلة . وفجأة اختُصرت الإجراءات ، « لا مشكلة بالنسبة للكاميرا التى معك » .

ولم يتم كذلك تفتيش الحقيبة، ولم يُطلب منى تقديم الأوراق التى تسمح لى بإخراج « آدم وحواء » من بلاد ما بين النهرين ، إضافة إلى السجادة ثقيلة الوزن ، ولا الوثائق المصدق عليها لإخراج الفيديو من لجنة فرض العقوبات UNSCOM ، وكتب أكاديمية

العلوم لصديقى فيصل الذى يرأس سرا فى سوريا والأردن لجنة المثقفين العرب لمساندة أطفال العراق ، كذلك لم يطلعوا على وثائق الأمم المتحدة الصادرة عن المتحدث الرسمى للبعثة الإنسانية ... وبالنسبة للعراقيين ، لابد لكل واحد منهم من أن يضع داخل جواز سفره ورقة بخمسمائة دينار عند أول تفتيش ، فالدولة تريد أن تحصل على المال والعملات الصعبة بكل الوسائل .

تحمل ساعات الانتظار الطويلة على الحدود عدة مفاجآت . فقد نزل رجل عجوز من سيارته الخاصة وزوجته بجانبه ترتدى ملابس سوداء بالكامل ، كان يحمل فى يده مجموعة من اللوحات مربوطة بعناية شديدة . سألته : « هل أنت فنان ؟ نعم أنا نورالدين أدهم وهذا هو كتالوج معرضى » . يا لها من فرصة ، إنه أحد أساتذة الفن العراقى المعاصر ، وأغلب الفنانين المعترف بهم كانوا تلاميذه ولم تتح لى الفرصة للتعرف عليه . إنه أستاذ متحفظ ، كتوم ومجتهد . « أتوجه إلى عمَّان لإقامة معرضى ، حيث انتهيت من المعرض الذى أقيم فى بغداد ، ولابد من دفع ضريبة استثنائية عن كل لوحة من لوحاتى » . سألته عن فنه وعن الاتجاهات الفنية بالعراق فقال : « أُدخل الفراغ فى لوحاتى والمساحة البيضاء فى السابق على جوانب العمل الفنى ، وهى طريقة لفتح نوع من الاتصال مع الجدار والحامل ، والآن تم إدخال الفراغ إلى داخل العمل الفنى ، فهو يذكر بالقطع السومرية التى فقدت أو كسرت أو رتقت . الفراغ وجراح العراق من الذاكرة . إن الفن العراقى المعاصر هو أكثر الفنون انتشاراً فى العالم وهو معترف به فى بلاد الشرق مثل اليابان أو الصين . وسوف يكون أفضل بكثير لو استخدمنا مواداً حديثة ، ولكن الفن فى رأس الفنان وليس فى المادة المستخدمة . فالعراقيون ذوو طباع مختلفة ، فهم يعملون طول الوقت وينتجون أشياء ممتازة من رسم ونحت وشعر لأن الفن فى رءوسنا . فالذهن هو المحرك الأول ، أما المادة فهى عامل يساعد على زيادة نموه . وخذى مثلا بيكاسو ، فأثناء الحرب العالمية الثانية أنتج أروع لوحاته الفنية وهى الفترة الزرقاء . وهو الوضع نفسه حالياً بالنسبة للفنانين العراقيين » .

ويتميز نورالدين بروح الدعابة والنقد . « يتميز الفنانون العراقيون بأنهم ثرثارون يتكلمون أكثر مما يعملون ويقضون وقتهم فى مهاجمة الآخرين وسبهم ، لدينا عمل لابد من تأديته . علينا أن نبحث فى أعماق جذورنا وفى المسالك الجديدة للفن التجريدى ،

إنه عمل صعب وعاجل ومهم . ربما تكون مدرستنا الأكثر تقدما فى العالم فى هذا المجال . لقد قُطع عنا كل شىء ، فعلينا أن نبحث داخل أنفسنا . إننا نلاحظ محاولة للعودة إلى الفن التصويرى ، وربما يكون ذلك تحت ضغط الأحداث وظروف الحياة ، تقريباً مثلما حدث فى بلاد الشرق عندما عادوا إلى الفن الواقعى ، ولا يمكن التحدث عن الفن فى هذا الصدد . فابنتى تعيش فى بولندا وهى متزوجة هناك وتوجد مدرسة ممتازة للفن هناك . أما الأغنياء الجدد فهم كارثة ووبال على بلدنا . . . فقد جذبوا معهم الذوق الهابط والأموال والفساد وموت الثقافة » .

عمَّان

يفاجئنى فى كل مرة اللون الأبيض الذى يغمر المدينة بمنازلها المبنية بالحجر الأبيض ، وتنحدر علي التلال والجبال السبعة التى تتحول إلى سلسلة متصلة للانتقال داخل المدينة ، وفى الصباح الباكر تشرق الشمس بأشعتها الذهبية فتنعكس على المبانى والعمارات التى يكسوها اللون الأبيض فتعطى نعومة وحلاوة تبعثان على الهدوء بعد التلوث الذى عشته فى بغداد ومحنة السفر عبر الصحراء . تعيش المدينة فى رخاء كبير قام على ثلاث كوارث عربية : إبعاد الفلسطينيين ، والحرب اللبنانية ، وأخيراً حرب الخليج . وهناك أيضا القاسم المشترك : المشكلة الخانقة ، الأمريكية - الصهيونية .

أوصلنى تاكسى إلى فندق صغير هادئ غير بعيد عن وسط المدينة الإستراتيجى . حيث ينزل فيه عدد كبير من العراقيين ؛ لأن سعره معقول . أصبحت معروفة هناك وحجزوا لى جناحاً لشخص واحد . سأقوم بالاتصال تليفونيا بأصدقائى مع الانتباه لتغيير الساعة حسب التوقيت الصيفى ، فهى الآن فى بغداد الثامنة صباحاً بينما فى عمان السابعة صباحاً ، لم أتمكن من إخطار فيصل بوصولى ، فالخطوط التليفونية فى بغداد لا توصل المكالمات . اليوم هو الخميس وسوف يأتى فيصل لقضاء اليوم سويا لأن توزيع وقته فى عمله بوصفه صحفيا وناقداً أدبيا متشابك ، وسوف نلتقى غدا الجمعة حيث إنه يوم إجازة أسبوعية .

« أحسنت صنعا بنزولك فى فندق حيث تتوفر المياه » قالها لى فيصل . وفى السادسة صباحًا استيقظت على صوت موتور مزعج تحت الشباك ، إذ جاءت شاحنة بصهريج لتسليم الفندق المياه اللازمة له طوال اليوم ، فلم تعد المياه متوفرة فى عمان لأن الصيف ساعد على نضوب الينابيع وأسعار المياه نار ، فالمائة لتر من المياه الصالحة للشرب بستة وعشرين دينارًا أردنيا ، وكل ستة دنانير تعادل ٢٦٠ فرنكا . تتسلم الأردن المياه من إسرائيل بموجب عقد مع المملكة الأردنية الهاشمية ، وبذا تقوم إسرائيل بتسليم المياه لكنها مياه غير صالحة للشرب أو الاستهلاك ، أما المياه الصالحة للشرب فتصل من بغداد . ولذا فإن الشاحنات ذات الصهاريج التى كانت تقف فى صف طويل بشكل غير عادى وقدرت عددها بأكثر من مائة ، كنت أعتقد أنها كلها محملة بالبترول لكن اتضح أن جزءًا كبيرًا منها محمل بالمياه . تعيش العراق تحت نظام قطع المياه الصالحة للشرب ، فالعلاقات مع تركيا – وهى قاعدة أمريكية أخرى فى المنطقة – تتسم بالتوتر بسبب المياه المحتجزة خلف السدود التى أقامتها تركيا فى أراضيها على منابع دجلة والفرات .

وفى عمَّان ، يصطف الناس فى طوابير منذ الساعة الرابعة صباحًا عند منافذ توزيع المياه الصالحة للشرب . يوصف فيصل بأنه فظ وواقعى بصورة قاسية وناقد بصورة علنية وحادة بحيث لا يترك شيئا يمر . « المياه الأمريكية والصهيونية . . . مع تآمر الأنظمة فى ليبيا والعراق والأردن وسوريا . هذه البلاد غنية ، أما شعوبها ، فهى فى وضع مأساوى . وفى عام ١٩٨٠ كان مرتب المدرس يصل إلى ألف دينار والآن لا يتعدى مائة دينار ، وفى بنجلاديش مرتب المدرس ٦٠٠ دينار . إن المفاهيم الخاصة بالتحليل العلمى لا تسير فى الطريق السليم ، فهناك عملية حقيقية لإبادة العرب ، ونحن فى عصرٍ المال هو كل شىء . . هو سيد الموقف ، فهذا الحى غنى ، والحى الذى بجانبه أناس متدينون. فلا توجد أية رابطة ممكنة بينهما . ولا يوجد أى مستقبل سوى الإذلال ، الشىء نفسه يوجد فى دمشق أو الجزائر أو تونس . ينبغى علىَّ الآن أن أنطلق إلى دراسة متعمقة عن العقلية العربية . لقد فقدنا كل معنى للكرامة . فمنذ أشهر والعرب يشربون مياه إسرائيل القذرة ، ولم يحدث أى احتجاج على ذلك أو أية مظاهرة . فهذا أمر لا يطاق . فعلى عهد الإنجليز والفرنسيين كان هناك على

الأقل معالم ونقاط استدلال واضحة وقانون وسجن وثقافة . وأمكن التملص من النفوذ العثمانى » . وفى بغداد ، يحدث أن البعض يتحسر على أيام الإمبراطورية العثمانية ، البنية الأساسية والثقافة هدما بفعل الاستعمار البريطانى ، والنتائج نراها الآن فى المنطقة الجاثمة تحت الوصاية الأمريكية .

ظل فيصل الفلسطينى الذى سُلخ حيا ، فقد طُرد من لبنان فى أعقاب الحرب التى شنتها إسرائيل عام ١٩٨٢ ، وفقد منصبه كأستاذ ورئيس قسم الفلسفة والعلوم السياسية بالجامعة ، والاتجاه نحو عمّان ثم إلى دمشق حيث عاش فى مخيم اليرموك ، فالحياة هناك قاسية ، بل بائسة . وهو معروف الآن بأنه ناقد أدبى . وكان قد قضى سنوات طويلة للدراسة فى السوربون حيث كون شبكات للمقاومة السياسية وكان يعتقد أنه بإمكانه زعزعة منطقة الاحتلال الصهيونى للمنطقة وحق العودة للفلسطينيين . كما لم يضع فى حساباته حرب ١٩٦٧ وما ترتب عليها ، ثم مأساة أيلول الأسود عام ١٩٧٠ فى عمان عندما سحق الجيش الأردنى أفراد المقاومة الفلسطينية ، وحرب لبنان وإبادة المخيمات الفلسطينية بالطائرات الإسرائيلية بالتآمر مع قوات الكتائب اللبنانية المسيحية ، وكارثة صبرا وشاتيلا واتفاقيات كامب ديفيد . حياة كلها هزائم وحداد وموت وإذلال . هل فقد العرب كرامتهم بالكامل ؟ ثم جاءت حرب الخليج فدفنت آخر أمل ، ثم اتفاق أوسلو ومؤتمر مدريد . « لماذا تخفى السلطات العراقية حقيقة المعاناة التى يعيشها الشعب العراقى عن العالم ؟ . . إنها سياسة مخطط لها من قبل تتمثل فى إبادة العرب .. » . وجه فيصل مبادرة لإنشاء لجنة للمثقفين العرب لحماية الأطفال العراقيين فى سوريا والأردن ومصر مغامراً بحياته ، وفى سوريا تلقى تهديدات بالقتل وتخلى عنه الأصدقاء وشعر أنه وحيد وتجرع المرارة .

لا يخرج الإنسان سليماً معافًى

كثير من المقابلات أعطت انطباعات غريبة ومستهجنة ، كما أن الإقامة فى العراق تجعل الأوروبى أسيراً ومقيداً ، خاصة إذا حضر بدون دعوة . فيليب إسبوزيتو جاء إلى السفارة الفرنسية ببغداد فى وظيفة لمدة ستة أشهر وهو من رجال الحرس الفرنسى . كان يقضى وقته فى استقبال المترددين على السفارة . تبادلت معه بعض كلمات :

كيف تعيش حياتك هنا ؟ ما هى نظرتك لوضع هذا البلد الذى لا تعرفه ؟ كان قد طُلب منه أن يحزم حقائبه على عجل ويتوجه إلى بغداد . ولكنه عض أصابع الندم . فالسفارة لا تفرغ من المترددين عليها ، من طلبات تأشيرة دخول وملفات وعقود ورجال أعمال وفنانين ومشاريع فنية وصناعية وجامعية وثقافية . . كل ذلك يمر عبر السفارة باتجاه وزارة الخارجية الفرنسية ووزارات أخرى . يصطف الناس فى طوابير أمام السفارة انتظارا لتحديد موعد ، كما اختير محاضرا بالمركز الثقافى الفرنسى لسد النقص فى هيئة التدريس . اضطربت حياته نتيجة اللقاء مع الطلاب بمثل تلك الكثافة وروابط الصداقة السريعة والصفات التى يتميز بها العراقيون كالإخلاص والمودة والمحافظة على الأسرار والاعتراف باليأس والرغبة العارمة للمعيشة والبقاء على قيد الحياة مهما كانت التضحيات وقوتهم وعنادهم وإصرارهم على العمل ، هذا إلى جانب كنوز الثقافة التى يجهلها بالكامل . يتحدث فيليب عنها والدموع تملأ عينيه ، فقد وصلت مهمته إلى نهايتها ، لكن ليس لديه أية رغبة فى الرحيل ، ففى الأسبوع التالى سيكون قد رحل ومعه الحقيبة الدبلوماسية . وأكد زميله أن دموعه الحارة كانت تغطى وجهه عند الرحيل .

اصطحبت معى صديقات أثناء الرحلة . ففى شهر أبريل عام ١٩٩٨ م ، جاءت معى كلود الصحفية لتعيش أحداث المغامرة العراقية . وهى امرأة ذات جمال أخاذ تتسم بالكبرياء والغطرسة والزهو بنفسها ، كما أنها شعلة نشاط وعمل ودقة لا مثيل لها ولديها قدرة فائقة على الإقناع ، تتمسك بأخلاقيات الحياة والسلوك القويم دون أى تنازل . تتردد فى دهاليز الجمهورية وينصت إليها الجميع باحترام فهى تجيد التحدث إلى الجميع ، والصحافة مهنتها الأصلية ويؤدى عملها هذا إلى تكوين علاقات مكثفة لكنها لا تستخدمها لأغراض شخصية . سافرت إلى بغداد لمقابلة بعض الأصدقاء بخلاف أصدقائى . كانت رحلتنا ممتعة ومريحة وتلقينا المساعدة من أعلى المستويات لدرجة أن كل الأمور سارت بيسر وسهولة . كانت كلود محط أنظار الجميع فى بغداد لأن هيبتها ووقارها وتميزها كان محط إعجاب الجميع . ولم أكن بجانبها سوى ظل وصورة باهتة ، رجعنا مع السائق نفسه ، والسيارة والراحة والتكاليف نفسها . وطوال الرحلة ، كانت كلود ممددة على المقعد الخلفى للسيارة ، ومن الصعب أن أفرق

بين التعب والشعور بالكآبة . كان الوصول إلى عمان سيئا للغاية وتركتها فى وسط المدينة . وفى اليوم التالى وصلت إلى المطار ووجهها متغير وشاحب ودون أى مساحيق تجميل ومنكسرة .

« كانت حالتى الصحية رديئة إلى أقصى درجة ، ولم أتمالك نفسى من القيء المتواصل واضطررت إلى إيقاف السيارة عدة مرات لأفرغ ما فى بطنى على قارعة الطريق ... » ، ولم أعد أتابع أخبارها . وعرفت بعد ذلك أن لقاء رسميا تم بين القائم بالأعمال العراقى بباريس مع المستشار الشخصى للرئيس شيراك .

جليلة . صديقة أخرى ، جزائرية ، وهى المسئولة الثقافية وتعيش فى باريس . توجهت إلى بغداد للمرة الأولى فى سبتمبر عام ١٩٩٨ بمناسبة مهرجان بابل وكلها نشاط وحيوية ومعها كتب وشرائط تسجيل ووثائق وهدايا . ولكن بعد أسبوعين عادت أدراجها وشعرت بالانزعاج عندما سمعت صوتها المتوتر . وبعد أن استراحت عدة أيام استأنفت عملها كموظفة ملتزمة فى باريس . وأخبرتنى أنها بعد وصولها بأسبوع ، أصيبت بأنفلونزا حادة لم تستطع مقاومتها واضطرت للبقاء فى الفراش .

دوروثيه ورنر كان عليها أن تتوجه إلى بغداد لإعداد تقرير لجريدة « هى » فى أرض مجهولة ، وكانت قد قرأت كتابى وطلبت مقابلتى والتقينا مرات محدودة قبل سفرها لأنى دائمًا أشعر بعدم الثقة تجاه الصحفيين كما لم أبادلها الود ، ولكنى أعطيتها عناوين صديقاتى فى بغداد حيث كانت نصرة ونرمين ومارى فى انتظارها لتسهيل إقامتها . وعندما عادت اتصلت بى تليفونيا ووجدتها تشعر بالسأم والضيق والتعب ، وأنها تعرضت لمضايقات نتيجة الأزمة التى أوجدتها لجنة فرض العقوبات **UNSCOM** التابعة للأمم المتحدة على العراق فى نوفمبر ١٩٩٨ ، كما واجهت تهديدات وشعرت بالخوف.ولم تستطع أن تفسر الابتسامات الماكرة والساخرة من جانب العراقيين ومسلكهم الذى ينم عن عدم التأثر وهدوء الأعصاب وهياج السلطات الغربية وتعليمات الأمن وإجراءات فرض إقامتها الجبرية بالفنادق للحجر الصحى وحرب الأعصاب التى تعرضت لها التى لا يتحملها أى شخص قادم من الغرب، قامت دوروثيه بعملها بخشونة وبصورة مختصرة وبسرعة خاطفة ، وبعد عودتها لزمت الفراش لمدة أسبوعين على أثر مرض ألمّ بها .

باريس

ساعدت الحرارة الشديدة لجو بغداد على تخفيف حدة الآلام الروماتيزمية التى كنت أعانى منها فى باريس ، وكانت قدمى قد انزلقت على الحدود الأردنية ورجعت إلى باريس وأنا أتألم حيث تورمت القدم ، لم أجد مكانا خاليا على الطائرة المتجهة مباشرة إلى باريس فنزلت أمستردام بهولندا وأخذت القطار ، وكان علىَّ أن أقوم بعدة تغييرات لأصل إلى محطة الشمال فى باريس وأدى ذلك إلى قضاء الليل بأكمله دون نوم أو راحة . استقليت سيارة أجرة ، المسافة معروفة ومحددة السعر لكن السائق أخذ يحصى الحقائب التى معى ومنها كيس بلاستيك صغير بيدى وبداخله شتلة لشجيرة ليمون اعتبرها حقيبة ، وأخذ على كل حقيبة بما فيها الكيس ستة فرنكات . إننى أكره سيارات الأجرة قدر كرهى للحدود ومشاكلها .

قمت بزراعة شتلة الليمون فى حوض خشبى على شباك غرفتى ، وبعد فترة أزهرت وغمرت الشباك بأوراقها حتى لكأنها ستارة مصغرة ، وكل صباح أقطف بعضا من أوراقها المعطرة وأضعها فى كوب الشاى فأتذوق نفس طعم الشاى الذى كنت أشربه فى حى المنصور . وأصبح كوب الشاى هذا يجعلنى أتقاسم مع أصدقائى عن بُعدٍ الذكرياتِ التى عشتها معهم فى بغداد ، تحت تهديد القصف بالقنابل الأمريكية .

الفصل الرابع عشر

تنويه فى آخر الكتاب

وأسقطت القنابل

تقوم الأمم المتحدة بالدور الإنسانى، بينما ينحصر دور الولايات المتحدة فى توجيه الضربات العسكرية .

البنتاجون

ديسمبر ١٩٩٨

لقد أسقطوا القنابل ، ففى ديسمبر ١٩٩٨ ، سقط أكثر من ٤٠٠ صاروخ فى ثلاث ليال على بغداد ومناطق أخرى داخل العراق . وهو ما يعادل أكثر من أربعة أضعاف ما أسقط فى ٤٢ يوماً أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وامتلأت الشوارع بحفر عميقة من أثر القنابل ، وكذلك المدارس والمستشفيات والمبانى العامة والجامعات وبعض القصور الرئاسية والمراكز العسكرية . ساد الخراب مرة أخرى كل مكان . تطاير زجاج النوافذ ، وساد الخوف والفزع داخل المنازل ، وهدمت مساكن ، وطار النوم من أعين الجميع من هول القنابل .

وفى مصر ، عقدت اجتماعات حاشدة وصاخبة اشترك فيها جميع الأحزاب السياسية والفنانون والمثقفون والممثلون والممثلات والكتاب ، وكانت القائمة غاصة بالأسماء، وطالب الجميع بتغيير السياسة تجاه العراق واستئناف العلاقات الدبلوماسية مع هذه الدولة ، وكان التضامن الشعبى بالإجماع ، ووجهت الأحزاب السياسية خطاباً إلى الحكومة تطالب بتغيير السياسة تجاه العراق ، بل وأيضا طرد السفير الأمريكى .

وحدث الشيء نفسه في دمشق ، حيث أشعلت النار في مقر السفارة الأمريكية . وفي فلسطين ، لم تخل قرية من المظاهرات اليومية ، وأحرق العلم الأمريكي في كل مكان .

أما عمَّان ، فقد احتلتها قوات الشرطة التي سيطرت على الروح الانتقامية التي سادت أوساط الشعب ، وألقيت كلمات حماسية عنيفة داخل البرلمان الأردني ، ولكن التواجد الأمني في شوارع عمّان والقاهرة والرباط ساعد على السيطرة على الغضب الشعبي العربي وعدم استمراريته . وحدثت تجمعات وهتافات وحرق أعلام واجتماعات وأرسلوا خطابات إلى رؤساء الحكومات ، فهل بعثت الأمة العربية من جديد من تحت الرماد ؟ أم عودة مرة أخرى إلى الكبت ؟ وتابع الأمريكان هذه المواقف . . وفي إيطاليا أيضا ، قامت مظاهرة ضخمة « كل عام أنتم موضع اتهام ، كل عام أنتم مدانون » ، وفي لندن ، «لا ، لا ، لا» كتبت على شارات حملها الناس ، وفي بلچيكا ، صاح وزير الخارجية بصوت عال : « إن هذا العمل لهو دلالة على هزيمة الأمم المتحدة وشهادة بوفاتها » . وفي سوريا ، تدفقت الجموع في الشوارع وتسلقوا الجدران وأشعلوا النار في مقر السفارة الأمريكية وانتشرت النيران إلى المركز الثقافي البريطاني . وهذه العملية تمت بموافقة الحكومة ، فهل للضغط على إسرائيل ؟ احترق العلم الأمريكي حتى بعد توقف القصف . وقام المغني العراقي الحائز على « جائزة اليونسكو » بالغناء لمعاناة الأطفال العراقيين . ويوم الجمعة تحولت الصلاة في مصر إلى موجة عارمة من الغضب ، وقامت في بيروت مظاهرة أخرى وتكررت عدة أيام . واحتجت ليلى خالد المناضلة الفلسطينية من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين FPLP بأعلى صوتها وقالت : « رغم القصف بالقنابل ، فإن العراقيين سيقاومون ، يمكنهم تدمير البنايات ولكن لن يدمروا الروح العراقية ، الأطفال الفلسطينيون مع الأطفال العراقيين » . وحُملت صور صدام حسين في غزة وفي بيروت أيضا .

«ڤيتنام – فلسطين – العراق» ، «شكراً على هدية عيد الميلاد أيها الثعلب الماكر» ، وفي فرنسا : « ألا يكفيك موت مليون ونصف ؟ » ، وفي لندن أُحرق العلم الإسرائيلي والعلم الأمريكي . وفي عمان أعرب ابن الملك حسين عن أسفه وقال : « أول شيء

فى الحقوق الإنسانية للعراق هو أن يعيش ويوفر له العلاج اللازم وأن يكون موضع رعاية » ، وظهر أحد أعيان العراق فى التليفزيون الأردنى وهو صلاح المختار وتحدث بوجه صارم وجاد قائلاً : « من المستحيل أن يكون بحوزتنا قنابل ، وهذا أمر واضح » .

بغداد ، مرة أخرى

لقد قررت أن أسافر مرة أخرى ، انتظرت التأشيرة وأخرت موعد السفر بالطائرة لأن الحدود أغلقت عدة أيام . السماء صافية فى الصحراء والنجوم ساطعة . قضيت ليلة عيد رأس السنة فى الصحراء داخل الأتوبيس الچيت حيث وصلت بغداد صباح يوم ٢٥ ديسمبر وأنا فى حالة ذهول . فبعد ليلة من الإنهاك والتعب ، وأمام إلحاح موظفى الجمارك العراقية ، دفعت ما يريدونه علنا رغم أنى أنفقت الجزء الأكبر من الدولارات التى كانت بحوزتى فى الفندق بعمَّان . وصلت بغداد فى الصباح الباكر ، ووجدتها شبه مظلمة ومهجورة ، وفى حالة صدمة عنيفة من أثر القنابل طوال الليلتين السابقتين . استقليت سيارة أجرة وطلب السائق خمسة آلاف دينار ، وكانت الشوارع خالية ومهجورة حيث اليوم هو الجمعة وفى شهر رمضان . أيقظت دعاء ووجدت مصطفى فى حالة نفسية سيئة . ضيق ؟ غضب ؟ الدم يغلى فى عروقه ؟ عدة ليال قضاها بدون نوم ؟ وقد بدأ شهر رمضان حيث لا يمكنه أن يدخن قبل الساعة الخامسة مساءً ، وهو ما جعله فى حالة عصبية شديدة ، ولم أشاهده مطلقًا قبل ذلك فى مثل تلك الحالة من التوتر والضيق والغيظ ، ولم أتمكن من أخذ حمام لأن التيار الكهربائى مقطوع مرة أخرى ، ويتكرر السيناريو نفسه كل يوم ، خمس ساعات من انقطاع التيار الكهربائى فى أوقات مختلفة .

حضرت ثريا للزيارة قبل الظهر وكان وجهها متجهما وباهتا والتجاعيد تغطى وجهها من هول المأساة . « لازلنا أحياء . . جميع الصواريخ التى أطلقت مرت فوق رءوسنا فى المنزل الذى نقيم فيه فى الكرَّادة . بقينا بالمنزل ، فأين نذهب ، جلسنا على السرير ننتظر الموت . . . وجاء أخى هاربًا من منزله الذى اهتز بعنف كأنه ارتفع

لأعلى على أثر تفريغ الهواء الناجم عن انفجار صاروخ حتى إنه اعتقد أن الصاروخ سقط فوق المنزل » .

انفجر الحزن المشوب بالإحباط . « ألا يكفينا ما نحن فيه من غم حتى يقصفونا بالقنابل ويبددوا سكون الليل ، وأحالوا السماء إلى خطوط متوهجة بالصواريخ مستهدفين القصور الرئاسية والنوادى الخاصة . ومرة أخرى ، تم إجلاء الأطفال إلى مناطق أكثر هدوءا على أطراف المدينة ، أما الكبار فلم يهتموا بالهرب أو حماية أنفسهم ، فما جدوى ذلك ؟ فلا يوجد أى مأوى يحمى من الصواريخ ، والكل يعرف ذلك منذ مأساة ملجأ العامرية للمدنيين ، طارت الحواجز المعدنية من أماكنها تحطم زجاج النوافذ المطلة على نهر دجلة ؛ لأن الصواريخ لم تكن بعيدة عن تلك الأماكن ، وغطى الحطام الحدائق المجاورة واهتزت المنازل بشدة ثلاث ليال متتالية ونجا من فيها من الموت بأعجوبة، وأصبحت الأجسام خائرة تتنفس الخوف واليأس والعجز والعبث الذى يضنى البشر كل يوم ويدمر نفوسهم وأعصابهم » ، « فى المرة الأولى كانت بسبب الكويت ، نعم . ولكن هذه المرة لماذا ؟ » ، « إنه الجنون عينه . . . لقد حطموا الجدران والمنازل والمستشفيات والبنايات . كل ما كنا قد شيدناه . . لماذا ؟ » .

لماذا ؟

لماذا ؟ هذا السؤال يلح بشدة ويوغر الصدور بالحنق . لماذا موت الأطفال فى المستشفيات ؟ لماذا حوالى مليونى قتيل فى ثمانى سنوات؟ لماذا ينقضى اليوم للعائلات الفقيرة دون أن تجد ما تقتات به ؟ لماذا هذه الأم التى لا تجد شيئًا تطعم به أطفالها فتوهمهم بأنها تعاقبهم وتجبرهم على النوم دون طعام ؟ لماذا هؤلاء الأطفال الذين تدهورت حالتهم ووصل بهم الأمر إلى التسول ؟ لماذا وقف الطبيب عاجزًا أمام الموت المبرمج ؟ لماذا يتجدد الموت الملح والشرعى نتيجة الإجراءات الأمريكية والهيئات التابعة للأمم المتحدة ؟ لماذا حالات التشوه والعجز فى الوجوه والأطراف من أثر اللوكيميا وأنواع السرطانات التى لم يتمكن أحد من علاجها ؟ لماذا يحرم الجميع من حق العيش فى سلام ؟ لماذا وضعت أمامهم عدة مستحيلات ؟ لماذا انتشر البؤس فى كل

مكان ؟ لماذا أصبح الأطفال فى الشوارع فى حالة يرثى لها .. حفاة عراة .. جوعانين ؟ لماذا بدد اليأس أحلام الشباب ؟ لماذا البؤس الشديد فى الجامعات ؟ لماذا حرمت العقول من غذائها الفكرى ؟ لماذا حرموا من الكتب والمجلات بل حتى من أقلام الرصاص والورق ؟ من الذى أصدر مرسوما بأن جرافيت الأقلام الرصاص يمكن استخدامه كأسلحة كيماوية وعسكرية ؟ لماذا قام خبراء الأونيسكوم UNSCOM بحرق الكتب والقواميس داخل الجامعات ؟ لماذا انقضّت الصواريخ على البنايات الخالية ؟ لماذا هدمت المستشفيات والمدارس والمنازل والجامعات وخربت الشوارع بالحفر ؟ لماذا هذه الأعداد من القتلى وأعداد أخرى ستلحق بهم ؟ لماذا ..؟ ...

لم تُلغ الاحتفالات بالزواج ولا حتى أعياد الميلاد .

كان الرقص يتم ليلا على أصوات قصف القنابل ... أغلقت المدارس ثلاثة أيام . وعند بزوغ الفجر ، تشاهد العائلات فى الشوارع ، والنساء والأطفال فى مجموعات يقومون بأعمالهم ، منهم من يتوجه إلى مكتبه أو المصنع أو الجامعة ولم يتجهوا إلى ملجأ ، فما جدوى ذلك ؟

ليلة رأس السنة ١٩٩٨ فى بغداد

تتسم الابتسامات بالوقار والجدية رغم كل شىء ، كما أن التعب والإعياء لا حدود لهما . ويوم وصولى ستكون ليلة عيد الميلاد ، وهى سهرة هادئة تذاع فيها الصلوات فى قنوات التليفزيون من جميع الكنائس المسيحية واللاتينية والأرثوذكية ، وحضرها رسول بابوى قدم إلى بغداد من الفاتيكان . كانت علامات الجدية والوقار على الوجوه والورع تتسم بالحزن . طغى طابع الحداد على مراسم الاحتفال بالعيد بل كأنه قداس جنائزى ، اختفت الابتسامات من الوجوه التى تعلوها الأحزان نتيجة المأساة التى يعيشها العراق . إلى متى تظل هذه المحنة ؟

كانت الكنيسة الأرثوذكية غاصة بالناس ، وكانوا ينشدون ويبكون العراق المضحَّى به . وفجأة تعرفت نصرة على وجه شاعر مسلم من بين الحضور ، وقد اعتاد المسلمون حضور صلاة منتصف الليل حيث يختلط المسيحيون والمسلمون فى أداء التراتيل يدفعهم ورع من نوع خاص فى هذا الجو المأساوى .

اتخذ عيد الميلاد هذا طابع الحزن نتيجة الظروف التى حدثت والقصف المتواصل قبل العيد مباشرة ، وكان مصطفى يبدو متذمرا بل ويرد التحية بصعوبة ، ولم أعد أراه طوال اليوم ، بل كان يغلق الغرفة على نفسه وينام لأنه محروم من التدخين حتى موعد الإفطار فى الساعة الخامسة مساءً . وفى المساء يدخن بشراهة لتعويض النقص فى النيكوتين طوال اليوم ، أما نصرة فإنها تبدأ منذ الصباح بالتدخين واحتساء القهوة .

هدأ قصف القنابل والصواريخ حتى إشعار آخر ، لكن القصف عاود نشاطه فى الشمال والجنوب حيث الغارات يوميا والقتلى كذلك والتدمير والخراب لا يتوقفان رغم التكذيب الأمريكى .

يتم البحث فى منطقة الجبال الكردية والمناطق المحيطة بالموصل وتمشيطها بدقة بحثًا عن طيار أمريكى أخذ أسيراً ، كما استمرت الغارات الجوية فى مناطق الحظر الجوى . إلا أن العراق قرر أن يرد على هذا الاعتداء بوسائل الدفاع الجوى .

أتوجه كل صباح مع نصرة إلى الوزارة وطوال اليوم أقوم بزيارات مقررة بمواعيد ، ويصاحبنى فى تلك الزيارات محمد المرافق لى . الابتسامات باهته على الشفاه فى كل مكان . . فى المكاتب أو الشوارع أو فى بيوت الصديقات ، وأعربت صديقاتى عن امتنانهن بل ودهشتهن لزيارتى فى هذه الظروف ، وبخلاف الصحفيين الغربيين المراسلين لوكالات الأنباء ، فإن التواجد الغربى كان نادراً ولم يكن يجرؤ أحد على السفر ؛ ولذلك كان وجودى ملفتًا للنظر ، بل إن موظفى الأمم المتحدة قد تم إجلاؤهم وكذلك موظفى السفارات ، وأى صحفى موجود عليه أن يسدد للوزارة ١٠٠ دولار يوميا ، ولكنى كنت معفاة من تلك الضريبة بأوامر من جهات عليا .

محمد رجل لطيف المعشر وخدوم . ويحب أن يتيح لى الفرصة لزيارة أماكن كثيرة ببغداد التى يعرفها جيداً ، فكنا كل يوم تقريبًا نتوقف فى صالة عرض قاسم السبتى لنستعيد نشاطنا حيث وجدت أغلب الفنانين منهمكين فى مباريات لا تنتهى من لعبة الدومينو منذ الصباح ؛ لقتل الوقت حتى موعد الإفطار ؛ وكذلك للبعد عن السأم والضيق .

توجهنا كذلك إلى جميل حمودى ونورالدين وزينب وليث والمتحف وصالات العرض ، أخذنى بعد ذلك إلى الأماكن التى تعرضت للقصف ، والحفر التى أحدثها انفجار القنابل التى تملأ الشوارع ومنازل منهارة فى حى الكرّادة وأسقف المبانى الجامعية وقد تهدمت ، والفندق مغلق أمام الزوار والوزارات أصابها الضرر .

وجدتهم يعالجون الجرحى فى صمت بعيداً عن الأضواء . فى ٣١ ديسمبر ، حدث تغير فى برنامجنا حيث اتجهنا إلى حى الكرّادة لمشاهدة مظاهرة يقوم بها الأطفال . تحولت أتوبيسات المدارس نحو الميدان فى صفوف متلاصقة ، تجمع الأطفال واصطفوا وهم يرتدون زى المدارس ويصاحبهم المعلمون والمعلمات وكل واحد بيده غصن وزهرة وباقة ورد وصورة لصدام حسين ، ويصيحون بغضب وضيق كما يمتدحون صدام .

الكنائس

« نحن فى وسط العاصفة وبإمكاننا أن نغرق فى كل لحظة » . بهذه الكلمات ، بدأت عظة الكنيسة الكلدانية فى اليوم الأول من يناير .

قمت بجولة إلى الكنائس المسيحية ومعى محمد ، فنى الكنيسة الأُرثوذكية وجدت الأب ألبير يتحدث الفرنسية ويعلق بمرارة على خطاب البابا الموجه للكنائس بمناسبة العام الجديد : اكتفى بشجب انتهاك حقوق الإنسان من قبل الحكومات والأفـراد . البؤس ساحق ولا خلاص منه . والحروب والأسلحة ليست حلا بأية حال من الأحوال . من يدفع الثمن ؟ إنهم الفقراء والمدنيون والناس البسطاء من عامة الشعب ، أما الكبار والأقوياء فإنهم بمأمن وفى حماية . تعود الحرب مرة أخرى بصورة متكررة . ولا يتقبل الغرب أعداد المهاجرين الذين يفرون من القهر والظلم . يأتى المسلمون إلى هذه الكنيسة للإفضاء بما فى داخل أنفسهم وللصلاة وللاستشارة حول موضوع من مواضيع أحلامهم ولتقديم النذور لمريم العذراء .

أما فى الكنيسة الكلدانية ، فقد بدا الأب يوسف حَبِّى متعبا ومريضا بسبب القصف لمدة ثلاث ليال ، والعوز الذى يعانى منه العراقيون والمكالمات الهاتفية التى جاءته من أنحاء مختلفة فى العالم ورسائل التضامن والصداقة . وسألته قائلة :

– هل أنت دائماً من المحبين للسلام ؟

– بكل تأكيد . . . فبغض النظر عن شن الحرب تلو الحرب ، لم يعد هناك شعب ولا أمة ولا حقوق للإنسان ، إنها ملغاة ومعطلة . . إننا مهددون بدون وجه حق بناء على أكاذيب ، ومحكوم علينا بالموت دون أن نخرج من بيوتنا . ويقع الضرر الأكبر على المدنيين لأنهم يعرفون ما يقولونه . وإذا كانوا لا يعرفون ، فالمصيبة أعظم قسوة ، وقد تمكنت من جعل قلب كوفى أنان يلين بصورة أكبر من قلب قداسة البابا . لقد أصبحت السياسة أكثر شراسة ولا إنسانية .

– وما رأيك فى موقف البابا ؟

– تحدث القساوسة بمرارة عن خطاب البابا . فالذى يقصف العراق بالقنابل والصواريخ هى دول مسيحية . لقد زادت الكراهية ضد الغرب وضد المسيحية فى مجملها عشرة أضعاف دون تمييز بين دولة ودين . والآن يحاربوننا بأسلحة «ذكية» ... لقد أصبنا بخيبة أمل كبيرة من الموقف الفرنسى . . . وحرمنا من التيار الكهربائى وأخذنا توصيلة من الجيران لنتمكن من إقامة القداس .

وفى الكنيسة اللاتينية ، بدت نادرة ووجهها متغير من الحزن ويعلوه الشحوب وشبه غائبة عن الوعى . « أمضينا ليلة عيد الميلاد بقلب يعتصره الحزن والألم » . وتابعت حديثها قائلة : « إننا نشعر كأننا فئران فى مختبر للتجارب . ماذا يريدون أن يفعلوا بنا ؟ إنهم يريدون قتلنا ، جسمانيا ونفسيا ، وذهنيا أيضا » . وفى الواقع ، فإن الثقافة هى الشىء الوحيد المتبقى عندما يتم نسيان كل شىء . . . وبالتأكيد ، فإن الألفية الثالثة ستكون دينية أو لا تكون . . . وبالتأكيد كذلك ، فإن التمييز العنصرى مستقبله باهر والطريق مفتوح أمامه . وتتميز نادرة باليقظة والتحفظ والكتمان والحياء الذى يبعث على الاحترام .

« إننا نقبل المعاناة كشكل من أشكال المقاومة ضد الاستعمار وأن نضحى بحياتنا من أجل قيم أكثر أهمية من حياتنا . إننا ، نحن العراقيين ، نتألم ونتعذب من أجل العالم العربى كله » .

أما بالنسبة للإسلام ، فإنه يتميز بأنه يجمع بين الخير والشر والروح والجسد والأبيض والأسود ، ولا يعترف بالمواقف التى بين الاثنين ، فهو ثنائى الغرض ؛ أى يجمع بين الدين والدنيا . وقد شقت المسيحية الشرقية طريقها من خلال هذه الثنائية وأصبحت تعيشها بصفة دائمة وصراع الظلمات ضد النور .

أما رفض الزواج عند المسيحيين ومنع أكل اللحوم . . . فكلها من الروحانيات المسيحية التى تتحالف مع عقيدة النور والظلام .

وفى المعبد البروتستانتى وجدت الاحتجاج نفسه والحماسة التى تشوبها المرارة . دعانى الأب إكرام إلى حضور الشعائر الخاصة بالأول من يناير فى الكنيسة الخالية من أية زخارف أو رسومات . فالديانة البروتستانتية منقاة من أية رسومات تمثل مشاهد دينية والتى تعرف باسم الأيقونات ، بل تعتمد على كتاب الطقوس ، يحتوى على الأفكار الأساسية وعظة ومزامير داود وجمع الصدقات ومصافحة حارة مع الراعى عند الخروج من الكنيسة . وتتم إقامة الشعائر بصورة ديمقراطية حيث يشترك المصلون فى العظة وتشترك العائلة فى إقامة الشعائر .

وقد تم إرسال خطاب جماعى من الكنائس المسيحية إلى كوفى أنان لمطالبته بالعمل على رفع العقوبات ، ووقف الحظر المفروض على البلاد ، وإيقاف العدوان العسكرى الأمريكى .

سياسة

تختلط آلام البشر ومعاناتهم بالغضب الشديد والحنق ، حيث يتضح ذلك فى التعليقات السياسية التى تظهر فى الصحافة فى صورة تقريظ ، فقد نشر كل من مصطفى المختار ونصرة السعدون مقالات مختلفة فى جريدة «الثورة» يوجهون فيها اللوم للسياسة الفرنسية «التى تعتبر الآن أسوأ من أى استعمار عرفناه .

إذ طالبوا بوضع البترول العراقى تحت إشراف دولى وساروا خلف الأمريكان والبريطانيين الذين يقصفوننا بقنابلهم » ، فالسياسة الفرنسية يطلق عليها اسم « الثعبان المراوغ ، واستعادة السياسة التى توصف بالشريرة والمنحرفة والتواطؤ مع الأمريكان وتأييد نواياهم » . وقد أحدثت تلك المقالات صدى كبيرًا فى الإذاعات العالمية خاصة راديو مونت كارلو والإذاعة البريطانية . وفى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة اختلفت الآراء حول هذه المسألة ، وحسب ما صدر من البنتاجون : « الولايات المتحدة تقوم بالضربات العسكرية والأمم المتحدة تقوم بالدور الإنسانى » . وهزمت الأونيسكوم UNSCOM ولم يعد لها موطئ قدم فى العراق .

قابلت صلاح المختار فى مقر « لجنة التضامن والتحالف من أجل السلام » التى يرأسها ، يوجه العالم بأسره أنظاره نحو بغداد ، وسوف يستمر هذا الموقف حتى رفع العقوبات . إن أغلب الحكومات تقف بجانب العراق ، وبالنسبة للأمم المتحدة فهى تؤيد العقوبات وهذا يتعارض مع شرعية المواقف العراقية . إن الحظر انتهى قانونا ، فقد أقر كل من إكيوس وباتلر بأن العراق نفذ ٩٠ ٪ من التزاماته ، ويطالبان بمستندات ليست على جانب كبير من الأهمية . أما المواقف الفرنسية فهى موضع لوم شديد ، بل وتوصف بأنها الشيطان الأكبر وتتعلل بأنها تطبق القانون الدولى . . « فقد أجبرت فرنسا العراق على الالتزام بقرارات تمس سيادتها . . ولم يصدر أى إعلان من باريس منذ أسبوعين . . والأسوأ من ذلك ، إدانة فرنسا للعراق بأنها تتحمل مسئولية الأزمة الحالية . ومنذ ثمانى سنوات ، انسحبت فرنسا وتركت المجال للبريطانيين والأمريكان . أما الصين وروسيا فقد تبنت كل منهما مواقف واضحة وصريحة ، ولم تكن فرنسا كذلك . ينتظر العالم بأسره قرارات مجلس الأمن ، لقد قامت لجان التفتيش بأكثر من ٧٥٠٠ عملية تفتيش منذ عام ١٩٩١ ، وحضر أكثر من ثلاثة آلاف مفتش فى الأماكن المشتبه بها ، وفى الجامعات والمساجد والكنائس والمنازل الخاصة . . . وقالوا : "لدينا معلومات كاملة عن الأماكن" ، ولم يجدوا شيئًا ، وهذا يعنى أن البيانات التى كانت لدى الأونيسكوم UNSCOM خاطئة ، وأنه ينبغى على المخابرات الأمريكية (CIA) القيام بعملية الغرض منها تقويض استقرار العراق مثلما حدث فى يوغوسلافيا السابقة » .

وماذا عن الضحايا ؟ لا يمكن إجراء حصر بالضحايا ، « ٤٠٠ صاروخ إستراتيجى تم إطلاقها على مواقع حساسة وأهداف مدنية . . إنها ڤيتنام جديدة مع الفارق فى أن ڤيتنام كانت بلاد ريفية بينما فى العراق ضربت المدن والمصانع . إنها جريمة يجب أن يعاقب عليها الأمريكان ويُطلب منهم إصلاح ما دمروه » . استبدل بالمناقشات فى مجلس الأمن العدوان العسكرى الأمريكى حتى قبل فحص التقرير الذى قدمه باتلر . إنه اعتداء صارخ على القانون الدولى ومساعى مجلس الأمن . وفى عام ١٩٩١ قام المجتمع الدولى بمعاقبة العراق لانتهاكه القانون الدولى ، والآن تقوم الولايات المتحدة بانتهاك هذا القانون بصورة صارخة . . ويدل هذا الهجوم على أن الولايات المتحدة وبريطانيا تعملان على تدمير العراق ، وأن أعضاء مجلس الأمن يقبلون ذلك .

وماذا عن الخسائر بالنسبة للأطفال ؟ الأطفال الذين هم أقل من ثمانى سنوات لا يفهمون ما يحدث ولا الانفجارات ولا القصف ولا الخسائر والدمار النفسى الذى لا يقارن . لقد مات عدد كبير من الأطفال فى البيوت التى تهدمت، بل عائلات بأكملها ، ولا يمكن إجراء تقدير نهائى بحجم الخسائر فى الأرواح ، فالأرقام مرتفعة .

وأخيراً ، قمت بتهنئة صلاح المختار على قرب تعيينه سفيراً للعراق بالهند ، وسألته عما إذا كان يتمنى التعيين فى فرنسا ؟ فرد قائلاً : « إن فرنسا لا تهمنا ، فقد انحازت للمعسكر الأمريكى وكشفت عن إستراتيچيتها . إننا نفضل الاعتماد على دول العالم الثالث حيث تتماثل مصالحهم مع مصالحنا ، وذات قوى صاعدة فى جميع المجالات . . . » .

وفى مقر حزب البعث ، أعرب الدكتور الهاشمى عن تحفظه ، ولم يجر أى لقاء أو إعطاء تصريحات وقال : « إننى سعيد بأن الأقنعة سقطت أخيراً » ، ووجه اللوم إلى الحماسة الزائدة التى لا حدود لها للكراهية من جانب الأمريكان ، وإلى الخسائر المادية والبشرية فى الأرواح ، وأصر على الالتفاف الشعبى حول صدام .

العام الجديد في بغداد

افتتحت إقامتي ليلة عيد الميلاد وسوف تنتهي مع بداية العام الجديد ، والمفروض أن يكون الأول من يناير يوم عيد ، لكن القلوب كانت مفعمة بالحزن . ولم يحضر الأصدقاء هذا العام للتمتع بمباهج العيد وتناول الحلويات ، واحترقت الشموع وذبلت دون أن يحضر أحد ، وقد أضر سهر الليالي الوجوه بسبب القصف المتواصل .

ترددت في قبول دعوة الأب يوسف حبي للاحتفال بالعام الجديد مع ضيوفه الذين كانوا حوالي الأربعين من المسيحيين والمسلمين وقساوسة من العالم أجمع وصديقتي ثريا . وأصر الأب يوسف لكني ترددت وفضلت التوجه إلى أصدقائي المتواجدين بالمنزل لقضاء سهرة عادية، حيث تنازلوا عن حضور حفل في مطعم ؛ لأنه لم يكن لدى الجميع الرغبة في الشعور بفرحة العيد .

وبعد ثمانية أيام قضيتها ، سأغادر العراق في طريقي للعودة ، ولذا قررت أن أبقى معهم في المنزل وأحضر ذلك الحفل البسيط ؛ لأن اللحظات التي أقضيها معهم لا تقدر بثمن . خرج مصطفى لحضور دورات لكنه رجع محملاً بلفائف تحتوي على الكباب والفاكهة والخضراوات .

وأخيراً ، فإن القلب مفعم بالحزن ولا يشعر بفرحة العيد .

الفصل الخامس عشر

خاتمة الكتاب

سوف أرحل ابتداء من الغد وأقوم برحلة عبر الصحراء وأترك أصدقائى تحت تهديد القنابل . ومع ذلك ، فقد تغيرت التوزيعة لحد ما . ففى عمَّان وجدت فيصل يشعر بمرارة أكثر من المألوف « الجميل والخيِّر ، تلك أشياء لم أعد أعتقد بها نهائيا .

– فبالنسبة للجميل وللخيِّر ، أفضل بدلا منهما الصواب والعدل .

– إذًا عليك بقراءة ألزوسر ، فيلسوف المعرفة والعلوم ... » .

لن تُقلع طائرة العودة فى موعدها وسوف تتجه هذه المرة إلى مدريد ، وسأكون بصحبة هادانى ، وهو صحفى يغطى الأحداث للصحافة الكندية ، كانت لديه رغبة قوية فى العودة بأقصى سرعة إلى بغداد ، حيث تجرى فى عروقه الروح العراقية. إنها عودة متأخرة جدا بالنسبة لبرنامج عملى خاصة وأن قواى منهكة ، وفى باريس أحلم بمحلات الحلويات التى تمتص ميزانيتى وألم المعدة وانشغالى الدائم . فى كل مرة ، تقودنى العودة كأنى فى كوكب آخر . وبمجرد وصولى ، أقوم بالاتصال بأصدقائى ، وفى خلال بضعة أيام ، سوف ينتهى رمضان ويأتى العيد ، وبعدها يستأنف النشاط والعمل . ومما لا شك فيه ، سوف تعود البسمة إلى شفاه مصطفى مرة أخرى وأيضا يواصل عناء الأيام والليالى .

سأعاود الاتصال مرة أخرى يوم الأحد القادم وكنت قد أخذت معى صوراً له يظهر فيها وجهه بملامح تتسم بالنقاء والجدية . التقط صوت المكالمة ، لم يكن صوت نصرة ولا دعاء . . ربما يكون صوت سوسو ، اختلطت الأصوات وسمعت محادثة غير واضحة .

– ألو ؟ مرحبا . . . أنا أليس . . .

– أنا سوسو ...

– كيف حالك يا سوسو ؟

– . . . مصطفى . . .

صوت غير مسموع . . . ربما كلمة أو صوت . .

– ألو ، نعم . . . هل مصطفى موجود ؟ . . . نعم أريد التحدث مع مصطفى . . . من فضلك يا سوسو أريد التحدث مع مصطفى . . . أين هو ؟ هل هو نائم الآن ؟

صوت نحيب وبكاء .

– إنه . . .

– نعم يا سوسو ، أين مصطفى ؟ أريد التحدث معه . . .

– مصطفى . . . ! مات . . . اليوم . . . قلبه . . .

الفصل السادس عشر

ملاحق

درس فى الاقتصاد

كمبتدئة فى المجال الاقتصادى ، وجدت نفسى تواقة إلى فهم الآليات الاقتصادية للحياة فى العراق ، فقد كان مصطفى المختار رجل اقتصاد وأمضى حياته كلها فى هذا القطاع ومقالاته مخصصة لها أعمدة فى الصحف وكذلك نشاطه فى أكاديمية العلوم ، واشتهر بقدرته على تفسير وحل رموز أفكار ومفاهيم الاقتصاد الحر الذى يجب على البلاد أن تتقيد به طوعًا أو كرها تبعا لمنطقة العولمة فى مجال العلاقات الاقتصادية والمبادلات ، ورغم أننى كنت مقيمة بمنزله ، كان علىَّ أن أحدد موعداً لاستجوابه وتوجيه أسئلة أبحث عن إجابات لها فى هذا المجال لأنه مشغول دائمًا . شرح لى مصطفى آليات الاقتصاد العراقى ، وكانت نصرة تراجع خلفه المعلومات والتحليلات التى قدمها لى لتكون أكثر فهما ووضوحاً . كانت فى ذهنى أسئلة كثيرة كمبتدئة وألغاز عديدة أمامى أريد إيضاحها ، واتسع صدره أمام أسئلتى المبسطة والساذجة وفضولى لمعرفة كل شىء ، كيف لبلد مثل العراق يخنقه الحصار الاقتصادى أن ينظم حياة الذين هم على قيد الحياة ، وعلى أية قواعد وقوانين ومبادئ ؟ وقد أعرب كل من منظمة الأغذية والزراعة FAO وصندوق النقد الدولى FMI عن دهشتهما من أن العراق استطاع أن يقلب الاتجاه إلى التضخم المالى والاقتصادى السريع ، إلى مآثر وانتصارات وصنع « المعجزة » وذلك بتبنى المؤسسات التى تهتم بالمسار الاقتصادى السليم للبلاد .

« الاقتصاد الجديد عبارة عن اقتصاد جمعي سياسي على نطاق واسع لا يضع في اعتباره التصرفات الفردية بحيث يربط بين السياسة التجارية والسياسة المالية والسياسة النقدية، والربط بين الوضع الداخلي والوضع الخارجي للحصار ، استخدمت البلاد الاحتياطي النقدي لديها لأنه كان كافيا . طُبعت العملة تبعا للاحتياجات ولإيجاد التوازن للخزانة العامة ، وبصفة خاصة لتوجيهها للمزارعين . ومنذ عام ١٩٩٠ إلى ١٩٩٥ ازداد التضخم نتيجة المضاربات على الدولار حيث وصل سعره إلى ثلاثة آلاف دينار وحدثت تكهنات بأن سعره سيرتفع إلى ١٢ ألف دينار . من أجل ذلك اتخذت إجراءات تعسفية . وقد حرص المبدأ الاقتصادي لصدام على التمسك بتقليص النفقات وتقليل هامش الربح بالنسبة للخدمات ، ووجهت هذه الأوامر بخطابات إلى جميع الوزارات ونشرت بالصحف . وفي عام ١٩٩٦ هبط معدل التضخم ووصل سعر الدولار إلى ٦٠٠ دينار بل هبط أيضًا إلى ٣٥٠ ديناراً . أما في مارس ١٩٩٦ فقد ثبت على ١٥٠٠ دينار . وقامت البنوك بشراء الدولارات من الأفراد ، ولا ننس أن الدين الخارجي الأمريكي ارتفع إلى ٤ تريليونات من الدولارات . وتعيش الولايات المتحدة على الاستدانة وذلك بخلاف العراق . يتم تمويل الميزانية العراقية من تسديد ديون الدول الخارجية (فيتنام والجزائر . . .) ومن عائدات بيع البترول بموجب تصريح من الأمم المتحدة ، ويتم حاليًا تمويل المنتجات المدعمة بموجب القرار ٩٨٦ حيث تشترى الحكومة المنتجات الزراعية بسعر مرتفع لإنعاش الإنتاج .

يقوم المزارعون بتصريف منتجاتهم مباشرة في الأسواق ، أما في السابق فكانت تمر عبر الدولة التي تلبي احتياجات المستهلكين عن طريق آليات التوزيع وبطاقات الحصص المقررة .

المخطط الرئيسي : تحديد النفقات العامة فيما يتعلق بالتعليم والصحة والأمن الاجتماعي . . وزيادة إيرادات الخدمات العامة ، وهكذا تباع الكراسات والكتب المدرسية بسعر مدعم بدلا من توزيعها مجانا على التلاميذ . وفي المستشفيات تظل الخدمات الطبية بالمجان في الفترة الصباحية ، أما بعد الظهر فتكون بأجر . ومنذ ثلاث سنوات ، أجريت عملية الزائدة الدودية لدعاء بما يعادل ٣٠٠ دينار (بضعة فرنكات) ويدخل في ذلك الخدمات الطبية والاستشارة والتدخل الجراحي والمخدر (البنج)

والتمريض والإقامة يومان بالمستشفى ، ويتم تغطية هذه النفقات من الأرباح الناتجة عن الخدمات ومن الإعانات التى تدفع ولكن بتكلفة أقل من القطاع الخاص ، كما يتم القيام بتأجير محلات حول المستشفى لأفراد لإيجاد عائد . تغذى هذه العائدات ميزانية المستشفى والمرتبات . فى الصيف الماضى ، حضر ضرار دورة صيفية بمصروفات فى مدرسته للإعداد لشهادة الثانوية العامة . يتم توزيع هذه المبالغ على المدرسين مما يساعد على زيادة دخلهم وتغطية نفقات الخدمات الإدارية . وفى الجامعة ، يسمح للطلاب الحاصلين على الثانوية العامة بحضور دورات تقوية بمصروفات ، كما تقدم المكتبة العامة خدمات مجانية وتصوير الأوراق بما يعادل ٥٠ ديناراً للصفحة ، ويتم توريد نصف العائدات إلى وزارة المالية والنصف الآخر لشراء مواد ومكافآت للموظفين ، وقد تم تعميم هذا المبدأ فى جميع مجالات الأنشطة العامة ولتجميع القطاع الخاص مع القطاع العام .

تهدف السياسة النقدية كذلك إلى ربط مبادئ القطاعين : العام والخاص . يحصل أستاذ الجامعة على مرتب زهيد ، والآن يمكنه الاستفادة بعقد مع الدولة كمستشار فى تخصصه لتكملة مرتبه ، ومهندس البترول الأستاذ بالجامعة يمكنه إبرام عقد مع وزارة البترول لمدة ثلاثة أشهر خلال الإجازة الصيفية ، تعمل جميع الإدارات على إيجاد خدمات إضافية للتمويل الذاتى وإعادة توزيع المرتبات . كما أن تخفيض النفقات وزيادة الدخل وإيقاف التضخم تعتبر الركائز الثلاثة لمبادئ صدام . فزيادة العائدات دون الزيادة المباشرة للمرتبات تحد من التضخم ، وهى ما أطلق عليها "سياسة السوق المربح" .

وبسبب الشك وعدم اليقين، تشتعل الأسعار عند أقل بادرة أزمة ، (الأمم المتحدة ، الأونيسكوم UNSCOM ، باتلر ، كردستان . . .) ، فالآثار النفسية الناجمة عن عدم اليقين وانعدام الأمن تعتبر مدمرة ، ولكن هذه السياسة تعمل على بث الطمأنينة فى نفوس المستهلكين . فقد حدثت أزمة فى غاية الخطورة فى فبراير ١٩٩٨ مع لجنة فرض العقوبات (الأونيسكوم) وموضوع القصور الرئاسية ، إلا أن الأسعار تحركت بشكل طفيف جدا وظل الدينار ثابتًا ، وفى عام ١٩٩٦ هبط سعر الدولار بشدة وتعرض الأغنياء الجدد لخسارة كبيرة .

وفى نهاية ١٩٩٧ هدد الأمريكان بمهاجمة العراق ، ولم يكن لدينا أى احتياطى ولا مؤن وواصلنا العيش يومًا بيوم دون ظهور أية علامات للرعب أو الهلع الجماعى أو ارتفاع الأسعار ، بل على النقيض من ذلك فإن الوضع الاقتصادى ظل ثابتًا .

وفى ظل الأزمة الحالية (أغسطس ١٩٩٨) أغلق العراق فى وجه باتلر ولجنة فرض العقوبات (الأونيسكوم) . وكان من الممكن أن تساعد تلك الأزمة على رفع الأسعار ولكن ذلك لم يحدث ، ولكن الشىء الوحيد الذى حدث هو تقلب سعر الدولار بنسب طفيفة تحت تأثير المضاربة به . "وسياسة السوق الفعالة هذه" تلغى الآثار الناجمة عن الإشاعات حول آليات السوق . ونجد هذا المبدأ فى أعمال الاقتصادى دوجلاس نورث وهو أمريكى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٩٣حيث ينادى بنظرية اقتصادية تتلاءم مع سياسة فعالة للسوق بخلاف النظرية السياسية للاقتصاد . وتم استنباط نتائج دوجلاس نورث من الأعمال النظرية التى تم تطبيقها فى العراق حسب الضرورة . وعلينا أن نتذكر أن تغيير النظام الاقتصادى للدول الاشتراكية قد أوجد مشاكل اقتصادية واجتماعية لا حصر لها . ورغم العدوان الاقتصادى المتمثل فى الحظر الذى فُرض على العراق ، فإن النظام الاقتصادى أوجد فعالية جديدة مع المبدأ الذى ينادى بربط الاقتصاد والسياسة ، فالتقديرات المحتملة والتنبؤ بالأوضاع والواقعية تساعد على زيادة الرفاهية للمستهلك وتحسن من سلوكه باكتساب ثقته » .

التمويل عن طريق الدولة

« قبل فرض الحظر على العراق ، كانت الدولة تموِّل الواردات (الأدوية والحبوب والتكنولوجيا) من عائدات البترول حيث كان الدينار قويا (كان الدينار يعادل ٣,٣ دولار) . ولكن بعد عام ١٩٩٠ تدهور الوضع بسبب القحط ، كما أدى النقص فى وجود السكر إلى إصدار قانون بمنع إنتاج الجاتوهات والحلويات لتثبيت سعر السكر إلى أدنى حد . وفى عام ١٩٩٥ وصل سعر كيلو السكر فى السوق ما بين ٧٠٠ و ١٠٠٠ دينار . كان القطاع الخاص هو الذى يستورد السكر وتعيد الدولة شراءه بسعر مرتفع وتوزعه بالبطاقات مقابل بضعة دنانير أى تقريبا بالمجان لأنه يدخل فى الدعم الحكومى .

ساعدت تلك الآليات على استمرار الحياة فى البلاد . وبموجب نص القرار رقم ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن الدولى وافق على بيع البترول لتوفير الغذاء للشعب العراقى وأصبحت الدولة المشترى المباشر دون وساطة القطاع الخاص ، وبذا أمكن للدولة السيطرة على القطاع الخاص وسمحت من جديد بإنتاج الجاتوهات والحلويات والمثلجات .

كان الفرق بين العرض والطلب على الدينار الموازى للدولار أحد العوامل التى تساعد على التضخم ، ومنذ عام ١٩٩٥ خفضت الحكومة من طباعة الدنانير وعملت على خفض شرائه فى السوق الحرة . وأصبح القطاع العام يعمل على المبادئ نفسها التى يسير عليها القطاع الخاص ، وذلك بالتمويل الذاتى والسعى وراء المكاسب . وأصبحت نفقات سير العمل مقيدة ولكن دون إلغاء الوظائف ، كما خفضت ميزانية الدولة بمقدار ٥٠ ٪ فى عام ١٩٩٦ .

سمح القرار ٩٨٦ بتصدير البترول ، وحسمت نفقات الأونيسكوم وموظفى الأمم المتحدة ، وخصص الرصيد المالى لشراء الغذاء والدواء والاحتياجات الإنسانية . وأتاحت عملية اختفاء الوسطاء تخفيف حدة التضخم بالنسبة للدينار . وهناك عاملان ساعدا على تخبط الدولار وهبوطه فى السوق الداخلية حتى إن صندوق النقد الدولى FMI أعرب عن دهشته وحاول البحث عن الأسباب التى أدت بالعراق إلى أن يقلب الاتجاه إلى التضخم رأسا على عقب حتى إنه وصف تلك العملية "بالمعجزة" . فالحكومة لم تحاول التدخل بضغط الأسعار وإنما عملت على زيادة العرض بنقل المنتجات إلى سوق الجملة ، فكنت أشترى الدقيق من السوق فى حالة عدم كفاية ما أحصل عليه بالبطاقة ، وعند زيادة المقرر بالبطاقة لم أعد فى حاجة إلى الشراء من السوق . وساعد القرار ٩٨٦ على إيجاد السلع وتوزيعها بكميات ضخمة ، وأصبح الطلب على السوق فى القطاع الخاص أقل بسبب كثرة العرض من جانب الحكومة مما ساعد على خفض الأسعار . وصارت قدرة الدولة على الشراء تعتمد الآن على تصدير البترول » .

نظام التوزيع

يتم توزيع الحصص الغذائية بمعرفة وكالات خاصة يصل عددها إلى ٤٥ ألف وكالة موزعة فى جميع أنحاء العراق . تم وضع نظام التوزيع على العائلات حسب العدد والسن ، فجوال الدقيق زنة ٤٥ كجم يتم تخصيصه لخمسة أفراد ويباع بمائة دينار ، بينما سعره فى السوق الحر عشرة آلاف دينار أى أنه يقدم مجانًا تقريبًا . يتم مراقبة نشاط هذه الوكالات بكل دقة . ووزعت بطاقات مراقبة على المستفيدين للتأكد من مطابقة الأسعار والكميات ، وهل توجد شبهة فرض ضرائب أو تأخير فى التسليم ومراقبة سلوك وتصرفات هذه الوكالات . تجمع هذه البطاقات كل شهر وعليها اسم الوكالة وعنوانها . وإذا تجمعت أقل من ستين شكوى ، يتم التحفظ على هذه الوكالة ثم تغلق .

القطاع الصناعى

يعمل القطاع الصناعى فى تجمع واحد مع القطاع العام والقطاع الخاص . تحتل الصناعات الخاصة قطاعًا عريضًا من الإنتاج فى العراق .

تسهل الدولة أنشطة القطاع الخاص ؛ ولذا ، فإن القطاع الخاص للصناعات الزراعية ينتج جرارات وآلات زراعية والمواد اللازمة للزراعة وتباع بسعر مدعم فى السوق وبأسعار السوق الحر ، ولكن فقط للمزارعين مباشرة دون وسيط . تتدخل الدولة عن طريق ضغط الضرائب والرسوم وتتعاون فى إنتاج المواد ، وأية صناعة مخصصة للنشاط الإنتاجى معفاة من الضرائب ، أما التاجر فعليه أن يدفع الضرائب بصفته وسيطًا ، ولنأخذ مثالاً على ذلك ، فالطواحين معدات ذات نفع كبير للبلاد، وتنتج بمعرفة القطاع الخاص بالاستعانة بالقطاع العام فى جزء من الإنتاج ، خاصة قطع الغيار والمكونات المختلفة ، فالمصنع الذى ينتج مائة طاحونة مثلا ، يبيعها بمساعدة الدولة فى السوق مباشرة ، وهذا ما يطلق عليه « دعم ومساندة القطاع الخاص » . فنحن أمام سوق مفتوح ، ننتج ما نريد وبالكمية التى نريدها . وبسبب الحصار والحظر المفروض علينا ، لم نتمكن من بيع أى شىء للخارج ولكن كل ما ننتجه يستهلك فى الداخل .

نظام فرض الضرائب وجبايتها

يتم تحصيل الضرائب من التجار على أساس الدخل المثبت أو المفترض ، فأى محل لعب أطفال عليه أن يدفع للدولة ضريبة مقدارها ٢٠ مليون دينار لأنه يتاجر فى الكماليات ، أما المحل الذى يبيع الخزف والصينى ، فهى منتجات عادية ويدفع ٢٠٠٠ دينار فقط . وفى حالة وجود مكتبتين ، الأولى تبيع كتبًا بسعر منخفض والثانية تبيع قواميس وكتبًا بأسعار مرتفعة وأقلام وكراسات وأوراق وألوان وبها آلة لتصوير الأوراق والمطبوعات ، فهذه الأخيرة تدفع ضرائب أكثر من الأولى . سعر القلم الرصاص ٢٠٠ دينار أما الكراسة فيبلغ ثمنها ٢٠٠٠ دينار أو أكثر ، كما أن المرتبات معفاة من الضرائب ، ويتم ذلك بناء على إقرار من الشخص نفسه . وتتولى لجنة خبراء من الإدارة العامة للضرائب بفحص هذا الإقرار وتجرى تقديراً ويتم إبلاغ المستفيد بما توصلت إليه اللجنة ، فإما القبول وإما الرفض ، وفى هذه الحالة ، تشكل لجنة ثانية وتكون قراراتها نهائية لا رجعة فيها .

القرار ٩٨٦ المسمى : (النفط مقابل الغذاء)

هل يجب أن نكيل المديح للقرار ٩٨٦ ؟ يرد عُدَىٌّ التايه المسئول عن وكالة الأنباء العراقية بوزارة الإعلام قائلا : « أنشأ القرار ٦٦١ لجنة فرض العقوبات التى تضم ستة أعضاء من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . ويكفى استخدام حق النقض (الفيتو) من طرف واحد ليشل أى مشروع خارجى من فرنسا أو سويسرا أو إيطاليا أو ألمانيا . . . وسلطة هذه اللجنة أعلى من سلطة السكرتير العام للأمم المتحدة الذى تفاوض بشأن القرار ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن . وهكذا ، اتخذ الفيتو ضد استيراد أغطية أسرَّة (ملاءات) للمستشفيات وإطارات لسيارات الإسعاف (تسلمها العراق من فرنسا فى الوقت الذى أعلنت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا استياءهما وغضبهما) ، انتظرنا أكثر من عام لتسلم سيارات الإسعاف ، وأخيراً قيل لنا إن هذه المواد محظورة وموضع شك ومن الممكن أن تحول لأغراض عسكرية . وكان المفروض أن نتسلمها من الولايات المتحدة أو من بريطانيا ودون مراوغة . . . قام ١٥٠ من

المراقبين بالتحقق والتدقيق للجهة المرسل إليها واستخدام المنتجات المستوردة . فالأدوية التى نحتاجها فى الشتاء تصل فى الصيف والعكس صحيح ، ومن المعروف أن الأوبئة تنتشر فى الصيف خاصة لدى الأطفال ونبحث عن الأدوية لهم فلا نجدها ، ويموت الناس ، وتم تسليم ٢٨ ٪ فقط من الطلبيات التى تم حصرها .

وتبيع ٤ مليار بزميل من البترول ، ٢٥ ٪ من ثمن هذا البترول يضيع هباءً ، ٢٥ ٪ يخصص لموظفى الأمم المتحدة ، ويتبقى ٥٠ ٪ من صافى البيع . توضع الأموال تحت الحراسة فى إحدى الوكالات بنيويورك تحت إشراف الأمم المتحدة . ولابد من انقضاء ثلاثة أشهر قبل وصول الأموال لمستحقيها .

يؤكد مصطفى المختار أن « القرار ٩٨٦ لا يمثل إلا جزءا ضئيلاً جدا من المخصصات الغذائية ولا يعوض إلا النقص فى التوزيع الذى فرضته لجنة فرض العقوبات بموجب القرار ٦٦١ لعام ١٩٩١ ، وعلى ذلك ، فقد منع استيراد القمح من تايلاند عام ١٩٩٥ ، ٣٠ ٪ من عائد مبيعات البترول يخصص للأمم المتحدة و ١٠ ٪ لدفع رواتب موظفيها وتبقى ٦٠ ٪ للعراق بأكمله بما فى ذلك المنطقة الكردية ، ويقتطع جزء لإصلاح خط أنابيب البترول الذى دمره الأمريكان .

رواتب موظفى الأمم المتحدة كما يراها العراقيون

تعرض مصطفى المختار فى إحدى مقالاته لموضوع رواتب موظفى الأمم المتحدة ، حيث يخصص لكل منهم راتبًا يبلغ عشرة آلاف دولار شهريا إضافة إلى نفقات مهنية تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار يوميا حسب المرتبة ، كما تدفع الحكومة العراقية نفقات سكنه وطعامه بحيث لا ينفق من جيبه أى شىء لا عن إقامته ولا عن العمل . وبهذا يصل دخلهم إلى ١٧ ألف دولار شهريا لكل منهم ، وذوو المرتبة الأعلى يحصلون على راتب شهرى يتراوح ما بين عشرين ألف إلى ثلاثين ألف دولار شهريا ، وهو دخل لا يمكن أبدًا أن يحصلوا عليه فى الغرب . فما الفائدة التى تعود على العراق فى حالة توقف عمل هؤلاء الموظفين ؟ مما لا شك فيه ، سوف تزداد الحصص المقررة لغذاء الشعب العراقى وهو ما أعرب عنه طارق عزيز باستنكار .

وتعتبر هذه الرواتب هبة ونعمة كبرى إذا قورنت برواتب الموظفين المحليين حيث لا يتجاوز ١٥ دولارًا شهريا فى أحسن الأحوال .

الفصل السابع عشر

وثائق الأمم المتحدة

برنامج النفط مقابل الغذاء

ملخصات وثائق الأمم المتحدة من مكتب منسق النواحي الإنسانية للعراق (UNOHCI) .

(وثائق تم تجميعها فى بغداد وموجودة فى مكتب التجارة الدولية وفى مركز الوثائق بوزارة الخارجية ومن مكتبة اليونسكو ومقر صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة « اليونيسيف UNICEF » والمركز الوثائقى التابع للأمم المتحدة بجنيف ومقر الأمم المتحدة بنيويورك) .

وثيقة مكونة من تسعة أقسام

- **تسلسل الأحداث والأزمنة** : تسلسل أحداث القرار ٩٨٦ .

وثائق رسمية

- العقوبات ضد العراق .
- القرار رقم ٦٦١ الصادر عن مجلس الأمن .
- القرار رقم ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن .

- مذكرة التفاهم (MOU) .
- خطة التوزيع (المراحل : الأولى والثانية والثالثة) .

أسماء

- الحكومة العراقية .
- دنيس هاليداى .
- بينون سيفان .
- براكاش شاه .

معلومات أساسية

- التوقيع بالأحرف الأولى على القرار ٩٨٦ .
- أرصدة تحت الحراسة .
- تقدير المخصصات للقطاعات التى تم اختيارها (المراحل : ١ و ٢ و ٣ و ٤) .
- مقارنة بين المراحل المتوقعة والبرنامج الذى أعيد تقديره (المرحلة ٤) .
- القيمة الغذائية للمخطط الغذائى .
- مشرفو البترول والمراقبة من شركة ساى بولت Saybolt (روتردام – هولندا) .
- تفتيش مستقل من جانب وكلاء لويدز Lioyds (لندن) .
- نساء وأطفال العراق ، وقائع وأرقام .
- منظمة الأغذية والزراعة FAO / برنامج الغذاء العالمى WFP ، توريد مواد غذائية وتقرير عن القيمة الغذائية (أكتوبر ١٩٩٧) .

– شخصيات وهيئات نشيطة تابعة للأمم المتحدة

- شخصيات تابعة للأمم المتحدة .
- برنامج الغذاء العالمى WFP .
- منظمة الصحة العالمية WHO .
- منظمة الأغذية والزراعة FAO .
- صندوق رعاية الطفولة UNICEF التابع للأمم المتحدة .
- منظمة اليونسكو .
- متطوعون من الأمم المتحدة .

نظام المراقبة

- آلية المراقبة .
- نظام تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء = مراقبة وتوازن .

- مراقبون حسب التقسيم الجغرافى .
- مراقبون حسب القطاعات .
- مراقبون للنظام والتأديب .

معلومات مستوفاة

- تطبيقات تخضع للجنة ٦٦١ .
- « سلة الطعام » موزعة بمعرفة الحكومة العراقية فى الوسط والجنوب .
- « سلة الطعام » موزعة بمعرفة الأمم المتحدة فى الشمال .
- قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ والدينار العراقى – الدولار الأمريكى .

- الوضع القانونى لعقود التغذية بموجب القرار ٩٨٦ .
- العقود بالتفصيل حسب الدولة (المراحل : ١ و ٢ و ٣) .
- رحلات طيران خاصة للنواحى الإنسانية .

محافظات الشمال الثلاث

- شخصيات من الأمم المتحدة لمحافظات الشمال .
- قيام مكتب منسق النواحى الإنسانية بالتنسيق فى الشمال .
- الأشخاص الذين رحلوا .
- برنامج الغذاء العالمى WFP .
- منظمة الصحة العالمية WHO .
- منظمة الأغذية والزراعة FAO .
- صندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) التابع للأمم المتحدة .
- منظمة اليونسكو .
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائى UNDP .
- مراكز الأمم المتحدة للاستيطان والإسكان UNCHS UNDP / HABITAT .
- وحدات حرس تابعة للأمم المتحدة فى العراق .

قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ موضع التنفيذ

الوسط والجنوب : رجال ونساء على درجة كبيرة من الرقة .

الشمال العراقى (١٨ فقرة) .

العقوبات ضد العراق

قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ لعام ١٩٩٠

تم التصديق على القانون فى ٦ أغسطس ١٩٩٠ من قبل مجلس الأمن بعد غزو العراق للكويت مباشرة .

يطالب القرار رقم ٦٦١ جميع الدول الأعضاء منع جميع الخدمات والمنتجات العراقية والكويتية من دخول أراضيها ، كما يمنع القرار أى نشاط يؤدى إلى تشجيع تصدير أو نقل منتجات عراقية وكويتية ، كما يطالب الدول الأعضاء بحظر شراء وتوريد أى منتج أو خدمات من العراق والكويت ، أما الخدمات والمواد الطبية والسلع الغذائية ذات الطابع الإنسانى فلا تدخل فى هذا الحظر .

يتم تجميد جميع الأموال العراقية والكويتية وكذلك العائدات فى الخارج . تخطر الدول الأعضاء بمنع مغادرة رءوس الأموال هذه من أراضيها .

أنشئت « لجنة عقوبات » من جميع أعضاء مجلس الأمن ، وتتولى فحص ومراقبة تطبيق القرار .

ومن المنتظر أن تتعاون الدول الأعضاء بالكامل مع لجنة العقوبات بما فى ذلك إرسال بيانات ومعلومات عن مدى تطبيق القرار .

ويقدم السكرتير العام المساعدة لهذه اللجنة .

ويوضح مجلس الأمن أن البرنامج الخاص بهذا القرار لا يمنع تقديم المساعدة لحكومة الكويت الشرعية ، ويدعو مجلس الأمن جميع الدول لتقديم الحماية للسلطات الكويتية وعدم الاعتراف بالنظام القائم فى الكويت القائم على الاحتلال .

أما الهدف المعلن من القرار فهو وضع نهاية سريعة للغزو العراقى للكويت .

تلخيص إجمالى*

بموجب المادة ٤١ من ميثاق الأمم المتحدة يجوز لمجلس الأمن أن يدعو الدول الأعضاء لتطبيق إجراءات لا تتضمن اللجوء إلى استخدام القوة المسلحة لدعم أو صيانة الأمن والسلام الدوليين ، ومن هذه الإجراءات اللجوء إلى العقوبات . واستنادا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، لجأ مجلس الأمن إلى فرض عقوبات فى اثنتى عشرة حالة :

روديسيا الجنوبية ، وجنوب أفريقيا ، ويوغوسلافيا السابقة ، والعراق ، والصومال ، وليبيا ، وليبريا ، وهايتى ، وأنجولا ، ورواندا ، والسودان ، وسيراليون . وفى حالات : روديسيا الجنوبية ، وجنوب أفريقيا ، وهايتى ، ويوغوسلافيا السابقة فقد رفعت العقوبات بالكامل .

القرار رقم ٦٦١ الصادر فى ٦ أغسطس ١٩٩٠

فرض عقوبات اقتصادية على العراق تشمل حظرًا شاملاً على جميع الواردات والصادرات المتجهة للعراق ماعدا الأدوية والمواد الغذائية وأية احتياجات أخرى ذات طبيعة إنسانية ، حيث سبق تحديد ذلك من قبل لجنة فرض العقوبات التابعة لمجلس الأمن التى أنشئت بموجب القرار ٦٦١ ، تضم لجنة فرض العقوبات الأعضاء الخمسة عشر بمجلس الأمن ، ويرأسها سفير البرتغال مع وفود من غينيا بيساو وبولندا .

القرار رقم ٦٨٧ الصادر فى ٢ أبريل ١٩٩١

والخاص « بوقف إطلاق النار » ، يعلن أن الحظر الشامل ضد العراق سوف يستمر ويراجع كل ستين يوما ، وبعد ١٢٠ يوما من تطبيق العراق الالتزامات المفروضة عليه بموجب القرار ٦٨٧ .

القرار رقم ٧١٢ الصادر فى ١٩ سبتمبر ١٩٩١

يخوّل رفعًا جزئيا للحظر الذى يمنع العراق من بيع البترول واستخدام الأموال لأغراض إنسانية ، وفى المقابل يخضع العراق لرقابة صارمة من جانب الأمم المتحدة حول موضوع العقود وتوزيع السلع الغذائية التى تم شراؤها من عائدات بيع البترول .

القرار رقم ٩٨٦ الصادر فى ١٤ أبريل ١٩٩٥

يسمح للعراق ببيع مليار برميل من البترول كل ثلاثة أشهر لمباشرة أعمال المعونة الإنسانية داخل العراق . وفى ٢٠ مايو ١٩٩٦ وقعت الأمم المتحدة والحكومة العراقية « مذكرة تعاون » لوضع الترتيبات العملية لتنفيذ اتفاق « النفط مقابل الغذاء » . وبناء عليه ، قامت لجنة فرض العقوبات فى ٨ أغسطس ١٩٩٦ باتخاذ الإجراءات نحو تطبيق القرار ٩٨٦ ، وفى ٦ ديسمبر ١٩٩٦ ذكر تقرير السكرتير العام لمجلس الأمن أن الخطوات اللازمة لتأكيد التطبيق الفعلى للقرار ٩٨٦ قد تم اجتيازها .

وبذا أصبح القرار ٩٨٦ سارى المفعول اعتبارا من ١٠ ديسمبر ١٩٩٦ (وصلت الشحنة الأولى من المواد الغذائية للعراق فى ٢٠ مارس ١٩٩٧) .

القرار رقم ١٠٥١ الصادر فى ٢٧ مارس ١٩٩٦

لمراقبة نظام الاستيراد - التصدير فى العراق .

ينبغى على العراق والدول المصدرة له إخطار لجنة العقوبات (الأونيسكوم) والوكالة الدولية للطاقة الذرية بالمنتجات ذات « الاستخدام المزدوج » المرسلة إلى العراق ، حيث تخضع تلك المنتجات للتفتيش بمجرد وصولها إلى العراق وفى أماكن تسليمها .

القرار رقم ١١١١ الصادر فى ٤ يونيو ١٩٩٧

يقرر أن التوريدات التى تتم بموجب القرار ٩٨٦ (١٩٩٥) تظل سارية المفعول لفترة أخرى مدتها ستة أشهر اعتباراً من ٨ يونيو ١٩٩٧ .

القرار رقم ١١١٥ الصادر فى ٢١ يونيو ١٩٩٧

يقرر عدم اللجوء إلى مراجعة نظام العقوبات إلا بعد قيام اللجنة بتقديم تقريرها فى ١١ أكتوبر ١٩٩٧ حول مدى التقدم ، وبعدها تستأنف المراجعة بموجب القرار ٦٨٧ (١٩٩١) .

القرار رقم ١١٢٩ الصادر فى ١٢ سبتمبر ١٩٩٧

يقرر أن الإجراءات الخاصة بالقرار ١١١١ (١٩٩٧) تكون نافذة المفعول ويسمح للعراق ببيع البترول فى المواعيد المناسبة له .

القرار رقم ١١٣٧ الصادر فى ١٢ نوفمبر ١٩٩٧

يفرض القرار قيوداً على انتقالات أى مسئول عراقى وأفراد القوات المسلحة العراقية المسئولين فى الاشتراك مع مسئولى اللجنة الخاصة على أساس جنسياتهم ورفض دخولهم إلى المواقع التى تحددها اللجنة الخاصة للمفتشين أيضًا على أساس جنسياتهم . كما يقرر القرار مراجعة الفقرتين ٢١ و ٢٨ من القرار ٦٨٧ (١٩٩١) حتى لا تقوم الحكومة العراقية بفرض شروط على تعاونها مع اللجنة الخاصة .

القرار رقم ٩٨٦

تمت المصادقة على القرار فى ١٤ أبريل ١٩٩٥ " كإجراء مؤقت "

حيث أحيط مجلس الأمن علمًا بالتدهور المستمر للوضع الإنسانى فى العراق وخاصة موضوع الغذاء والصحة

يسمح القرار ٩٨٦ ببيع البترول العراقى بقيمة مليار دولار كل ثلاثة أشهر ، على أن تتم الموافقة على كل عقد لبيع البترول من جانب لجنة فرض العقوبات .

توضع أرباح بيع البترول مباشرة فى حساب « تحت الحجز » يطلق عليه «حساب عراقى» . يتولى محاسبون مستقلون مراقبة الحساب بانتظام .

يوجه ٣٠٪ من هذه الأموال إلى صندوق التعويضات .

يقوم وكلاء تفتيش مستقلون بمراقبة تصدير البترول من المواقع التالية : خط أنابيب كركوك - يومورتاليك (عن طريق تركيا) ، وميناء البكر بالخليج . يقوم المفتشون بإبلاغ لجنة العقوبات مباشرة بإنتاج صادرات البترول .

فالهدف من القرار هو السماح للعراق باستيراد المنتجات ذات الطابع الإنسانى وضمان عدالة توزيعها فى كل أرجاء العراق ، وهذا يتطلب تخصيص مبلغ يتراوح ما بين ١٣٠ إلى ١٥٠ مليون دولار (كل ثلاثة أشهر) لمحافظات دهوك وأربيل والسليمانية من قبل لجنة فرض العقوبات .

تشرف الأمم المتحدة على سير العملية وتعد تقريراً بذلك إلى مجلس الأمن كل ثلاثة أشهر بانتظام حول موضوع عدالة توزيع الغذاء والدواء والمواد الطبية والاحتياجات المدنية الأخرى . كما ينبغى على الأمم المتحدة التأكد من كفاية الأموال اللازمة للاحتياجات الإنسانية .

يتمتع الأشخاص المعتمدون فى إطار القرار ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن بامتيازات دبلوماسية ، على الحكومة العراقية أن تعطى موافقتها على منحهم الحرية الكاملة فى التحرك .

ولا يتضمن القرار أية أشارة من شأنها انتهاك سيادة أراضى العراق وسلامته . ويعرب مجلس الأمن عن اهتمامه بالتأكيد على تجديد مقترحات القرار ، مع التحفظ على أن العملية تحقق الاكتفاء بعد الفترة المحددة بستة أشهر .

فى الرابع من يونيو ١٩٩٧ ، وافق مجلس الأمن بالإجماع على القرار ١١٤٣ الذى بموجبه يمتد تطبيق القرار ٩٨٦ لفترة أخرى مدتها ١٨٠ يومًا اعتبارًا من ٥ ديسمبر ١٩٩٧ .

مذكرة تفاهم

تم توقيع مذكرة التفاهم فى ٢٠ مايو ١٩٩٦ بين الأمم المتحدة والحكومة العراقية ، حيث تؤكد التطبيق الفعال للقرار ٩٨٦ الصادر عن مجلس الأمن ، وبعد الموافقة على القرار ١١١١ امتدت صلاحية مذكرة التفاهمم ستة أشهر بموجب خطابات متبادلة بين الأمم المتحدة والحكومة العراقية . ثم امتدت فترة أخرى عقب الموافقة على القرار ١١٤٣ .

تغطى مذكرة التفاهم الأسئلة المتعلقة بالتطبيق الصارم للقرار : خطة التوزيع ، وفتح حساب تحت الحجز ومراجعة الحساب ، وبيع البترول والمنتجات البترولية ذات المنشأ العراقى ، وتسليم المنتجات الطبية والتأكد من مدى مطابقتها وكذلك المنتجات الخاصة بالصحة والسلع الغذائية ومواد الإعاشة وأية احتياجات أخرى ذات أهمية قصوى للشعب العراقى . وكذلك توزيع المنتجات بمعرفة الحكومة العراقية فى محافظات الجنوب والوسط ، وبمعرفة الأمم المتحدة فى محافظات الشمال : أربيل ودهوك والسليمانية .

وحددت إجراءات الرقابة بصورة صريحة وواضحة فى مذكرة التفاهم ، حيث نصت على أن تتم بمعرفة أفراد الأمم المتحدة الذين يخضعون لسلطة قسم الشئون الإنسانية بالمقر الرئيسى للأمم المتحدة بنيويورك ؛ والهدف من ذلك هو التحقق من

عدالة توزيع المنتجات ذات الطابع الإنسانى على الشعب بأكمله فى جميع أراضى العراق ، والتأكيد على فاعلية العملية وإقرار الكفاية بين الموارد المتاحة والاحتياجات الإنسانية للعراقيين .

تستند الرقابة على توزيع الغذاء إلى المعلومات التى يتم جمعها من الأسواق المحلية فى العراق ، وذلك بمعرفة الوكالات التابعة للأمم المتحدة ووزارة التجارة .

التسلسل الزمني لاكتمال القرار ٩٨٦

الصادر عن مجلس الأمن

١٤ أبريل ١٩٩٥ : وافق مجلس الأمن على القرار ٩٨٦ ، لكن العراق رفض الشروط الواردة فيه .

٢٠ مايو ١٩٩٦ : وقعت مذكرة تفاهم بين الحكومة العراقية وسكرتير عام الأمم المتحدة .

١٨ يوليو ١٩٩٦ : وافق السكرتير العام على المرحلة (١) من خطة التوزيع .

١٠ ديسمبر١٩٩٦ : بدأ ضخ البترول مع مذكرة التفاهم ، انطلقت المرحلة (١) رسميا .

١٥ يناير ١٩٩٧ : تم إيداع أول ثمار بيع البترول فى حساب تحت الحجز للعراق فى أحد البنوك التابعة للأمم المتحدة بنيويورك .

٢٠ مارس ١٩٩٧ : سُلمت الشحنة الأولى من منتجات المرحلة (١) « بازلاء وفاصوليا بيضاء من تركيا » من نقطة عبور حابور زاخو .

١٢ أبريل ١٩٩٧ : بدأ توزيع دقيق القمح فى البلاد بالكمية والنوعية المتفق عليهما ، وطبقاً لإعلان الحكومة العراقية باستخدام ٤٠ ألف طن من الاحتياطى لديها لبدء التوزيع حسب القرار ٩٨٦ .

٩ مايو ١٩٩٧ : وصول الشحنة الأولى من المواد الطبية للمرحلة (١) «محاليل تعطى بالوريد» إلى العراق عبر حدود طرابيل .

٤ يونيو ١٩٩٧ : صادق مجلس الأمن بالإجماع على القرار ١١١١ بالموافقة على استمرار العملية لمدة ستة أشهر بالسماح ببيع بترول بمليارى دولار ابتداء من ٨ يونيو .

٨ يونيــو ١٩٩٧ : بدأت المرحلة (٢) رسـمـيـا . ومع ذلك أعلنت الحكومة العراقية أنها لن تسمح بضخ البترول فى خطوط الأنابيب قبل الموافقة على خطة جديدة للتوزيع .

١٤ أغسطس١٩٩٧ : استئناف ضخ البترول وتم أول شحن له من سهران (تركيا) .

٢ سبتمبر ١٩٩٧ : تسلم دنيس هالداى مهام منصبه منسقًا جديدًا للأعمال الإنسانية للأمم المتحدة فى بغداد .

منتصف أكتوبر١٩٩٧ : طبقت النتائج التى أعدتها منظمة الأغذية والزراعة **FAO** وبرنامج الغذاء العالمى **WFP** حول تقديرات الاحتياجات الغذائية . وأشار التقرير إلى أنه رغم عدم تحسن الوضع عقب تطبيق القرار ٩٨٦ ، فإن مشكلة سوء التغذية لازالت موجودة وبشكل خطير فى شتى أنحاء العراق .

١٥ أكتوبر ١٩٩٧ : أعلن السكرتير العام للأمم المتحدة تكوين مكتب العراق تحت إدارة بينون سيفان مديرًا تنفيذيا .

٢٦ نوفمبر١٩٩٧ : طبع صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة (اليونيسيف) نتائج المجموعة التى قامت بإجراء مسح شامل بالعراق واتضح أن ٣٢ ٪ من الأطفال العراقيين أقل من خمس سنوات (٩٦٠ ألف طفل) يعانون من سوء التغذية المزمنة وزادت النسبة إلى ٧٢ ٪ عام ١٩٩١ . وحوالى الربع (٢٣٪) وزنهم أقل من المعدل الطبيعى بنسبة الضعفين عن المعدل الموجود فى تركيا والأردن .

أول ديسمبر١٩٩٧ : أوضح السكرتير العام فى تقريره بشأن المرحلة (٢) أن : « السكان العراقيين يواجهون حالة من نقص التغذية وتدهور الصحة ولابد من العمل العاجل لمنع التدهور المتزايد » ،

وأوصى بمراجعة « سلة الغذاء » ومراجعة عملية الموافقة على العقود والتسليم والتوزيع ، واقترح أن يعيد مجلس الأمن فحص كفاية الأموال المخصصة لذلك ... والعمل على إمكانية زيادتها .

٤ ديسمبر ١٩٩٧ : وافق مجلس الأمن بالإجماع على القرار ١١٤٣ الخاص بتمديد فترة جديدة مدتها ستة أشهر لعملية « النفط مقابل الغذاء » بالمبلغ السابق نفسه وقدره مليارا دولار من حصيلة بيع البترول ، واقترح كذلك أن يقدم السكرتير العام تقريراً جديداً يوضح فيه الاحتياجات البشرية ويعلن عزمه على السماح « بموارد إضافية » .

٥ ديسمبر١٩٩٧ : البدء الرسمى للمرحلة (٣) ، ومع ذلك أعلنت الحكومة العراقية أن الضخ لن يبدأ إلا بعد الموافقة على خطة ثالثة للتوزيع .

٢٠ يناير ١٩٩٨ : تم تسليم العقد الطبى الأول للمرحلة (٢) «أمصال للأطفال» عند نقطة حدود طرابيل (الأردن) .

أول فبراير ١٩٩٨ : أعد السكرتير العام تقريره التكميلى وعرض فيه اقتراحات جديدة وجذرية لتحسين عملية الموافقة وإبرام العقود . كما أورد سلسلة من التوصيات لإكمال « سلة الغذاء » بسعرات إضافية وبروتين حيوانى ، وأخيراً اقترح السكرتير العام أن المليارين من الدولارات غير كافية لتلبية احتياجات السكان العراقيين وأن تزداد إلى ٥,٢ مليار دولار (منها ٣,٤ مليار دولار تخصص للمطالب الإنسانية العاجلة) .

٢٨ فبراير ١٩٩٨ : وافق مجلس الأمن على القرار ١١٣ بناء على التقرير الذى قدمه السكرتير العام .

٢٠-٢٣ فبراير١٩٩٨ : قام السكرتير العام كوفى أنان بزيارة مثمرة إلى بغداد؛ لإنهاء الأزمة السياسية بين الحكومة العراقية ومفتشى الأونيسكوم UNSCOM ، وفى ٢٣ فبراير قابل طه يس رمضان نائب رئيس الجمهورية وبحث معه مستقبل برنامج « النفط مقابل الغذاء » .

١٩ مارس ١٩٩٨ : تسليم أول شحنة من الغذاء والمنتجات حسب المرحلة (٢) .

١٥ أبريل ١٩٩٨ : عقد الزعماء الأكراد لقاء مع مسئولى الأمم المتحدة فى محافظة السليمانية ؛ لمناقشة إعداد خطة جديدة للتوزيع ، وفى اليوم نفسه أعد السكرتير العام تقريراً ذكر فيه أن صناعة البترول العراقى فى « حالة يرثى لها » ، وقدر الخبراء أن العراق لا يمكنه ضخ بترول أكثر مما يعادل ثلاثة مليارات من الدولارات طوال الأشهر الستة ، وأن تقوم وزارة البترول العراقية باستيراد قطع غيار بقيمة ٣٠٠ مليون دولار .

٢١ مايو ١٩٩٨ : أظهرت نتائج التحقيق الذى قامت به وزارة الصحة العراقية وصندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) وبرنامج الغذاء العالمى WFP ، الخاص بفحص الحالة الغذائية لخمسة عشر ألفا من الأطفال الذين هم دون سن الخامسة ، أن مستوى سوء التغذية ظل كما هو دون تغيير منذ عام ١٩٩٧ ، ولن يتحسن بصورة ملموسة ما لم تحصل القطاعات الصحية والمياه على دعم مالى ضخم . إلا أن الدراسات أوضحت أن التدهور قد يستقر .

٢٨ مايو ١٩٩٨ : قام برنامج الغذاء العالمى WFP بدراسة سريعة فى وسط العراق وجنوبه ؛ لتحديد مدى كفاية الأموال المخصصة بموجب القرار ٩٨٦ للمواد الغذائية .

٢٩ مـايو ١٩٩٨ : وافق السكرتير العـام على خطة التـوزيع على أسـاس تخصيص ٣,١ مليار دولار للنـواحى الإنسانية (من بين ٤,٥ مليـار دولار عـائدات بيع بترول خـام) . وهـذا يمثل أكثر من ضـعف البرنامج . وفى اليوم التـالى ، وطبقًا للقرار ١١٥٣ ، بدأت مرحلة جديدة من عملية « النفط مقابل الغذاء » .

٤ يونيــو ١٩٩٨ : أظهرت نتـائج التحقيق الذى قـامت به وزارة الصحة العراقية والأمم المتحدة (منظمة الصحة العالمية ومجموعة المراقبين الجغرافيين والمنسقين) أن هناك تواجدا بصورة كبيرة للدواء فى المراكز الصحية منذ تطبيق القرار ٩٨٦ ، كمـا أوضحت دراسـة أخرى أن تأخير مـوعد تسليم المنتجات الطبية قد هبط من ثمانية أشهر إلى ثلاثة أشهر ونصف الشهر .

١٩ يونيـو ١٩٩٨ : صـادق مـجلس الأمن على القـرار ١١٧ للمسـاعدة على تصدير قطع غيار للعراق لزيادة إنتاج كميات البترول لتصل المبيعات إلى ٥,٢ مليار دولار ، كما لاحظ المجلس أن خطة التوزيع والمرحلة الجديدة ستظل فعالة عند كل تجديد ممكن للعملية .

أغسطس ١٩٩٨ : للمرة الأولى ، وفى خلال ما يقرب من عام ، أصبح العراقيون يتلقـون حصصًا كـاملة من المـواد الغـذائية بموجب القرار ٩٨٦ .

١٩ أغسطس ١٩٩٨ : أعلن مكتب البرنامج العراقى أنه سيقترح على اثنين من خبراء الأمم المتحدة مساعدة اللجنة ٦٦١ للتعجيل بالموافقة على قطع الغيار اللازمة لقطاع البترول .

٢٠ أغسطس ١٩٩٨ : أعلنت الأمم المتحدة أن عائدات البترول للمرحلة الرابعة ستكون أقل من المتوقع ، وأعرب دينس هاليداى منسق الشئون الإنسانية عن خيبة أمله من أن المرحلة الرابعة لن تلبى كل الاحتياجات المقترحة .

٢ سبتمبر ١٩٩٨ : أذيع تقرير السكرتير العام ربع السنوى بالنسبة للمرحلة الرابعة ، وأعلن أن عائدات البترول ستكون بعيدة تماماً عن الأموال المخصصة للتطبيق الكامل للبرنامج السارى ولن تتجاوز ٢,٨٦ مليار دولار للمرحلة الحالية (منها ١,٧٨ مليار دولار للمخصصات الإنسانية) .

٢٠ سبتمبر ١٩٩٨ : ترك دنيس هاليداى منسق الشئون الإنسانية بالعراق منصبه بعد قضاء خدمة مدتها ثلاثة عشر شهراً .

النساء والأطفال في العراق

بضع وقائع

استطاع العراق أن يحقق مستوى عاليًا نسبيا فى نهاية السبعينيات فى مجال الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية مقارنة بالدول المتقدمة ، إلا أن الحرب العراقية الإيرانية التى استمرت ثمانى سنوات ، وحرب الخليج الثانية ، وتطبيق العقوبات الاقتصادية – قد أثرت بشكل خطير على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للبلاد وعلى رفاهية السكان . وقد أحدث تدهور الصحة والتعليم والمياة والحالة الصحية وقطاعات الكهرباء شدة وقحطًا شديدين فى أوساط الناس خاصة المجموعات الضعيفة من النساء والأطفال التى تضررت كثيراً .

تأكد الالتزام العراقى بصورة واضحة تجاه النساء والأطفال عندما صادقت الدولة على الاتفاقية الخاصة بإدانة جميع أشكال التمييز ضد المرأة عام ١٩٨٦ واتفاقية حقوق الطفل عام ١٩٩٤ .

إلا أن تطبيق هاتين الاتفاقيتين لم يتم بسبب نقص الموارد المادية والفنية ، وفى الوقت الذى كان فيه العراق يبذل جهوده لحل تلك المشاكل ، حاول برنامج « النفط مقابل الغذاء » تأكيد مساهمة محدودة تتمثل فى توفير الغذاء والدواء ، وحاولت خطة التوزيع (المرحلة الرابعة) أن تردم الهوة ، وقامت وزارة الصحة بتوفير بسكوت ذى قيمة بروتينية عالية للنساء المرضعات أو الحوامل وألبان للأطفال الصغار الذين لديهم سوء تغذية .

والمشكلة الرئيسية التى تواجه النساء والأطفال العراقيين تظل متمثلة فى سوء التغذية ونتائجها الخطيرة على الصحة والنمو .

وقامت وزارة الصحة بدعم من صندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) التابع للأمم المتحدة وبالتعاون مع برنامج الغذاء العالمى ، بإعداد دراسة حول تغذية الأطفال والنساء فى ١٥ محافظة فى وسط العراق وجنوبه. وأجريت دراسة أخرى فى محافظات الشمال فى نوفمبر ١٩٩٧ . وأظهرت التقارير المختلفة مدى خطورة وانتشار سوء التغذية خاصة لدى الأطفال الذين هم أقل من خمس سنوات .

تقرير خاص من منظمة الأغذية والزراعة FAO

وبرنامج الغذاء العالمى WFP

(أكتوبر ١٩٩٧)

على الرغم من حدوث تقدم كبير فى موضوع التغذية بصورة عامة منذ صدور القرار ٩٨٦ ، فإن سوء التغذية يضفى دائمًا طابعًا خطيراً على البلاد حيث لاحظت البعثة حالات هزال شديد . كما أنه بالرغم من الزيادة الكبيرة فى كميات الغذاء منذ صدور القرار ٩٨٦ فيما يتعلق بالمواد النشوية التى تعطى طاقة وبالمواد البروتينية اللازمة ، فإن المواد المتوفرة ظلت غير كافية لعدد من الأغذية ، ولا تحتوى بصفة خاصة على فيتامينات A و C أو الكالسيوم أو الزنك أو فيتامينات B ، وقد وجد أن الحصص المقررة تتكون فقط من الحبوب ، ولكى تكون هذه العناصر مغذية يجب أن تكون التغذية متنوعة مع فواكه وخضراوات ومنتجات حيوانية ، وهذه المنتجات غير مدرجة فى الحصص المقررة بموجب القرار ٩٨٦ ، كما أنه يجب التأكد من أن تسليم المواد الغذائية – خاصة القمح والدقيق – يتم بأسرع وقت ودون تأخير. وحتى شهر مايو ١٩٩٧ كان القرار ٩٨٦ يوفر للعائلات التى لديها أطفال أقل من عام إمكانية الاختيار بين حصة شهرية مقدارها ٢,٧ كيلو جرام عصيدة لكل طفل أو حصة للكبار ، ومنذ شهر مايو ١٩٩٧ اقتصرت الحصة المقررة على العصيدة فقط .

ظهرت أيضا بوادر تدعو للقلق حول موضوع المعونة الطبية العاجلة للمجموعات المتضررة ، فقد لاحظت البعثة أن الاحتياجات الغذائية الأساسية للمجموعات المتضررة غير كافية لأن « سلة الغذاء » لا تفى بالمطلوب ، خاصة بالنسبة للأطفال الذين لديهم سوء التغذية .

وبالنسبة للقطاع الزراعى ، فقد تدهور بشكل كبير طوال التسعينيات وذلك بسبب نقص الاستثمار وتوفير المواد الأساسية، ورغم هذه المعطيات التى توفرت أمام البعثة ، فإنها ذكرت أن القرار طبق بشكل تام . وكان قد خصص مبلغ ٩٤ مليون دولار لاستيراد منتجات زراعية أساسية ، لكن البعثة اعتبرت أن هذا المبلغ غير كاف .

ومما لاشك فيه أن التوصية الملحة فيما يتعلق بالزراعة والتغذية تتمثل فى الحاجة إلى رد الاعتبار والنهوض بالتنمية فى جميع أنحاء البلاد .

وقد حدث تدهور خطير فى شبكة الصرف الصحى والمياه بالعراق ؛ لأن توفير المياه معناه الماء الصالح للشرب ومياه الرى ومياه الحدائق والغابات وإزالة ملوحة الأراضى والتخلص من مياه الصرف والمجارى ؛ لما فى ذلك من أهمية قصوى للإنتاج الزراعى وصحة الناس .

وتمت التوصية بالاهتمام بشبكة الصرف الصحى والمياه ، خاصة المياه النقية الصالحة للشرب ؛ حتى لا تكون سبباً فى نقل الأمراض وانتشارها .

صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة

(اليونيسيف UNICEF)

ينحصر دور صندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) التابع للأمم المتحدة حسب البرنامج المعد بموجب القرار ٩٨٦ فى التحقق من العدالة والفاعلية والكفاية فى توزيع السلع التى توفرها الحكومة العراقية فى وسط العراق وجنوبه فى قطاعات : التعليم والمياه والصحة ، وذلك فى إطار برنامج يتكلف ٩٣ مليون دولار ، كما يتولى تسليم الخدمات وتطبيق المشروعات فى المناطق الشمالية للعراق فى مجالات : التعليم والصحة والتغذية والمياه والقطاع الصحى بمبلغ يصل إلى ١٠٤ مليون دولار .

وقد تم تخصيص مبلغ ٢٤ مليون دولار لمحافظات الجنوب والوسط لكل مرحلة لتنفيذ مشروعات للمياه والصرف الصحى . ويتوقع برنامج « النفط مقابل الغذاء »

(المراحل : ١ و ٢ و ٣) مساعدة ٢١٣ مصنعًا لمعالجة المياه ، و ١١٩١ وحدة صغيرة للمياه و ٥١ محطة تنقية ، و ١٢ مصنعا لمعالجة المياه المستخدمة فى المناطق الجنوبية والشمالية . تقدر المبالغ المخصصة لمشاريع التعليم فى الوسط والجنوب بـ ٧ ملايين دولار لكل مرحلة (١ ، ٢ ، ٣) ، ويشمل ذلك توزيع المعدات المدرسية والمواد اللازمة للتربية والتعليم وطباعة الكتب وقطع غيار للطباعة وأدوات للتربية الرياضية والوسائل اللازمة لتدريب المعلمين .

وقد وصلت المبالغ المخصصة للمياه والمشروعات الصحية إلى ٢٠ مليون دولار فى محافظات الشمال للمرحلة الأولى ، و ٢٠ مليون دولار للمرحلة الثانية ، و ١٦ مليون دولار للمرحلة الثالثة ، وقد شمل ذلك أيضا صيانة ٦٨٥ مشروع مياه موجود وإعادة تشغيل ١٠٠ مشروع مياه و ١٥٠ مشروع بناء محطات ضخ وإنشاء قنوات صرف صحى وماء للبيوت فى ١٥ مكانًا .

وقدرت ميزانية التعليم فى المناطق الشمالية بعشرة ملايين دولار لكل مرحلة و ٤,٥ مليون كتاب مدرسى وإنشاء شبكة مياه وصرف صحى لعدد ٢٨٠ مدرسة ابتدائية .

كما خصصت ميزانية قدرها خمسة ملايين من الدولارات لكل مرحلة للصحة والتغذية فى محافظات الشمال . وتم توزيع أمصال ولقاحات ومحاليل الجفاف ، كما شمل البرنامج الغذائى ٤٢٠ ألف طفل أقل من خمس سنوات لزيادة نموهم وتغذية الأمهات المرضعات .

آلية المراقبة

تتضمن عملية المراقبة التى تتولاها الأمم المتحدة والحكومة العراقية التأكيد على أن توزيع السلع الإنسانية على السكان العراقيين يتم بصورة عادلة ، مع التركيز على فاعلية تلك العملية وتحديد مدى كفاية المقررات التى يتم تسليمها . تشمل كذلك عملية المراقبة قطاعات مختلفة : الغذاء والتغذية والصحة والمياه والصرف الصحى والكهرباء والتعليم ، فى كل أنحاء العراق بما فى ذلك محافظات الشمال الثلاث .

برنامج الغذاء العالمى WFP

ينحصر دور برنامج الغذاء العالمى فى التحقق من عدالة توزيع الغذاء الذى قامت الحكومة العراقية بشرائه ، والمساعدة فى تنفيذ تلك العملية ، وتحديد مدى كفاية الموارد المخصصة لتلبية الاحتياجات الإنسانية .

قدرت الكمية الإجمالية للغذاء الذى تم توريده خلال ستة الأشهر الأولى بـ ٢٢٧٢٧٠٠ طن بقيمة وصلت إلى ٨٧٠ مليون دولار . وتصل الاحتياجات الشهرية لمحافظات الوسط والجنوب إلى ٣٢٠ ألف طن ولمحافظات الشمال إلى ٥١ ألف طن . وتشمل المنتجات الغذائية أيضا منتجات غير غذائية مثل الصابون والمنظفات .

ويشمل تفويض برنامج الغذاء العالمى فى محافظات الشمال مسئولية توزيع الحصص المقررة ، وتنفيذ المشروعات الغذائية بالنسبة للأطفال الأقل من خمس سنوات الذين يعانون من سوء التغذية والنساء الحوامل والمرضعات والمجموعات الأخرى المتضررة .

يتم توزيع الغذاء عن طريق نظام التقنين الحكومى فى محافظات الوسط والجنوب ، حيث يتم التوزيع فى كل محافظة بمعرفة هيئات حكومية معتمدة تتولى تجميع المواد الغذائية فى مستودع ثم توزعها على الناس .

ويتم تطبيق النظام نفسه فى محافظات الشمال .

منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية

(اليونسكو UNESCO)

تأثر مستوى التعليم فى المراحل الابتدائية والثانوية والعالية فى العراق ؛ نتيجة النقص الحاد فى المواد الأساسية اللازمة للعملية التعليمية والأدوات المدرسية والكتب الدراسية والكراسات والمعدات الأخرى. ويبلغ عدد الملتحقين بالتعليم ٤,٨ مليون طالب وطالبة و ١٤ ألف مؤسسة تعليمية ، العدد الأكبر منها تعرض للدمار والخراب ولم يتم إجراء أية إصلاحات ، بل لا يوجد أى كراسٍ أو مقاعد ، وأغلب المدارس غير مزودة بالمياه الصالحة للشرب أو حمامات .

وأيضا ، حسب برنامج القرار ٩٨٦ ، ينحصر دور اليونسكو فى الإشراف على توزيع المواد التعليمية فى المدارس الابتدائية فى الجنوب والوسط والقيام بتوزيع تلك المواد فى الشمال . خصص مبلغ ٢٧,١ مليون دولار لخطة توزيع الاحتياجات التعليمية الأساسية .

يقوم اليونسكو بتنفيذ المشاريع مباشرة فى المجالات التالية :

- إعادة تأهيل المدارس وتزويدها بما تحتاجه من أدوات ومعدات (وقدرت الميزانية المتوقعة لذلك بـ ٢,١٦٠ مليون دولار) .
- إنشاء مدارس فى المناطق الريفية حيث من المتوقع إنشاء ٨ مدارس جديدة تبلغ تكلفتها ٢٠٨ ألف دولار .
- تصنيع أثاث مدرسى للمدارس المحرومة ، ومن المتوقع تجهيز وتوزيع ٣٧ ألف منضدة دراسية مزدوجة و ٢٥ ألف مقعد من اليونيسيف (الميزانية المتوقعة ١٢٣٣٠٠٠ دولار) .
- المواد الأساسية للفصول الدراسية وتدريب هيئات التدريس وتحسين البيئة التعليمية والدراسة بالمدارس بغرض رفع مستوى الكفاءة المهنية ورجال التعليم .

رجال ونساء يتسمون بالرقة

يتطلب عمل المراقبين قضاء عدة أيام فى عمل مضن والسفر ساعات طويلة على الطرق البرية قبل الوصول إلى أبعد الأماكن المعزولة . وكل مراقب يقطع يوميا ما بين ٣٠٠ إلى ٩٠٠ كيلو متر يوميا فى المتوسط ، وفى حالة حدوث عطل فى السيارة ، فالفرصة ضعيفة لإيجاد مكان لإصلاح السيارة فى الحال خاصة إذا كان بعيداً عن الورشة التابعة للأمم المتحدة الخاصة بصيانة وإصلاح السيارات فى بغداد . والواقع أن عمل المراقبين يحتاج كثيراً من الوقت وفى جو تتراوح فيه درجة الحرارة ما بين ٤٠ إلى ٤٥ درجة مئوية فى شهر يونيو . وفى بغداد يكون الجو جافا ، أما فى الجنوب فهو

شديد الحرارة والرطوبة . وفي شهرى يوليو وأغسطس ، فتصل درجة الحرارة الخارجية إلى ٥٥ أو ٦٠ درجة مئوية . ويشكل مستوى الحرارة خطرًا حقيقيا ينبغي على المراقبين أن يضعوه في الاعتبار . ففي خلال ساعتين ، يمكن للجسم أن يفقد أكثر من لترين أو ثلاثة من الماء في صورة عرق .

وللتأكد من أن السلع ذات الدافع الإنساني التي توزع تصل إلى كل الأماكن للناس في جميع أنحاء العراق، فإن مجموعات المراقبين تنتشر في القطاعات المستهدفة. ولذا فهم يراقبون ويرصدون أية حالة خلل في التوزيع أو أن هناك أفرادًا أو عائلات لم تصلهم سلة الغذاء التي تعطيها الحكومة لهم ، ومن أجل هذا الغرض يسافر موظفو الأمم المتحدة على طرق فرعية لم يطرقها أحد غيرهم . ويذكر أحد المراقبين الأوروبين أنه توجه إلى منطقة حدودية بين ميسان وإقليم البصرة حيث أعرب الشخص المرافق والسائق العراقي عن قلقهما خوفًا على حياة الأوروبي ، ساروا في طريق مرصوف لمسافة ٢٠ كيلو مترًا لكن حالته سيئة للغاية وعبروا ثلاث قرى صحراوية ولم يقابلوا سوى ٢٣ شخصًا خلال أربعة أيام .

ورغم المضمون المعقد لعملية « النفط مقابل الغذاء » فإن السكان استقبلوهم بالود والترحاب .

وقد توجه مؤخرًا بعض الأجانب خارج بغداد ، بخلاف موظفي الأمم المتحدة ، وظهر كرم الضيافة العربية في أروع صورة ، وقد تلقى المراقبون عدة دعوات من أول زيارة في أغلب الأحيان .

وتقضي تعليمات عمل المراقبين بعدم السماح لهم بالراحة إلا لفترات قصيرة ، ولا يحصل أي منهم على إجازة إلا خمسة أيام بعد عمل متواصل لمدة ثلاثة أشهر .

لا يغادر المراقبون بغداد فرادى بل اثنين سويا لمهمة تستغرق من خمسة إلى ١٢ يومًا . وعندما يصلون إلى الموقع يتجمع حولهم من ٣٠ إلى ٤٠ شخصًا . وعدد كبير من الأطفال يشتكون من نقص مواد تتعلق بالتغذية ويطلبون غذاء وأحيانًا لعبًا ، وقد ذكر إسكندر خان وهو باكستاني عمل فترة طويلة في مهام تابعة للأمم المتحدة قائلاً : «لا يمكنك أن تمنع نفسك من الشعور بالإحباط لعدم تلبية طلباتهم واحتياجاتهم» .

وتتذكر ماريان بوشمان وهى من لوكسمبورج عندما انتابها شعور بالإعياء بعد زيارتها مستوصف للولادة وشاهدت امرأة تحتضن مولودها وتضمه إلى صدرها وهى تحتضر بعد إجراء عملية ولادة قيصرية لها بدون بنج : « إننى فى مهمة تتعلق بوظيفتى ... ولكن حقيقة تمر على الإنسان لحظات مثل تلك التى ذكرتها تجعله يشعر بالرغبة فى الجلوس والبكاء » .

ويعرب دنيس هاليداى منسق العلاقات الإنسانية بالعراق عن إخلاص ووفاء المراقبين الذين يعملون تحت سلطته : « إنهم يؤدون واجبهم وأكثر ، وهم مدركون لظروف الحياة القاسية التى تمر بكثير من العراقيين ... ويفهمون جيداً أهمية حصول العائلات على نصيبها من الطعام المحسَّن ومياه شرب أفضل وخدمات صحية وكهرباء وخدمات أخرى » .

الفصل الثامن عشر

قائمة بأسماء الأشخاص

الذين تمت مقابلتهم والتحدث معهم

غربيون

- برنارد جارانشيه : مستشار بسفارة فرنسا فى بغداد .
- إريك ڤولت : قائم بأعمال العلاقات العامة بمقر وكالات الأمم المتحدة بفندق القنال فى بغداد .
- دكتور ميشيل چولى : مسئول عن مجموعة المراقبين الجغرافيين ١٩٩٧-١٩٩٨ . ثم قام بدراسة الآثار النفسية والاجتماعية للحرب والحصار المفروض على العراق ، وذلك بتكليف من وزارة الخارجية الفرنسية .
- دكتور چان فرانسوا دونار : منسق تابع للأمم المتحدة .
- چيرار مارتينيز : مدير المركز الثقافى الفرنسى .
- مارى بول جارسو : ملحقة للغويات بالمركز الثقافى الفرنسى .
- فيليب إسبوزيتو : حارس بسفارة فرنسا .
- فيرچينيا ڤولت : طالبة بكلية العلوم السياسية .

عراقيون

- دكتور الهاشمى : قائم بأعمال العلاقات الدولية بحزب البعث .
- صلاح المختار : رئيس لجنة السلام والتفاهم والتضامن .
- عُدَىّ التايه : مدير وكالة الأنباء العراقية .
- مصطفى المختار : اقتصادى ، عضو فى أكاديمية العلوم .
- الأب يوسف حَبِّى : مطران الكنيسة الكلدانية .
- الأب روبير : أسقف الكنيسة اللاتينية .
- الأب ألبير : الكنيسة الأرثوذكية .
- الأب إكرام ، القس إبراهيم مهنى : راعيا كنيسة الإصلاحيين .
- نرمين المفتى : صحفية بجريدة الجمهورية ومراسلة لمحطات التليفزيون الغربية .
- ثريا السعدون : مهندسة بوزارة البيئة .
- محمد صاحب سلطان : رئيس تحرير جريدة الجمهورية .
- عبدالظاهر زكى : صحفى وشاعر .
- مى عبدالكريم : رئيس قسم اللغة الفرنسية بجامعة المستنصرية .

فنانون (عراقيون)

- فاروق سلّوم : فنان ، مدير مسرح الرشيد ، مسئول البرامج الثقافية بوزارة الثقافة .
- محمد غنى : نحات .
- قاسم السبتى : فنان تشكيلى .

- زينب ماضى : فنانة تشكيلية .
- علاء بشير : جراح تجميل وفنان تشكيلى .
- سعدى الكابى : فنان تشكيلى .
- إسماعيل فتح الترك : نحات .
- ليث فتح الترك : فنان بأعمال الخزف ونحات .
- نور الدين أدهم : رسام .

(شخصيات فى) الأردن

- د. فيصل : صحفى وناقد أدبى .
- فتحية سعودى : طبيبة أطفال وكاتبة .
- أسماء مجهولة فى المنفى .

المؤلفة فى سطور

أليس بسيرينى

كاتبة وصحفية فرنسية ، اتسمت بالجرأة الشديدة التى سجلتها فى كتابها هذا عن النتائج الرهيبة الناجمة عن فرض الحظر على العراق . كما لجأت إلى متابعة العمل الدقيق والتحقيقات من خلال مقابلاتها الجريئة التى تميزت بالحرية الكاملة . تميز عملها فى هذا الكتاب بالشرف والأمانة والموضوعية وحرية الرأى ، وتغلغت فى أوساط الأسر العراقية مما ساعدها على اكتساب خبرة طويلة عن العراق و الوقوف على الحقائق خاصة بعد زياراتها المتكررة للعراق .

قامت بتأليف كتاب قبل هذا عن العراق تمت ترجمته فى بغداد بناء على طلب من وزارة الثقافة العراقية .

المترجم فى سطور

محمد رفعت عواد

من مواليد القاهرة . حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية ودبلوم التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس سنة ١٩٥٦ . درس فى جامعة السوربون بباريس حصل خلالها على ثلاث دبلومات عليا فى الأدب الفرنسى واللغة وعلم النفس والفن .

عمل خبيراً لليونسكو بالكونغو كينشاسا ، ومترجماً بالشعبة الوطنية لليونسكو بالرياض ، ومترجماً بوزارة البترول وبوزارة الدفاع السعودية .

عمل مترجماً برئاسة الجمهورية ومترجماً بوكالة الأنباء الفرنسية وأستاذاً للغة الفرنسية بكلية الشرطة ومديراً عاما للترجمة بالهيئة العامة للاستعلامات .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت: بإشراف: أحمد عتمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغيرعن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحة الخولى
١٢٦	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرءوف البمبى
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم منوفى
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٢٣١	الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت: جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادى	روبين فيرين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرؤوف اليمبى
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	ت: توفيق على منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم منوفى
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت: حسن بيومى
٢٥٤	الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديڤ روبنسون وكريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨	الغجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت: على يوسف على
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	ت: لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	روميلو جالاجوس	ت: محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وآخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠	يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣	أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤	الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤	اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥	عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس
٣٣٤	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥	عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦	متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧	الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو

٣٤٨	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٣٥٠	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٣٥١	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٣٥٢	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٣٥٣	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٤	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٥	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٥٦	الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعى
٣٥٧	متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٣٥٨	أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازى السيد
٣٥٩	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشارونى
٣٦٠	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربينى
٣٦١	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢	تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبوورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبرى محمد حسن
٣٦٤	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥	سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧	القلم الجرئ	نخبة	ت: البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨	المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت: فوزية العشماوى
٣٧٠	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢	عاش الشباب	وانغ مينغ	ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت: على إبراهيم منوفى
٣٧٤	اليوم السادس	أندريه شديد	ت: حمادة إبراهيم
٣٧٥	الخلود	ميلان كونديرا	ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦	الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨	المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩	ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣	هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت: ريهام حسين إبراهيم

٣٨٧	أغنيات وسوناتات	چون دن	ت: بهاء چاهين
٣٨٨	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩	من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١	الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٣٩٢	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٣٩٤	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٣٩٦	السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧	نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨	سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩	كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠	مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١	الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥	إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩	انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠	خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠	مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١	الولاء والقيادة	روى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمودد سلامة علاوى

٤٢٦ الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨ الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩ هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠ كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١ فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢ ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣ جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤ الرومانسية	دونكان هيث وچودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥ توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦ تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧ رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩ موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١ رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢ حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣ اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤ أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥ حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦ التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧ نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨ علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩ الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠ ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١ الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣ القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥ تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦ لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧ النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨ الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩ نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠ الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١ لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢ طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤ ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف

٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد الننة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسرِّل: الفلسفة علماً دقيقاً	هُسرِّل	ت: محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦	ربما كان قديساً	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١	كوكب مرقَّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	چونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون وودونا باوندى	ت: صبرى محمد حسن
٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٤	الملك لير	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٥٢٥	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول وليم رانكين	ت: محيى الدين مزيد
٥٢٧	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيرى
٥٢٨	تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	ت: جمال الجزيرى
٥٢٩	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث»» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت: صفاء فتحى
٥٣٢	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت: بشير السباعى
٥٣٣	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت: محمد الشرقاوى
٥٣٤	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت: شوقى جلال
٥٣٧	للحب والحرية	نخبة	ت: عبدالغفار مكاوى
٥٣٨	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت: محمد الحديدى
٥٣٩	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت: محسن مصيلحى
٥٤٠	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت: رءوف عباس
٥٤١	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت: مروة رزق
٥٤٢	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	ت: نعيم عطية

٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت: وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلانى كلاين	نخبة	ت: حمدى الجابرى
٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت: عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	ت: توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت: جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت: حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت: جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت: حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت: سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت: على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت: رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت: عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت: أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت: حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	ت: عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت: عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	ت: أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت: على السيد على
٥٦٧	الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت: عبد السلام حيدر
٥٦٩	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ت: ثائر ديب
٥٧٠	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	ت: يوسف الشارونى
٥٧١	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت: السيد عبد الظاهر
٥٧٢	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	ت: كمال السيد
٥٧٣	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	ت: جمال الجزيرى
٥٧٤	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	ت: علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	ت: أحمد محمود
٥٧٦	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ت: ناهد العشرى محمد
٥٧٧	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	ت: محمد قدرى عمارة
٥٧٨	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	ت: محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	ت: محى الدين مزيد
٥٨٠	دائرة المعارف الدولية	جون فيزر وبول سيترجز	ت: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	ت: سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٢	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣	الجيران	أحمد محمود	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤	سفر	محمود دولت آبادى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	ت: سهام عبد السلام
٥٨٧	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	ت: عبدالعزيز حمدى
٥٨٨	أمنحوتپ الثالث	آنييس كابرول	ت: ماهر جويجاتى
٥٨٩	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	ت: محمود مهدى عبدالله
٥٩١	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	ت: على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	ت: مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣	قصائد ساحرة	بول فاليرى	ت: بكر الحلو
٥٩٤	القلب السمين	سوزانا تامارو	ت: أمانى فوزى
٥٩٥	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوآدو بانولى	ت: نخبة
٥٩٦	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	ت: إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	ت: جمال عبدالرحمن
٥٩٨	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	ت: بيومى على قنديل
٥٩٩	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	ت: محمود سلامة علاوى
٦٠٠	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	ت: مدحت طه
٦٠١	النسوية والمواطنة	ريان فوت	ت: أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	ت: إيمان عبدالعزيز
٦٠٣	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	ت: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. آبوت	ت: توفيق على منصور
٦٠٥	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	ت: محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	ت: صبرى محمد حسن
٦٠٨	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاردى سينت فيلبى	ت:صبرى محمد حسن
٦٠٩	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	ت: شوقى جلال
٦١٠	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	ت: على إبراهيم منوفى
٦١١	النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	ت: فخرى صالح
٦١٢	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	ت: محمد محمد يونس
٦١٣	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	ت: محمد فريد حجاب
٦١٤	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	ت: منى قطان
٦١٥	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	ت: محمد رفعت عواد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٩٦١٤ / ٢٠٠٣

فى شهر ديسمبر ١٩٩٨ سقط على العراق ٤٠٠ صاروخ إستراتيجى يعادل عشرة أضعاف ما أسقط على العراق طوال ٤٢ يومًا من الحرب عام ١٩٩٢. واتخذ الأمريكان وحلفاؤهم البريطانيون قرارًا من جانب واحد بالقيام بسلسلة من الغارات العسكرية لضرب العراق، وأصبحت الغارات الأمريكية البريطانية شبه يومية على معظم أنحاء العراق. وفى خلال ثمانى سنوات منذ حرب الخليج، ساد الجوع والحرمان فى كل مكان، وأصبح العراق منذ ذلك الحين تحت وصاية الأمم المتحدة. وقد زرعت الأونيسكوم (لجنة فرض العقوبات) نفسها بطريقة تشبه الورم الخبيث بحيث تتصرف دون عقاب أو محاسبة، بل أصبحت خارج القانون يمارس خبراؤها التدمير للمواقع التى يزورونها وللطاقة الصناعية والثقافية ومصانع الإنتاج والمنتجات المصنعة والمكتبات الجامعية والمواد الإعلامية، كما يمارسون الحظر التعسفى لتسليم منتجات ومواد مصنعة. وتابعت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عمليات التفتيش دون أى عوائق لمدة ثمانى سنوات ونشأ جو من الشك والريبة؛ مما جعل البلاد فى وضع الشهيد والضحية نتيجة سوء النية الغربية.

الغلاف/ عبد ال